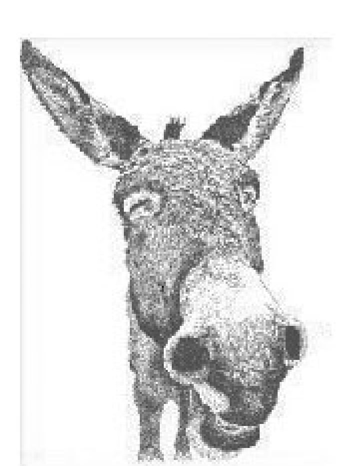
مطبوعات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

حوادث دمشق اليومية

١١٥٤ – ١١٧٥ هـ
١٧٤١ – ١٧٦٢ م

جمعها : الشيخ أحمد البديري الحلاق
نقحها : الشيخ محمد سعيد القاسمي

وقف على تحقيقها ونشرها
دكتور أحمد عزت عبد الكريم
أستاذ التاريخ الحديث بجامعة عين شمس



القاهرة
١٩٥٩

مطبوعات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ٢

حوادث دمشق اليومية

١١٥٤ — ١١٧٥ هـ

١٧٤١ — ١٧٦٢ م

جمعها : الشيخ أحمد البديري الحلاق
نقحها : الشيخ محمد سعيد القاسمي

وقف على تحقيقها ونشرها

دكتور أحمد عزت عبد الكريم

أستاذ التاريخ الحديث بجامعة عين شمس

الطبعـــة الأولى

١٩٥٩

مطبعة لجنة البيان العربي

[illegible]

إلى دمشـــــق

المدينة العربيـــة الخالدة

أهدى هذا الـكتاب فى حقبة من تاريخها

ذكرى السنوات الجميلة المثمرة التى أمضيتها بها

(١٩٢٦ — ١٩٤٩)

مقدمة

كانت سورية أول قطر عربي دخله الأتراك العثمانيون فاتحين ، في حركة التوسع العثماني الكبير في العالم العربي ، الذي بدأه السلطان سليم الأول (سنة ١٥١٦) وأتمه من بعده ابنه السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠–١٥٦٦) . فعلى أثر وقعة مرج دابق شمالي حلب (سنة ١٥١٦) وهزيمة الجيش المملوكي بقيادة السلطان قنصوه الغوري استولى العثمانيون على بلاد الشام جميعها ، وتقدموا فدخلوا مصر ، وزالت السلطنة المملوكية وحلت محلها ولايات عثمانية في القاهرة ودمشق وحلب وطرابلس وصيدا[1].

حقاً إن هذه الولايات خضعت للون واحد في الحكم ، وقامت فيها حياة المجتمع على نسق يكاد يكون واحداً ، وسادتها حياة ثقافية وروحية واحدة ، ولكن كان لكل من هذه الحواضر شخصيتها الخاصة ، التي استمدتها من ماضيها العريق ، ومن مقومات الحياة الدنية الخاصة التي خضعت لها في العصر العثماني ، سواء كانت حكومية أو و طنية فكان لكل منها حكومتها الخاصة ، وقواتها العسكرية الخاصة ولها مشكلاتها الخاصة ، حتى اعتاد أهل كل حاضرة أن يعيشوا ويفكروا (منفصلين) عن سواهم ، معتزين بشخصياتهم ، حريصين عليها ، حتى قام الحكم الوطني فوضع أمام المواطنين جميعاً مثلا أعلى ، وفي ظل الكفاح المشترك والمصلحة المشتركة ذابت الوحدات الإقليمية الصغرى في الوحدة القومية الكبرى .

وقد بقي الحكم العثماني في سورية قائماً حتى الحرب العالمية الأولى ، أي أنه دام فيها نحو أربعة قرون . ويمكن أن نقسم تاريخ سورية في هذا العهد العثماني الطويل إلى الأقسام الآتية :

١ — العهد العثماني الأول من ١٥١٦ إلى ١٨٣١ ، أي من وقت دخول السلطان

---

(١) أنشئت باشوية (أوولاية) صيدا في سنة ١٦٦٠ ، قد دعا إلى إنشائها ما حدث من اضطراب في جبل لبنان في القرن السابع عشر ، بقيام الأمير فخر الدين المعني الثاني بحركته الشهيرة ضد الدولة وما تلا ذلك من أحداث ، فأنشأت الدولة باشوية في صيدا للإشراف على شئون الجبل ، ثم انتقل مقر الولاية إلى عكا ثم إلى بيروت.

انظر : أحمد عزت عبد الكريم : التقسيم الإداري لسورية في العصر العثماني. (حوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس. المجلد الأول ١٩٥١) .

سليم الأول الأقطار السورية إلى دخول القوات المصرية هـذه الأقطار وضمها إلى مصر فى حكم واحد ، هو حكم محمد على .

وتتميز هذه المرحلة بسطحية الحكم العثمانى وشيوع روح المحافظة والجمود والتشتت فى أداة الحكم وفى تنظيم المجتمع .

٢ — عهد الحكم المصرى فى الشام ١٨٣١ — ١٨٤٠ ، وكان هذا الحكم امتداداً للحكم العثمانى ، على اعتبار أن مصر وسورية بقيتا جزءاً من الإمبراطورية العثمانية ، ولو أن مصر خرجت عليها وحاربتها . إلا أن هذا العهد تميز بالحكومة المركزية القوية ، وإخضاع — أو محاولة إخضاع — العصبيات والطوائف المحلية والأخذ بسياسة التجديد ، والحكم المصرى — من هذه الوجهة — مهد للعهد التالى فى سورية .

٣ — عهد التنظيمات وما يلحق به من حكم السلطان عبد الحميد ، ثم حكم الاتحاديين حتى الحرب العظمى الأولى وانهيار الامبراطورية العثمانية . (أى من ١٨٤٠ إلى ١٩١٨) .

ويتميز هذا العهد باصطناع العثمانيين فلسفة جديدة فى الحكم ، قوامها تشديد قبضة الحكومة على ولاياتها وتوثيق ربطها بالحكومة المركزية والأخذ بسياسة التجديد وتدبير الأدوات لتحقيق هذه الخطط .

* * *

وإن الباحث فى التاريخ السورى الحديث — وهو ليس إلا تاريخها فى العهد العثمانى — لتروعه حقيقة صارخة : وهى أن هذا العهد لم يحظ من المؤرخين بالعناية التى تتفق وأهميته ، وقد اقتطع من تاريخ سورية أربعة قرون . وفى رأينا أن هذا الإهمال يرجع — فى الدرجة الأولى — إلى بهاء العصر السابق للفتح العثمانى ، وهو العصر الذى اصطلح على تسميته بالعصر الإسلامى ، وانشغال الناس بأحداث العصر التالى لانسلاخ سورية من الحكم العثمانى وما صحبه من أحداث الكفاح الوطنى ضد الانتداب الفرنسى . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لم يقم فى هذا العصر العثمانى — على طوله — وخاصة فى العهد الأول منه من المؤرخين العمالقة مثل من حفل بهم العصر السابق ، واستنام الناس إلى أن العصر العثمانى كان متسماً بالجمود والركود فأهملوه ، إلا أن وصمه بالجمود والركود لا يبرر هذا الإهمال .

ومن جهة ثالثة يرجع هـذا الإهمال — فى رأينا — إلى صعوبة جمع المادة التاريخية التى يقام عليها تاريخ العصر العثمانى وخاصة فى عهده الأول ، ويرجع ذلك إلى عدم توافر المصادر الأصلية التى ينبغى أن تـكون فى متناول المؤرخ لهذا العصر . حقاً إن بين أيدينا معلومات غزيرة مما كتبه بعض الرحالة الأجانب ، وقد يكون أجدرها بالتقدير رحلة فولنى إلى مصر والشام بين سنتى ١٧٨٣ و ١٧٨٥ . ولـكن الرحالة الأجانب فى بلادنا لا يعرفون كل شئ ، وإذا عرفوا أشياء شاب كتاباتهم الهوى أو النفاق أو الجهل ، أو غير ذلك مما يشوه المادة التاريخية .

أما المادة الأصلية التى يتكون منها تاريخ سورية — أو تاريخ أى بلد آخر — فينبغى أن تستمد من مصدرين أساسيين :

الأول : الوثائق الرسمية من فرمانات السلاطين والباشوات وأوامر رجال الحكم وسجلات الأجناد ودفاتر الأموال والأراضى والمراسلات التى تبودلت بين هيئات الحكم فى الولاية والحـكومة المركزية ، ورسائل القناصل وأوراق المحاكم وسجلات الأوقاف .. الخ .

ولـكن هذه الوثائق الرسمية المتعلقة بالتاريخ السورى الحديث وخاصة بين القرنين السادس عشر والثامن عشر ليس إليها حتى اليوم من سبيل ، على الأقل فى سورية ، وإذا كان بعضها لا يزال موجودا ، فإن الجهود لإخراجها — بله تنسيقها وإعدادها للباحثين — لم تبذل بعد[1] . وكأن هذه القرون الأربعة التى مرت بالحكم العثمانى فى سورية قد بدأت وانتهت دون أن تخلف من تلك الأوراق والدفاتر شيئا ، مع أن هذا يتنافى وما نعرفه عن أساليب الحـكومة العثمانية فى ولاياتها . وليس من شك فى أنه إذا أريد إعادة كتابة تاريخ سورية الحديث كتابة علمية مضبوطة محققة ، لا تقف عند (العموميات) وإنما تتعمق (الجزئيات) ، ليس من شك فى أن الوقت قد حان للقيام (بحملة) علمية منظمة ، تستهدف البحث عن هذه الوثائق الرسمية والكشف

---

(١) إن الدراسات التى قام بها الاستاذ برنارد لويس فى دور الوثائق التركية باستامبول تفصح عن أهمية الوثائق العثمانية فى كتابة تاريخ البلاد العربية .

انظر Bernard Lewis : The Ottoman Archives as a Source for the History of the Arab Lands (J. R. A.S. Oct. 1951. pp. 139-155).

—Studies in the Ottoman Archives (B. S.O.A.S.1954 XVI-3 pp. 409- 501).

عنها وتيسير سبل البحث فيها أنى وُجدت[1] ، على أن يسبق هذا بطبيعة الحال إعداد أباحثين الذين سيضطلعون بمثل هذا العمل الإعداد الصحيح .

والمصدر الثانى : ما كتبه المعاصرون من أبناء البلاد أنفسهم فى تاريخ بلادهم أو وصف مجتمعاتهم أو الترجمة لأعلامهم . وفى رأينا أن هذه الكتابات لاتقل أهمية وخطراً عن الوثائق الرسمية ، فهى وثائق (أهلية) إن صحّ هذا التعبير ، وهى من هذه الوجهة قد تكون أجلّ من الوثائق الرسمية شأناً ، لأنها أصدق تصويرا لجوانب من حياة المجتمعات قد لا تتناولها أوراق الحكومة .

ونتيجة لقيام الوحدات الإقليمية فى الحواضر السورية وقع على عاتق أبناء كل حاضرة مسئولية الاهتمام بتدوين تاريخهم ، فعلماء حلب كتبوا فى تاريخ حلب وترجموا لأعلامها ، وعلماء دمشق كتبوا فى تاريخ مدينتهم وترجموا لأعلامها ولا نعرف أن عالما من دمشق أو من حلب أو من طرابلس تصدّى — قبل القرن التاسع عشر — لكتابة تاريخ سورية كلها بمختلف وحداتها الإدارية ، حتى إن عالماً فاضلاً كالمرحوم الأستاذ محمد كرد على عندما تصدى فى عصر متأخر لكتابة تاريخ بلاده أوخططها قصر همه على (خطط الشام) أى دمشق ، أما فى العصر العثمانى الأول

بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر — فلا نكاد نجد من المراجع المنشورة عن تاريخ الشام إلا النزر اليسير . عندنا حقا ما كتبه ميخائيل الدمشقى عن حوادث الشام ولبنان[2] وأكثره متعلق بتاريخ لبنان ، وما كتبه المحبى[3] والمرادى[4] فى تراجم أعلام القرنين الحادى عشر (السابع عشر الميلادى) والثانى عشر (الثامن

---

(١) هذا باستثناء بعض أوراق القناصل الأوربيين التى استخدمها بعض المؤرخين الأجانب لكتابة جوانب من تاريخ سورية ، وخاصة الجوانب الاقتصادية مثل :

Charles Roux : Les échelles de Syrie et de Palestine au XVIII èsiècle-
Masson : Histoire du commerce au Levant au XVII - Siècle.

ومثله عن القرن الثامن عشر .

ومثل بعض الوثائق الإيطالية التى استخدمها الدكتور حسن عثمان (فى بحث له غير منشور) والأب بولس قرآلى (فى بحث منشور) عن الأمير فخر الدين المعنى الثانى .

أما وثائق القرن التاسع عشر فقد لقيت حظا أكثر من العناية ، مثل وثائق الشام فى العهد المصرى التى جمعها ونشرها الدكتور أسد رستم والمحررات السياسية التى نشرها فريد الخازن .

(٢) نشره الخورى قسطنطين الباشا . حريصا ١٩٣٠ .

(٣) خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر . القاهرة ١٢٨٤ هـ .

(٤) سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر . القاهرة ١٣٠١ هـ .

عشر الميلادى) وما كتبه القسّار والقارى عن وزراء دمشق وقضاتها[1] وأكثره لا يعدو أن يكون قوائم بأسماء الباشوات الذين تعاقبوا على حكم دمشق فى العصر العثمانى ، مع نبذة وجيزة عما حدث فى عهد كل منهم . ولكن هذه الكتابات — على ما فيها من مادة ثمينة — لا تكفى وحدها لإنشاء تاريخ دقيق مفصل للشام فى العصر العثمانى ، ومن هنا تجيء الدعوة التى وجهناها لإعداد(حملة) علمية منظمة للكشف عن المصادر الأصلية للتاريخ السورى — بل العربى عامة — فى العصر العثمانى ، وخاصة فى العهد الأول منه — حتى القرن التاسع عشر ، وهو العهد الذى نال نصيبا أكبر من إهمال المؤرخين العرب المحدثين . ونرجو أن يكون هذا الجهد المتواضع الذى نتقدم به اليوم لجلاء جانب من تاريخ سورية فى القرن الثامن عشر مقدمة لهذه (الحملة) التى ندعو إليها ، ولبنة فى البناء التاريخى الذى ندعو لإقامته .

* * *

والكتاب الذى ننشره اليوم ألفه أحد أبناء الشعب الدمشقى ، فى القرن الثامن عشر ، وهو « أحمد البديرى الحلاق الدمشقى » ، وقد دون فيه « حوادث دمشق اليومية » فى خلال إحدى وعشرين سنة من ذلك القرن ، وهى الواقعة بين سنتى ١١٥٤ و ١١٧٥ هجرية (١٧٤١ — ١٧٦٢ ميلادية)[2] .

لم يقصد البديرى بكتابه أن يدوّن تاريخا لبلده، فمثل هذا العمل الكبير كان فوق ما تحتمله ثقافة الرجل ، بل كان فوق إدراك أكثر علماء ذلك الزمان ، ولكنه شهد أحداثا انفعل بها ، فانكب على أوراقه يسجل ما شهد وما سمع يوما بعد آخر ، دفعته إلى ذلك مجرد الرغبة فى التسجيل خشية النسيان ، أو هواية الكتابة أو التعبير عن مشاعره والتنفيس عن كامن عواطفه وتسجيل رأيه فى الناس وفى الحوادث، أو الرغبة فى إفادة من يأتى بعده ، على نحو ما عرف أو سمع عن كتابات من سبقه من الكتاب والمؤرخين . لم يقصد البديرى بمؤلفه — إن كان قد قصد حقا أن يضع مؤلفا واضح الحدود والمعالم — أن يتقدم به إلى وزير أو يتملق به كبيرا ، فجاء كتابه —

---

(١) نشرهما الدكتور صلاح الدين المنجد فى مجلد واحد بعنوان : « ولاة دمشق فى العهد العثمانى » دمشق ١٩٤٩ .

(٢) يلاحظ أن البديرى مؤلف الكتاب ذكر أنه جمع الحوادث التى جرت بدمشق من سنة ١١٥٤ إلى سنة ١١٧٦ ، ولكن القاسمى منقح الكتاب فطن إلى أن المؤلف زاد سنة ونبه إلى ذلك فى أول الكتاب وفى آخره .

أو مذكراته — صورة صادقة لقطاع من حياة الناس في دمشق في أوائل القرن الثامن عشر .

وهذه الصورة التي قدمها لنا البديري عن دمشق في ذلك الوقت لا تكاد تختلف في خطوطها العريضة عن صور الحياة في غير دمشق من الحواضر العربية ، لا تكاد تختلف عما نقرؤه في تاريخ الغزي عن حلب أو في تاريخ الجبرتي عن القاهرة أو في مطالع السعود عن بغداد ، لا تكاد صور الحياة في هذه الولايات العربية تختلف إحداها عن الأخرى ، لأن المقومات التي قامت عليها حياة المجتمعات فيها تكاد تكون واحدة ، والأنظمة التي وضعها السلاطين العثمانيون لحكمها كانت واحدة .

قلنا إن هذه الصور تتشابه في عمومياتها ، وإن اختلفت جزئياتها باختلاف ظروف ولاية أو حاضرة عن أخرى ، من جهة ، وبتفاوت المستوى الثقافي لأولئك الكتاب الذين قدموا لنا هذه الصور من جهة أخرى .

وبعد ... فأين الحلاق أحمد البديري من معاصره[1] العالم المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي ؟ ؟

* * *

لا نعلم — على وجه التحقيق — السنة التي ولد فيها البديري ولا السنة التي انتقل فيها إلى جوار ربه ، ذلك لأن البديري في كتابه — كما وصل إلينا بعد أن تناولته يد المنقح بالتهذيب — لم يتحدث كثيراً عن نفسه وعن أسرته . ومضى البديري في الحياة مغموراً ، لم يحفل به كتاب الطبقات أو الأعلام ، ولم يعده المرادي من « أعيان » القرن الثامن عشر الذين احتفل بتدوين سيرهم في سلك درره .

وكل ما نعرفه عن السنوات التي عاشها البديري هي تلك الفترة التي دون هو حوادثها بدمشق ، وهي الفترة الممتدة بين سنتي ١١٥٤ و ١١٧٥ هـ (١٧٤١ — ١٧٦٢ م) ولكنا لا ندري هل كانت هذه السنوات — وقد بلغت إحدى وعشرين سنة — الجانب الأطول من عمره أو الأقصر ، وإن كان من الطبيعي أن البديري لم يبدأ في تدوين حوادث دمشق اليومية من سنة ١١٥٤ إلا بعد أن استوفى نضجه واتسعت دائرة معارفه الذين كانوا عدونه بالأنباء ، وكبرت تجاربه ، وخبر الحياة حلوها ومرها ، فأقبل على التأليف والكتابة ونظم المواليا .

---

(١) ولد الجبرتي في سنه ١١٦٧ ، وكان البديري حينذاك رجلا مكتمل الرجولة عاكفاً على كتابة يومياته .

وقد ذكره منقح الكتاب فى بدايته باسم « شهاب الدين أحمد بن بدير البديرى الشهير بالحلاق » ، وربما وجد النقح هذا الاسم مدوّنا على الكتاب فنقله كما هو. وقد ينصرف الذهن إلى أن « الحلاق » كانت للبديرى كنية ، وليست حرفة اشتغل بها ، وقد تكون حرفة أبيه أو جدّه من قبل فاشتهر بها . قد ينصرف الذهن إلى شيء من هذا ، لولا أن البديرى نفسه ذكر فى عدة مناسبات من كتابه اشتغاله بالحـــلاقة .

الأولى : فى ختام المواليا الذى نظمه فى سنة ١١٥٤ «فى حق من أظهر الكذب والأراجيف من أهل دمشق »[١] .

والثانية : حين ذكر أستاذه « فى صنعة الحلاقة » الحاج أحمد الحلاق بن حشيش ذكره معتزا به إذ « كان حلاقا لفرد زمانه وقطب أوانه الشيخ عبد الغنى النابلسى قُدّس سره » و « ما وضع يده على مريض إذا رمد وقرأ ما تيسّر إلا شفاه الله وعافاه » ، وقال صبيّه وتلميذه البديرى « ومنه حصل لى الفتوح والبركة »[٢] .

والثالثة : حين ذكر — فى موضع آخر — رجلا كان صاحب الفضل فى تعليمه وتثقيفه ، حتى وصفه بالأب والوالد والأستاذ والمربى . وقال إنه فريد عصره ووحيد أوانه ، ولا غرو . . فقد « كان يحكى سيرة الظاهر وعنترة وسيف ونوادر غريبة فى التركى والعربى ، ومع ذلك فهو أمى لا يقرأ ولا يكتب . وهو بحر خضم لا يخاض »[٣] .

والمناسبة الرابعة التى تحدث فيها البديرى عن اشتغاله بالحلاقة حين ذكر وفاة « معتقد أهل الشام على الإطلاق الشيخ يوسف الحلوتى » وقال معتزا « ومما منّ الله به علىّ أن حلقت رأسه واغتنمت دعاءه »[٤]

وقد حرص البديرى الحلاق على أن يسجل وفاة رؤساء الطوائف أو نقباء الحرف أو الأصناف ، إلى جانب من ذكرهم من العلماء وأرباب الطرق والمتصوفة وأصحاب الكرامات ، كرئيس الحلاقين ، ورئيس الدباغين ،ونقيب النقباء على الحرف والصنايع والطرق وغيرهم من مشايخ الحرف

---

(١) ص ١١ — ١٥ من هذا الكتاب .
(٢) ص ٢٤ — ٢٥
(٣) ص ٣٤
(٤) ٦٢ — ٦٣ص

وقد كان لطوائف الحرف مكانها فى المجتمع الحضرى لذلك العهد، فقد كانت أداة قوية من أدوات التنظيم الاجتماعى ، إذ كانت كل طائفة تنتظم المشتغلين بالحرفة ، ولها نظامها وكيانها وتقاليدها . ولها رئيسها ، وكانت الطائفة أداة لتكتيل أعضائها وحمايتهم فى وقت عزت فيه حماية السلطات الحاكمة ، كما كانت أداة أمن ورعاية لأبنائها ، وكانت — بما تملك من وسائل التجميع والتكتيل — قادرة على العمل فى المدينة ، خصوصاً إذا لاحظنا أن كثيرا من أفرادها والمنتمين إليها كانوا — باندماجهم أو انتمائهم إلى سلك الانكشارية المحلية — يحملون السلاح ، فكانوا لذلك أقدر من غيرهم من سكان المدينة على الذود عن أنفسهم وحماية مصالحهم . هذا إلى أنهم لم يكونوا محرومين من ذلك القدر وذلك النوع من الثقافة الذى عرفه أوساط الناس لذلك العهد ، وهى ثقافة تلقوها من المتصوفة وأرباب الطرق. والارتباط بين طوائف الحرف وطرق الصوفية كان قويا[1] ، وقد زود رجال الطرق الصوفية أرباب الحرف وسائر الناس بثقافة روحية أخلاقية ، وإن شابتها فى كثير من الأحيان الخزعبلات والخرافات — وقد أطلقوا عليها فى ذلك العصر اسم الكرامات — إلا أنها كان لها أثرها الطيب فى تربية الناس وتهذيبهم والترفيه عنهم ، إذ رققت بعض الشىء الحياة الخشنة التى كانوا يحيونها .

ولطائفة الحلاقين من بين طوائف الحرف مكانتها فى المجتمع الدمشقى ، فهم طائفة لا يستغنى عنهم ، يلجأ الناس إليهم لحلاقة الرأس — فأكثر الناس فى ذلك الوقت كانوا يطلقون لحاهم ويرون العار كل العار فى حلاقتها — كما يلتمس الناس عندهم الطب والعلاج وختان أطفالهم ، وكان أكثر حلاقى ذلك العصر يعمل (بالبركة) ، فهو قد يحلق لكبير فيتقاضاه أجراً كبيراً ، وقد يحلق لطالب علم فلا يتقاضاه شيئاً . ونحن نذكر أياما لم يكن فيها للحلاق أجر معلوم ، بل كان يأخذ شاكراً كل ما يقدم إليه من أجر كثيرا كان أم قليلا .

وقد كتب منقح الكتاب الشيخ محمد سعيد القاسمى عن (الحلاق) فى القاموس الذى وضعه عن الصناعات الشامية[2] ، ولا غرو فقد كان جده — هو الآخر — حلاقا . ولكنه كتب عن الحلاق والحلاقة فى أواخر القرن التاسع عشر حين أقبل

---

(١) يبدو أنه كان لكل حرفة ولكل طريقة نقيب ، ثم كان لهؤلاء النقباء نقيب عليهم ، فقد ذكر البديرى وفاة « نقيب النقباء على الحرف والصنايع والطرق » .

(٢) بدائع الغرف فى الصناعات والحرف . مخطوط بمكتبة أسرة القاسمى ص ٦٧ .

الحلاقون على « تحسين الدكاكين ووضع المرايا الكبار والقطع الجليلة والتصاوير والقازات المثمنة (أي الثمينة) ، وغير ذلك من آلات التحسين والعدة البديعة من الأمواس الطيبة والمقصات من الأجناس العالية والغالية » ، وأصبحوا « مرفهين في ملابسهم وهيئتهم مع نظافة المحل والبشاكير واستعمال الروائح الفاخرة بحيث لو مرّ الشخص على إحدى دكاكينهم لاشتهى أن يحلق ولو كان حالقاً ... » . ومضى القاسمي يصف عمل فريق آخر من الحلاقين ، ممن « يعلق عدته في جدار حائط » ويحلق للفلاحين والفقراء ، ووصف حلاقتهم « بالذباحة » من « كثرة الشروخ » التي يصيبون بها رأس زبون بموسى قد علاه الصدأ فأصبح « كالمنشار » !

ولكن القاسمي أغفل ناحية هامه من حياة الحلاقين في ذلك الوقت ، وهي أنهم — بما عرف عنهم من اختلاطهم بالناس من مختلف الطبقات والطوائف ومن إقبالهم على التحدث مع زبائنهم — والحديث ذو شجون — كانوا يسمعون كثيرا ويروون كثيرا ، فكانوا — في وقت انعدمت فيه وسائل رواية الأخبار من صحف أو إذاعة... الخ خير رواة للأخبار .

قلنا إن البديري لم يتحدث كثيرا عن نفسه وعن أسرته ، فلم نعرف إلا النزر اليسير الذي ذكره عن نفسه في ثنايا كتابه ، قال إنه ولد في محلة القبيبات ، وكانت بمثابة ضاحية لدمشق ، تقع إلى الجنوب الغربي منها في طريق الحج[1] . وكانت محله عامرة بالأضرحة والمساجد ، ومن قبابها اتخذت اسمها . فنشأ البديري في بيئة متدينة . نشأ مبجلا للعلم والعلماء ، والمتصوفة وأرباب الكرامات ، وأخذ هو نفسه العهد وسار في الطريق .

ولم يذكر البديري شيئا عن أبيه ، وأكبر الظن أنه كان حلاقا مثله ، فنشأ ابنه على احتراف مهنته ، وربما أورثه أدواته ودكانه ، فكان الارث الوحيد الذي خلفه له . وبعد وفاة والده انتقل البديري والأسرة إلى محلة أخرى ، هي محلة التعديل ، أي من خارج المدينة إلى قلبها . ويبدو أن والده توفي قبل أن يشرع هو في تدوين «حوادث دمشق اليومية » لأنه لم يشر إلى وفاته ، كما فعل عند وفاة أمه .

ويبدو أن أمه كانت قوية الأثر في تكوينه الروحي والثقافي ، ذكرها بالخير في مناسبة موتها سنة ١١٥٥ — أي في العام التالي لشروعه في تدوين (الحوادث) —

---

(١) انظر الخريطتين اللتين أوردناهما في آخر الكتاب . والقبيبات لم تعد معروفة اليوم.

« كانت من القانتات العابدات تصلى نوافل الليل ولها أوراد »[1] . ونحن نعرف أن البديرى كانت له — هو الآخر — أوراد وأدعيات وتسابيح .

ولم يتحدث البديرى عن أحد من أفراد أسرته : إلا بنتاً له — أو جارية على حد تعبيره ، رزق بها فى سنة ١١٥٥ ، قبل وفاة أمه بضعة أشهر ، وتفاءل بمولدها ، إذ كان وأهله فى ضيق ، فسماها صالحة « لعل بقدومها يحصل لنا الفتح والفاتحة . جعلها الله تعالى فالحة »[2]. وفى موضع آخر ذكر ابنا له هومصطفى ، ويبدو أنه كان يعمل على تنشئته نشأة دينية كما نشأ هو نفسه ، فكان يصطحبه لزيارة الأضرحة ، ويجعله يتلو كلام الله معه وهما فى الطريق[3] .

وقد ولد البديرى فى أسرة متوسطة رقيقة الحال وإن كانت لا تميل إلى الفقر . كان لهم منزل فى محلة القبيبات ، حيث مسقط رأسه وأيام طفولته ، فلما تحولوا إلى محلة التعديل عقب وفاة أبيه اشتروا لهم منزلا جديداً ، فأصبحوا فى « ضيق » ، حتى إذا ولدت له بنت دعا ربه أن يجعل بقدومها « الفتح والفاتحة » ولسنا نعرف هل استجاب الله لدعائه ، ولكنا نعرف أنه ظل طوال السنوات التى دوّن حوادثها يشكو شدة الغلاء وارتفاع أثمان المواد الغذائية من خبز وكعك وعسل ولحم وسمن وجبن ، ومواد الوقود من فحم وحطب ، فكان يسجل أثمانها مرة أو أكثر من مرة فى كل عام ، حتى ثمن الحلق ، وهو شىء له أهميته عند حلاق تلك الأيام . وكان ارتفاع أثمان الحاجيات أو خفضها عند البديرى — بل عند الناس كافة — مقياساً لعدالة الحكم أو فساده ، ذلك لأنه ردّ الغلاء إلى جشع الحاكمين وتكالبهم على تخزين المؤن وإهمال القاضى التفتيش على الأسواق وإنقاص الحكومة قيمة العملة . وقد حرص على تسجيل (المظاهرات) التى كان يقوم بها العامة فى دمشق للشكوى من الغلاء ، حتى لقد كانوا يواجهون الباشا ويغلظون له القول ويتصدّون للأعيان والعلماء بالسبّ والإهانة ويتهمونهم بأنهم يمينون الحكام على الشعب ، بل لقد هجموا على القاضى وضربوا رجاله واضطروه إلى الهرب فوق أسطح المنازل .

قلنا إن البديرى نشأ فى بيئة متدينة ، هى محلة القبيبات ، وفى بيت تتلى فيه

(١) انظر ص ٣٠ من هذا الكتاب . وقد أسهب البديرى — فى النسخة الأصلية من الكتاب — فى الحديث عن أمه وأورادها ، ولكن منقح الكتاب حذف هذا الإسهاب .

(٢) ص ١٨

(٣) ص ١٦٨

الأوراد ، وهكذا نهل البديرى من تلك الثقافة الصوفية التى كانت شائعة فى أيامه ، حتى إذا ضرب فى الشــباب انتمى إلى إحدى الطرق الصوفية التى كانت منتشرة فى ذلك الوقت فى البلاد العربية جميعاً وهى الطريقة السعدية[1] . فقد كتب كثيراً باحترام وتوقير عن شيخ هذه الطريقة « شيخنا » الشيخ إبراهيم الجباوى ، وعما كان يتمتع به من مكانة فى المجتمع الدمشقى حاكمين ومحكومين ، بل فى بلاط السلطان نفسه ، وكثيراً ماتوسط فى النزاعات التى كانت تجرى بين طوائف العسكر[2] .

وبلغ من تعلق البديرى بهذه الطريقة الصوفية أنه أصهر للأسرة الجباوية . ولكنه لم يذكر كنه هذا الصهر .

وللبديرى ـــ شأن أرباب الطرق جميعاً ـــ أوراد وتسابيح ، أخذ بعضها عن أمه ، وأخذ بعضها الآخر عن شيوخه . وقد سجل البديرى كثيراً من هذه الأوراد فى كتابه ، ثم جاء المنقح الشيخ محمد سعيد القاسمى فرأى ـــ سامحه الله ـــ أنها مما « يمل سامعها ويسأم قارؤها » لحذفها[3] ، فاختفت من نسخ الكتاب كما وصلت إلينا ، ولم يبق منها إلا دعاء واحدا أخذه البديرى عن شيخ قراء الشام « وخاصيته لهجوم المخاوف فى السفر والحضر » [4]

وقد ذكر البديرى طائفة من الشيوخ الذين عرفهم وأخذعنهم ، وقال إنهم شيوخه وأساتذته ، فنوّه بذكرهم وأشاد بفضلهم ، ولا يستبعد أن يكون البديرى قد اغتنم شيئا من الفراغ فتردد على حلقات العلم فى مسجد بنى أمية وغيره من المساجد وتلق عنهم شيئا من علم ذلك الوقت ، فنحن نعرف أن الصلة كانت قوية بين طوائف العلماء والمتصوفة ، وغدا أكثر علماء ذلك العصر يجمعون بين العلم والتصوف ، بل إن منهم ن أضاف إلى هذا وذاك حرفة يحترفها من صناعة أو تجارة ، لأنه يرى طلب الرزق ن هذا السبيل أجدى عليه وأكرم من رزق (الوظيفة) ، ومنهم من بدأ حياته صانعا ثم تحول هو أو أبناؤه أو أحفاده إلى طلب العلم .

وقد جعلت هذه التربية الدينية الصوفية من البديرى رجلا متدينا حريصا على أحكام الدين ، غيورا على مكارم الأخلاق ، مبجلا للعلماء وأرباب الكرامات ، فملأ كتابه بنقد

---

(١) انظر عنها فى الكتاب ص ٩١ (حاشيه ١)

(٢) ص ١١٧

(٣) ص ٣

(٤) ص ٥٢ — ٥٣

المجتمع الدمشقي على عهده لما شاع فيه من فساد . ويبدو أن اكتظاظ المدينة بمختلف طوائف العسكر وانفلات النظام بينهم ، قد أشاع في المدينة جواً من الفساد الخلقي ، فكثرت بها « بنات الخطا » وتبرجن وجاهرن بالمعصية في الشوارع « ومعهم الدالاتية والفساق ولا أحد يتكلم بقيل وقال ، ولا أمر بمعروف ولا نهى عن المنكر ، والصالح في هم وكرب والفاجر الطالح يتقلب في لذيذ النعم . اللهم فرّج آمين »[1] ، حتى إن فتاة منهن تدعى سلمون « افتتن بها غالب النساء ، حتى صاروا ينسبون إليها كل شىء ، فيقولون : هذا المتاع سلمونى وهذا الثوب سلمونى وهكذا » ، وأصدر المفتى فتوى بقتلها فقتلت ، وأصدر الباشا أمرا بأن كل من وجد بنتا من بنات الخطا فليقتلها ودمها مهدور[2] .

بل لقد تجرأن ، فأقامت إحداهن مولداً احتفالا بشفاء غلام من الترك عشقته ودعت « شلكات البلد وهن الومسات ، ومشين في أسواق الشام وهن حاملات الشموع والقناديل والمباخر ، وهن يغنين ويصفقن بالكفوف ويدققن بالدفوف ، والناس وقوف صفوف تتفرج عليهن وهن مكشوفات الوجوه سادلات الشعور ، وما ثم ناكر لهذا المنكر ، والصالحون يرفعون أصواتهم ويقولون الله أكبر »[3] .

وخوطب الباشا في ذلك ، وعرض عليه أن ينفين أو يجمعن في مكان ، ولكنه أبى ، خشية أن يدعون عليه في الليل والنهار[4] ! ثم فضّل الباشا أن يرتب على كل واحدة منهم عشرة قروش في الشهر ، وجعل عليهن صوباشياً أى جنديا[5] .

هذا الجو الملىء بالفساد كان مما ضاق به البديرى أشد الضيق ، وكثيراً مارفع يديه شاكياً ، ناعياً على الحكام إهمالهم . كما دفعته روح التدين إلى الغيرة على السادات أوالأشراف ، وكثيرا ماكانو هدفا لعدوان العسكر ، فكانو يردّون العدوان بمثله ، وكثيرا ماذهب دمهم هدرا ، ويصرخ البديرى : فانظروا يامسلمين إلى هذا الإنصاف (يقصد عدم الإنصاف) ، وقولوا يا خفىّ الألطاف نجنا مما نخاف »[6] .

ودفعته تربيته الصوفية إلى الإيمان بالكرامات والتنويه بأصحابها[7] .

---

(1) ص ٩٢ — ٩٣

(2) ٥٧ .

(3) ص ١١٢

(4) ص ١٢٧ — ١٢٨

(5) ص ١٣٤

(6) ص ٣٢ ، ص ١٢٢ ، ١٣٨ ، ١٥٤ ، ١٦٥ ، ١٨٣

(7) ص ١١٢ .

والبديرى — إلى جانب ثقافته الدينية الصوفية — أديب رقيق الشعور ، عرفه أدباء عصره ، وعلى رأسهم شاعر الشام وأديبها الكبير فى القرن الثانى عشر الشيخ عبدالرحمن البهلول ، تلميذ الصوفى الكبير الشيخ عبدالغنى النابلسى وصفيّه ومادحه فى قصيدة طويلة ، حتى دعاه النابلسى (شيخ الأدب فى الشام)(١) . وقد نقل لنا البديرى فى كتابه طائفة من شعر البهلول ، وذكر نبأ وفاته فى سنة ١١٦٣(٢) .

والبديرى نفسه كان شاعرا ، وكان شاعرا شعبيا ، نظم المواليا فى أغراض مختلفة ، منها ما نظمه « فى حق من أظهر الكذب والأراجيف » من أهل الشام فى سنة ١١٥٤ ، وتساءل « هم اللاعبين صاروا يعلموا بالغيب » ؟!(٣) . ومنها ما نظمه عندما حارب أسعد باشا العظم جند الانكشارية المحلية وتتبع رؤوسهم (الزرباوات) أى الأشقياء بالقتل والتشريد ، فتشفى فيهم البديرى وتساءل : أين « الزلاقة » التى كانوا يتباهون ويتظاهرون بها « ديك الزلاقة مضت يا حيفها يا حيف » !(٤) ، ومنها ما نظمه عندما فتك أسعد باشا العظم بفتحى أفندى دفترى الشام « بعد أن طالت دولته وعظمت عليه من الله نعمته .. وهو يتجاهر بالمظالم ولا يبالى من دعوة مظلوم » ، فنظم البديرى موالياً مطلعه :

يا ما فعل فتحى لما صار دفتردار ∴ غرّه زمانه وسعده حول داره دار(٥)

ونظم البديرى المواليا فى المناسبات الخاصة ، خرج يوما فى نزهة (أوسيران فى تعبير أهل الشام) إلى ناحية تطل على المرجة ، وقضى يومه فى سرور وانبساط ، حتى جادت قريحته بموال وصف فيه يومه :

مضى لنـــا يوم مثله ما سبق يا خال ∴ فى مرجة الشام ما تشوفون موضع خال(٦)

* * *

ولكن كتاب « حوادث دمشق اليومية » ليس للبديرى وحده ، فالبديرى قد جمع مادة الكتاب وكتبها بأسلوبه الذى تشيع فيه العامية ، ثم ظل الكتاب محفوظاً ، حتى وقع لأحد العلماء الدمشقيين فى القرن التاسع عشر ، وأعجب به ، فأقبل عليه وهو الشيخ محمد سعيد القاسمى .

(١) ص ٦
(٢) ص ١٣٩
(٣) ص ١٢ — ١٥
(٤) ص ٧٠ — ٧١
(٥) ص ٧٩
(٦) ص ١٤٠

ويتناقل أحفاد القاسمى اليوم روايات مختلفة[1] عن الطريقة التى وصل بها كتاب البديرى إلى يد جدهم الشيخ محمد سعيد . قيل إن الشيخ أراد يوما أن يبتاع شيئا من عطار ، فوضع له العطار ما باعه فى ورقة مكتوبة ، ولما عاد الشيخ إلى بيته فتح الورقة وقرأ ما فيها — وكان الشيخ طامة يتعشق القراءة — فأدرك أنها جزء من مخطوط تاريخى ، فعاد فورا إلى العطار واستطاع أن يحصل منه على جميع الأوراق الباقية عنده من الكراسة ، حتى اجتمع له مخطوط البديرى «حوادث دمشق اليومية» .

ولكن أعضاء آخرين من الاسرة يروون رواية أخرى ترجح الرواية الأولى قالوا[2] إن مخطوط البديرى كان محفوظا فى مكتبة الشيخ محمد النير أحد علماء دمشق فى القرن الماضى ، وكانت له مكتبة قيمة حافلة بالكتب المخطوطة والمطبوعة . وبعد وفاة صاحبها — فى أواخر القرن التاسع عشر — عرضها ولده للبيع ، وكانت العادة حينذاك أنه حينما يراد بيع مكتبة ما أن تعرض فى الجامع الأموى ، وعرضت مكتبة الشيخ وحضر جمع غفير من العلماء وهواة الكتب وتجارها ، وكان ممن حضر الشيخ طاهر الجزائرى وصديقه الشيخ محمد سعيد القاسمى وولده جمال الدين .

فلما عرضت الكتب كان « حوادث دمشق اليومة » من بينها ، فلم يكترث به أحد ، فعرض بثمن بخس ، ولكن لما اطلع عليه الشيخ طاهر عرف أهميته ، فعزم على شرائه . ولاحظ أحد الحاضرين الضاربين اهتمام الشيخ بالكتاب فزاد عليه ، والشيخ مصمم على شرائه إلى أن زاد ثمنه من عشرة قروش إلى ثلاثمائة قرش ، وهذا مبلغ له قدره فى تلك الأيام . فقال أحد الحاضرين المنصفين لمن بالغ فى زيادة الثمن للمضاربة : هذه زيادة ضرر ! لأن الشيخ طاهر لابد له من شراء الكتاب مهما بلغ ثمنه . وكانت للشيخ مكانة بين الناس ، فتركوا له الكتاب ، وكان رحمه الله شديد الحرص على اقتناء الكتب النادرة والمحافظة عليها .

ثم استعار الكتاب الشيخ محمد سعيد القاسمى من صديقه الشيخ طاهر الجزائرى وقرأه ، فأعجب به ، إذ رآه قد اشتمل على صور من حياة دمشق عفى عليها الزمان .

---

(١) نقل لى هذه الروايات الصديق الأستاذ أبو الفرج العش محافظ المتحف الوطنى بدمشق نقلا عن بعض أفراد أسرة القاسمى بدمشق .

(٢) صاحب هذه الرواية هو السيد محمد سعيد القاسمى القيم الآن على المكتبة القاسمية الموقوفة على الأسرة ، وقد اعتمد فى روايته على الشيخ حامد التقى تلميذ الشيخ محمد سعيد القاسمى وملازم ولده جمال الدين ونسيب الأسرة أيضا .

وبلغ من إعجاب الشيخ محمد سعيد القاسمى بكتاب البديرى أنه حرص على أن تكون لديه منه نسخة خاصة ، حتى يتوفر على درسها فى روية وإمعان ، فاستأذن الشيخ طاهر الجزائرى فى نسخ الكتاب فأذن له ، ففعل وأعاد النسخة الأصلية إلى الشيخ طاهر ، فبقيت فى مكتبته حتى تشتتت المكتبة، ولم يعلم مصيرها[1]. وقيل إن الشيخ طاهر فى آخر أيامه اضطر إلى بيع كثير من كتبه لحاجته إلى المال .

وهكذا اختفت النسخة الأصلية من (حوادث دمشق اليومية)، وكان آخر العهد بهذه النسخة حين اطلع عليها المرحوم الأستاذ محمد كرد على صاحب (خطط الشام) وذكرها فى قائمة المراجع التى استمد منها مادة خططه[2]، وقال إنها مودعة فى مكتبة الشيخ طاهر الجزائرى . فإذا كان هذا حقا يكون الأستاذ كرد على قد اطلع على النسخة الأصلية من (حوادث دمشق اليومية) قبل تنقيحها .

وعكف الشيخ محمد سعيد القاسمى على درس مخطوطة البديرى، ورأى أن يجعلها أقرب إلى التناول ، فتناول أسلوبها بالتهذيب والتنقيح ، بل إنه تناول بعض مادة الكتاب بالحذف والاختصار . وجعل له عنواناً جديدا هو « تنقيح الشيخ محمد سعيد القاسمى لحوادث دمشق اليومية » وحفظه فى مكتبته ، فبقى فيها حتى اليوم ، وهى مكتبة خاصة موقوفة على أعضاء أسرة القاسمى بدمشق، ويبدو أن القاسمى تحدث عن الكتاب، فأقبل النساخ ينسخونه، فكانت من ذلك النسختان المودعتان بالمكتبة الظاهرية بدمشق والنسخة المودعة بمكتبة أحمد تيمور باشا بدار الكتب المصرية بالقاهرة ، على خلاف بسيط بينها ، مرجعه إلى النساخ أنفسهم . وعلى هذه النسخ كان اعتمادنا فى نشر هذا الكتاب

* * *

وبقدر ما كان أحمد البديرى صاحب (حوادث دمشق اليومية) مغمورا ، مضى لم يحفل به أحد ، ولم يدون سيرته مؤلف ، كان الشيخ محمد سعيد القاسمى منقح هذه (الحوادث) معروفا بين الناس، وترجم له أكثر من مؤلف[3] .

---

(١) لم تفلح الجهود التى بذلناها وبذلها آخرون للعثور على النسخة الأصلية من مؤلف البديرى قبل أن يتناولها المنقح بالتهذيب .

(٢) خطط الشام ج ١ ص ١٤

(٣) رجعنا فى ترجمة الشيخ محمد سعيد القاسمى إلى المراجع الآتية :

(١) مخطوط محفوظ بالمكتبة القاسمية كتبه ولده المفسر الكبير الشيخ جمال الدين القاسمى. بعنوان : « بيت القصيد فى ترجمة الإمام الوالد السعيد » . وقد ضمنه إلى جانب الترجمة =

هو أحد علماء دمشق وأدبائها المعروفين فى القرن التاسع عشر، ولد فى دمشق فى أسرة معروفة اشتغل أفرادها بالعلم، وإن كان جدّهم الأول كان يعمل حلاقا — كما هو مذكور فى نسبه — ثم تحوّل أو تحول أبناؤه إلى طلب العلم. وربما كان هذا الجدّ معاصراً للبديرى، وقد يكون هذا مما لفت الشيخ محمد سعيد القاسمى إلى هذا المخطوط الذى كتبه أحد الحلاقين الدمشقيين فى القرن الثامن عشر، فاحتفل به وأقبل على قراءته ونسخه، وأقدم على تنقيحه وتهذيبه.

وُلد الشيخ محمد سعيد القاسمى فى دمشق فى أوائل المحرم ١٢٥٩ (فبراير ١٨٤٣)[١]، وتوفى بها فجأة فى ٢٢ شوال ١٣١٧ (فبراير ١٩٠٠). وكان أبوه الشيخ قاسم من كبار علماء عصره، وصفه حفيده الشيخ محمد جمال الدين القاسمى بأنه « عمدة العلماء الأعلام، وقدوة أكابر فصحاء الشام الطائر صيت فضله فى الآفاق »، وكان إماما بجامع السنانية — أحد الجوامع الكبيرة بدمشق — وكان يلقى به دروسا.

تلقى محمد سعيد التعليم الشائع فى عصره، دفعه أبوه إلى بعض الحفاظ البارعين لحفظ القرآن الكريم، ثم أقبل على دروس أبيه « فى الفنون العربية والعلوم الشرعية » ولازمه حتى أصبح يعيدله دروسه فى السنانية « بين العشائين »، كما أخذ العلم عن شيوخ دمشق المعروفين فى عصره. ثم خلف أباه فى إمامة الناس فى السنانية وإلقاء الدروس بها، كما قصده كثير من الطلبة لتلقى العربية عنه فى داره.

= القصائد الشعرية التى كتبها الشيخ محمد سعيد، فجاء أشبه بديوان له، حتى إن ولده الشيخ جمال الدين كان قد أسماه أولا « بيت القصيد فى ديوان الإمام الوالد السعيد »، ثم استبدل بكلمة « ديوان » كلمة « ترجمة ».

وقد تفضل السيدان ظافر القاسمى ومحمد سعيد القاسمى — مشكورين — بإطلاع الصديق الأستاذ أبو الفرج العش على هذه الترجمة المخطوطة وأذنا له بأن ينقل لى موجزا لها.

(٢) كتاب « تراجم أعيان دمشق فى نصف القرن الرابع عشر الهجرى ١٣٠١ — ١٣٥٠ هـ »، وهو ذيل لكتاب « روض البشر فى أعيان دمشق فى القرن الثالث عشر » تأليف الشيخ محمد جميل الشطى (دمشق ١٣٦٧ هـ = ١٩٤٨ م) ص ٨١ — ٨٢.

(٣) كتاب « منتخبات التواريخ لدمشق » تأليف الشيخ محمد أديب تقى الدين الحصنى فى ثلاثة أجزاء دمشق ١٩٢٧ — ١٩٣٤. انظر الجزء الثانى ص ٧٢٢

(٤) كتاب « حلية البشر فى تاريخ القرن الثالث عشر » وهو مخطوطة فى ثلاثة أجزاء بمكتبة المجمع العلمى العربى بدمشق تأليف الشيخ عبد الرازق بن حسن البيطار. وقد علمنا أن الأستاذ الشيخ بهجة البيطار عضو هذا المجمع عازم على نشره.

(١) ذكر تقى الدين الحصنى (٧٢٢/٢) أن القاسمى ولد فى سنة ١٢٥٨.

وكان الشيخ سعيد القاسمي شديد الإقبال على القراءة في علوم وفنون مختلفة، كالفقه والحديث واللغة والأدب ، قوىّ الحافظة حتى قيل إنه طالع « تذكرة داود » في الطب ، فحفظ كلياتها ومهمات مفرداتها كأنه نشأ في مدرسة طبية[1] . ومال إلى الأدب وقرض الشعر من جد وهزل ، وكان له شغف بالموسيقى[2] وعرف بحسن الصوت وحلاوة الحديث وابتكار النوادر ، حتى كان الأدباء يسعون إلى مجلسه . وقد قام بعدة رحلات منها زيارته القدس الشريف وأداؤه فريضة الحج .

وقد خلف — فضلا عن شعره — طائفة من المؤلفات ، وكلها لا تزال مخطوطة بمكتبة الأسرة القاسمية منها :

١ — ترجمته لوالده الشيخ قاسم بعنوان : « الثغر الباسم في ترجمة العلامة الشيخ قاسم » .

٢ — قاموس في الصناعات الشامية عنوانه : « بدائع الغرف في الصناعات والحرف » ، تكلم فيه على الصناعات الشائعة في دمشق مرتبة على أحرف الهجاء ، ولكنه لم يتم منها إلا إلى حرف السين ، ثم تدارك ابنه الشيخ جمال الدين بعض مافاته منها وأكمله لآخره[3] .

٣ — كتاب «سفينة الفرج فيما هبّ ودبّ ودرج» على نمط الكشكول ، جمع فيه طائفة من «الفوائد والفرائد» ، وكتب على ظهره منوها بقناعته وشغفه بالمطالعة:

إذا لم أجد لى فى الزمان مؤانسا جعلت كتابى مؤنسى وجليسى
وأغلقت بابى دون من كان ذا غنى وأمليت من مال القناعة كيسى

٤ — كتاب « تنقيح حوادث دمشق اليومية » للشيخ أحمد البديرى الحلاق الدمشقى ، وهو هذا الكتاب الذى ننشره اليوم .

---

(١) لاحظ اهتمام الشيخ سعيد القاسمي بالطب والتطبيب ، وهو مما كان يقوم به الحلاقون .

(٢) ذكر حفيده الأستاذ ظافر القاسمي المحامى بدمشق أن جده كان جميل الصوت بارعاً فى الموسيقى والإيقاع . ومن طرفه فى هذا الباب أنه ألف قصيدة رقيقة ضمّن كل بيت منها اسم نوع من الأنغام الشرقية ، فأتى شيخ الموسيقيين فى ذلك العصر أبو خليل القبانى ولحنّ القصيدة وأعطى كل بيت نغما مطابقا لما هو مذكور فيه فجاءت القصيدة آية ذلك العصر .

(٣) لم أطلع إلا على فقرات من هذا الكتاب تفضل بنقلها لى الاخ الأستاذ أبو الفرج العش . وقد لاحظ أن الشيخ جمال الدين فى الأجزاء من الكتاب التى كتبها بنفسه أقوى من أبيه أسلوبا وأصح لغة ، وقد ذكر لى عزم المعهد الإفرنسى للآثار الشرقية ببيروت على نشر هذا الكتاب .

قد أقبل الشيخ سعيد القاسمي على تنقيح الحوادث وتهذيبها في أواخر أيام ، ثم بهذا العمل جهوده العلمية والأدبية،فقد فرغ منه في ٢٤رمضان١٣١٧ (١٩) كما ذكر في خاتمة الكتاب ، وبعد أقل من شهر مات فجأة (في ٢٢ ...) .

وقد خلف الشيخ سعيد القاسمي بضعة أبناء(١) ضربوا جميعا في الحياة العلمية والعامة بسهم ، فابنه المفسر المعروف الشيخ محمد جمال الدين القاسمي ، اعتبر مجتهد عصره ، إذ كان جريئا في عرض آرائه،حتى أدت به هذه الجرأة إلى اتهامه ومحاكمته (سنة ١٣١٣= ١٨٩٥) ، وقد سميت حادثته يومئذ بحادثة المجتهدين . وقد انكب على التأليف حتى ترك ما ينوف على المائة من التصانيف والمؤلفات، أهمها تفسيره الذي ينشر الآن في القاهرة .

وكان جمال الدين شديد الوفاء لأبيه ، حتى كتب ترجمة لحياته أشاد فيها به حتى رفعه إلى السماكين . وقد توفي سنة ١٣٣٢ (١٩١٣) .

ومن أبناء القاسمي الطبيب الأديب السياسي يوسف صلاح الدين ، الذي أسهم في حركات التحرر ضد الحكم العثماني ، وكان من أوائل الكتاب العرب الذين نبهوا للخطر الصهيوني . وقد توفي سنة ١٣٣٤ (١٩١٥) .

* * *

وقع مخطوط البديري للشيخ محمد سعيد القاسمي ، فأعجب به - كما قلنا - فاستنسخه ، وعكف على دراسته،إذ رآه قد اشتمل «على غرائب وعجائب وأهوال» ، ولا عجب فقد تغير وجه الحياة في دمشق كثيرا عما كان عليه أيام البديري،وقد انقضى عليها قرن من الزمان : انتهى عصر الباشوات ، وحل محله حكم الولاة المرتبطين بالحكومة المركزية في إستامبول بأقوى رباط،انتهى عهد الحكومة الموزعة السلطان والعصبيات وزعماء الأحياء والحارات ورؤساء الأجناد وطوائف الحرف ، وحل محلها الحكومة الواحدة القوية السلطان والفرق العسكرية المنظمة ، الإدارات والمجالس والمحاكم وهكذا .

وعزم القاسمي على أن يشرك في الإفادة من الكتاب مواطنيه ، حتى يجلو لهم صفحة من تاريخ مدينتهم في القرن الثامن عشر ، ولكنه رأى أن يجعله سهل التناول لهم ،رآه

(١) أفادنا بهذه المعلومات الأستاذ ظافر القاسمي المحامي بدمشق ونجل الشيخ محمد جمال الدين القاسمي .

مكتوبا « بلسان عامي» مشحونا «بزيادات كلمات وأدعية مسجمة على سامعها ويسأم قارؤها» ، فأقبل القاسمى على تنقيح الكتاب ،وذلك أنه ــ كما قال ــ «حذف القشر من هذه الحوادث ووضع اللباب وهذبها على قدر الاستطاعة بالصواب » ، أى أنه صوّب لغتها واختصر مادتها محتفظا منها باللباب .

لهذا يختلط علينا الأمر إذا حاولنا أن نميز بين أسلوب المؤلف وأسلوب المنقح ، فالواقع إن المنقح أقحم نفسه على الكتاب ، وأعمل فيه قلمه بالحذف والتعديل والاختصار ، حتى إنه بدأ الكتاب بقوله : « قال البديرى رحمه الله ما معناه » ، مما يوحى بأن المنقح لم يقنع بتعديل الأسلوب وإنما احتفظ (بالمعنى) المؤلف ، وساق هذا المعنى فى أسلوبه هو . وهو يدعو البديرى تارة بالمؤرخ(١) وتارة بصاحب الأصل(٢) ،ويدعو نفسه أحيانا بمهذب هذا التاريخ ومحرر هذه الورقات(٣) . وقد حاول القاسمى أن يرتفع بأسلوب المؤلف ، فترونق فى بعض العبارات وتأنق، وساقها مسجمة ، ولكن أسلوب الكتاب ــ حتى بعد أن أجرى فيه المنقح قلمه بالتصويب والتهذيب ــ لاتزال تفشو فيه الأغلاط النحوية ، واعترف هو ضمنا بشيء من ذلك حين قال إنه هذب الكتاب« على حسب الاستطاعة بالصواب » ، والحق أن أسلوب القاسمى فى كتبه الأخرى ــ وقد اطلعنا على بعض ما كتبه فى « بدائع الغرف فى الصناعات والحرف » وإن كان أصحّ أسلوبا من « حوادث دمشق اليومية » إلا أنه لايخلو من الأخطاء النحوية .

على أن ثمة بعض عبارات نكاد نجزم بأنها من قلم القاسمى مهذب الكتاب ، إذ هى من تعبيرات القرن التاسع عشر وتمشى مع مفهوم الناس فى ذلك الوقت : كإطلاق اسم (إسلامبول) على عاصمة الدولة والدعوة للسلطان وللدولة العلية بالعز والتأييد . . إلخ .

* * *

وكتاب البديرى ــ حوادث دمشق اليومية ــ يصوّر الحياة فى دمشق خلال إحدى وعشرين سنة من أواسط القرن الثانى عشر الهجرى (الثامن عشر الميلادى) (١١٥٤ ــ ١١٧٥ = ١٧٤١ ــ ١٧٦٢) . وقد كاد المؤلف أن يقصر اهتمامه

---

(١) ص ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٥ وغيرها .
(٢) ص ٧٩
(٣) ص ٧٦

على تدوين ما يجرى فى دمشق وحدها : من تولى الباشوات وكبار أصحاب المناصب وعزلهم ومصادرة أموالهم كالمتسلم والدفتردار والقاضى والمفتى وأغوات العسكر ، وأنباء الحاج فى طلوعه وعودته وما جرى له فى الطريق ، وفتن الأجناد ، ونهوض الأسعار واضطراب الأمن ، وفساد الأخلاق وانتشار الأمراض وغزو الجراد ووفاة عالم او متصوف أو نقيب حرفة وحدوث ظواهر طبيعية من ريح شديد وكسوف وخسوف وزلازل .

على أن المؤلف سجل أيضا بعض ما كان يصل إلى علمه من أحداث تجرى فى دمشق أو قريب منها ، كحروب الباشا ضد الدروز أو المتاولة أو بعض عشائر البدو أو ظاهر العمر شيخ طبرية ، أو ما يتسامع به الناس عن فتنة فى بغداد أوحرب بين الدولة وفارس أو بين أشراف الحجاز . . الخ .

والكتاب يصوّر لنا دمشق كحاضرة إسلامية ، تكوّن وحدة سياسية وإدارية واقتصادية قائمة بنفسها ، زاخرة بالحركة والنشاط ، فلها أدوات الحكم الخاصة بها ، ولها قلعتها وسورها ، ولها أجنادها ، ولها علماؤها ومتصوفوها ومساجدها ، وأحياؤها وحاراتها ، وطوائف حرفها ، ففيها كل العناصر التى كونت منها حاضرة ، تستطيع ـــ فى السنوات العادية ـــ أن تكفى نفسها بموارد‌ها الخاصة

* * *

وقد قام المجتمع الدمشقى ـــ على عهد البديرى ـــ (وينطبق هذا على العهد العثمانى الأول أى منذ الفتح العثمانى فى أوائل القرن السادس عشر إلى قيام الحكم المصرى فى سنة ١٨٣١)قام المجتمع فى دمشق ـــ وفى غير دمشق من الولايات العربية ـــ على وجود هيئتين كبيرتين منفصلتين إحداهما عن الأخرى : هيئة الحاكمين وهيئة المحكومين .

وقد حاولت الدولة منذ اصطنعت ـــ أو أقرّت ـــ هذا النظام أن تجعل الخط بين هاتين الهيئتين حاداً ، فالهيئة الأولى من العسكر ، يحملون لواء الجهاد والدفاع عن الإسلام ، وبصرف النظر عن الأصول التى استمدت منها الدولة رجال هذه الهيئة قامت الدولة على إعدادهم للاضطلاع بالمهمة الكبرى التى تنتظرهم ، فجعلت منهم أداة حرب ثم كانوا فى الوقت نفسه أداة حكم معاً ، والفصل بين الأداتين كان غير معروف وغير مفهوم ، واستمر ذلك حتى القرن التاسع عشر حين بدأت الدولة تصطنع للحكم والإدارة فى المركز والولايات أدوات أعدت خصيصا لهذه الغاية ، عندئذ نشأ الانفصال بين أداة الحرب وأداة الحكم .

وقد ترتب على ذلك أن أضفيت على هذه الهيئة — هيئة العسكر - امتيازات جعلت من أفرادها طبقة ممتازة فى المجتمع الذى يعيشون فيه .

أما الهيئة الأخرى — المحكومون — فهم « الرعية » من أهل الريف والمدن ، وتركت لهم الحرية فى أن ينظموا أنفسهم فى طوائف يمارسون فى ظلها قدرا كبيرا من حرية التصرف ، ويحسون فى ظلها بقدر كبير من الأمن والحماية. ولكن الدولة رسمت لهم حدودهم التى يتصرفون فى نطاقها ، على أن لا يتعدوها إلى خارجها ، وفرضت عليهم الدولة مهمة إعاشة الهيئة الحاكمة والخضوع لها .

وكان لا بد أن يقوم هناك (جسر) بين هاتين الهيئتين، أو فئة ثالثة يرضى عنها الفريقان ، فتستطيع أن تقوم بدور الوسيط بينهما ، ووقع على عاتق العلماء وأرباب الطرق والقاضى والمفتى ونقيب الأشراف ، ومن إليهم ممن أطلق عليهم تجاوزا اسم رجال الدين — وقع على عاتقهم مهمة التوسط بين طبقة الحاكمين وطبقة المحكومين ، وكانت كل من الطبقتين تبجل رجال الدين وتسعى إليهم . وكان الشعب على الخصوص — يجد فيهم ملاذاً له يعتصم بهم من غصب الغاصبين ، فكان يطلب إليهم — بل ويضطرهم أحيانا — إلى تصدر الحركات الشعبية للثورة على مظالم الحكم ؟ فإذا أبوا أن يقوموا بهذا الدور صب عليهم الشعب جام غضبه ، وتاريخ الجبرتى لمصر والبديرى لسورية حافل بأمثلة لما نقول[1] .

ولكن الخط الفاصل بين الهيئتين أو الطبقتين لم يعد — بعد اختلال أمر العسكر وبيع المناصب — حاداً ، حقيقة ظل انفصال المجتمع إلى هيئتين : حاكمين ومحكومين ، ممتازين وغير ممتازين — قائما . ولكن لم يعد من الممكن الفصل الحاد بين الهيئتين. حقا إن الهيئة الأولى ، هيئة الحاكمين . تمت إلى الدولة العثمانية ، صاحبة السيادة على البلاد ، ولكن لا يشترط أن يكون أعضاؤها من الأتراك ، فقد يكونون من أهل البلاد أنفسهم رفعتهم ظروفهم إلى مصاف الحاكمين . فمن الولاة من كان ينتمى إلى بيوت عربية ، أو استعربت ، فأسرة العظم كانت — أو أصبحت — أسرة عربية أقاموا فى معرة النعمان ، ثم دخلوا فى سلك الجندية العثمانية ، ومنها إلى مناصب الحكم حتى منصب الولاية نفسه ، وكذلك يمكن القول عن الكتخدا والمتسلم والدفتردار .

---

(١) إلا أننا نلاحظ أن العلماء فى مصر فى العصر العثمانى كانوا بفضل وجود الأزهر والتفافهم حوله شيوخا ومجاورين أقدر على التكتل من علماء دمشق وأقوى أثرا فى تزعم الحركات الشعبية .

وهكذا . « فالتركية » إذن لم تكن الأساس الذى قامت عليه هيئة الحاكمين فى ذلك العصر . ذلك لأن من أبناء البلاد من مهدت له الظروف الخروج من نطاق هيئته ، هيئة المحكومين ، والتسلل إلى الهيئة الأخرى : الهيئة الممتازة ، هيئة الحاكمين ، وكان احتلال أمر العسكر والسماح بدخول أبناء البلاد فى سلك الجندية الباب الذى حدث منه هذا التسلل .

ولكن ما أن ينتقل أفراد من طبقة المحكومين إلى طبقة الحاكمين حتى يصطنعوا عقليتها وأساليبها ويذهبوا فى التشبث بامتيازات الطبقة إلى أبعد مدى ، ومن هنا استمرت الفكرة السائدة عند الطبقة الحاكمة ، فكرة الاستعلاء والسيطرة وعدم التحرج عن استغلال الرعية ، بل كان استعلاؤهم وسيطرتهم أشدّ وأعنف ، وكان لا بد أن يمضى زمن طويل ، تجدّ فيه عوامل أخرى على المجتمع حتى يمكن أن تقوم على هاتين الهيئتين هيئة واحدة ، فيتحول الرعايا جميعا حاكمين ومحكومين إلى مواطنين . وسيكون هذا من فعل القرن التاسع عشر وما بعده .

ولكن هذا الاستعلاء وهذه السيطرة لم يقابلهما كفاية فى الحكم . ومردّ ذلك إلى ما قلناه من أن هذه الهيئة — فى الواقع — أعدت للحرب والجهاد ، ولم تنظم لتحمل مسئوليات الحكم وأعبائه . وظلت الصفة الحربية ملازمة لها ، أى ظلت أداة حرب ، أكثر منها أداة حكم . فالباشا هو قائد الجند ورجاله ضباط الأوجاقات ، وحكام الأقاليم من الصناجق ، والقاضى هو « قاضى العسكر » ، والوالى والمحتسب فى المدينة من رجال الجندية ، والأوجاقات يجمعون أموال الدواوين لأنهم يأخذون منها مرتباتهم ، والفكرة الرئيسية أن الأرض هى المصدر الأساسى لإعاشة الجند .. وهكذا . ولكن حين وقفت الحرب لم تستطع هذه الهيئة — وهى أداة حرب — أن تتحول إلى أداة حكم وإدارة ، فلجأت إلى البطش وأساليب القهر ، ولم يجدوا فى قوة الدولة ما يردعهم ويردّهم إلى حدودهم ، فقد تراخى الولاء للسلاطين منذ انتعد السلاطين عن الزعامة والقيادة ، وأصبحت المناصب تباع وتشترى[1] . وفشا استخدام الرشا

---

(١) بدأ بيع المناصب فى عهد السلطان سليمان القانونى . وفى تقرير لأحد قناصل البندقية فى أوائل القرن الثامن عشر أن الباشويات السورية كان كل منها يكلف صاحبها من ٨٠ إلى ١٠٠ ألف دوكة ومنصب الدفتردار من ٤٠ إلى ٥٠ ألفا ، وأقل من ذلك يقابل منصب القاضى .Lammens, La Syrie. II. P. 61 وطبيعى أن يوحى هذا النظام إلى أصحاب المناصب بالحرص على استغلال الرعية لجمع المال الذى دفعوه .

والهدايا ، ولجأ كل صاحب منصب إلى اصطناع قوة أو عصبية خاصة له يستعيض بها عن قوة الدولة . وانعكس هذا كله على الهيئة الأخرى ، المحكومين ، إذ أوحى نظام شراء المناصب إلى أصحابها أن لهم الحق فى أن يعوضوا أنفسهم عما دفعوه ممن يقع تحت سلطانهم أو يدخل فى دائرة نفوذهم من المحكومين ، وخاصة أن نظام التوجيهات السنوية للمناصب يجعل أصحابها عرضة للعزل أو النقل أو المصادرة فى أى لحظة ، حتى جرت الأموال التى كان أصحاب المناصب يأخذونها من الناس مجرى العرف أو القانون .

على أنه مما كان يخفف من بطش الهيئة الحاكمة أن الحكم العثمانى وخاصة فى الولايات العربية ، ظل حتى القرن التاسع عشر — أى إلى عصر التنظيمات — سطحيا متحرجا عن أن يتغلغل فى حياة الناس ، طالما بقوا على ولائهم لهذا الحكم . قد يرجع هذا إلى الصفة (العامة) التى اتصفت بها الأمبراطورية العثمانية ، مما سمح لها بتعدد الأجناس والطوائف والأديان والمذاهب واللغات الخ . فكان هناك إذن نوع من (التسامح) يسمح بالتعدد والاختلاف ، طالما بقى الجميع أعضاء فى حظيرة الأمبراطورية . وقد يرجع هذا — أى سطحية الحكم العثمانى — إلى عجز الدولة بأنظمتها وأدواتها المعروفة — حتى القرن التاسع عشر — عن أن تبسط الحكم الفعال القوى فى ولاياتها ، وقد قلنا إن هذه الأدوات كانت فى الواقع أدوات حرب أكثر منها أدوات حكم .

وقد ترجع سطحية الحكم العثمانى فى الولايات العربية إلى حرص الدولة على مراعاة أهل هذه الولايات ، وهم شعوب إسلامية قامت فى بلادهم أهم مراكز الإسلام ويتكلمون لغة القرآن ، فلهم عند الترك قدرهم واعتبارهم[1] .

وأفاد المحكومون من سطحية الحكم ، فازدادوا تمسكا بمؤسساتهم الخاصة وحرصاً على تنميتها ، ليتخذوا منها — من ناحية — حصنا يلوذون به من بطش الحاكمين ، وليجعلوا منها — من ناحية أخرى — أدوات تنظيم لمجتمعهم حتى تقوم بما تقصر عن القيام به سلطات الحكومة ، ونمت هذه المؤسسات الطائفية واستقرت حتى أصبح الولاء للطائفة يعلو فوق كل ولاء .

وكان لا بد — حتى يستمر هذا البناء بأوضاعه التى وصفنا قائما — كان لا بد من أن تبذل الدولة جهداً كبيرا للمحافظة عليه ، وشاع الاعتقاد أن أى تغيير سيؤدى

(1) Gibb & Bowen: Islamic Society and the West. vol 1. part. 1 p. 160.

إلى زيادة الخلل فالانهيار ، وأن الخير كل الخير فى المحافظة على ما هو قائم ، ويكفى فى اعتقاد السلاطين ورجال الدولة — أنه فى ظل هذه النظم والأوضاع أحرزت الدولة ما أحرزت من انتصارات ، وضمت الدولة ما ضمت من بلاد ، وقهرت الدولة ما قهرت من أعداء . ولكن فاتهم أن هذه النظم فقدت فى الواقع حقيقتها وغدت مظاهر ، بقيت ، ولكن على الورق ! ويكفى هنا ان نذكر أن الانكشارية — وهى من النظم العثمانية عصبها — بقى اسمها ، اسما بلا مسمى ، بقيت ، ولكن فى الدفاتر والسجلات !

حقاً إن الدولة العثمانية تبدو حتى فى القرن الثامن عشر — أى فى العصر الذى وصلت فيه أزمة الحكم إلى ذروتها — تبدو الدولة قوية . فالسلطان يولى أصحاب المناصب ويعزلهم ، والسلطان يكافح بنجاح فى أكثر الأحيان الخارجين عليه من أصحاب العصبيات . ولكن الدولة لم تحقق هذا بقوتها ، وإنما حققته باصطناع وسائل أخرى أجدى عليها من وسائل القوة ، فالدولة أقامت الحكم فى ولاياتها على أساس أن لا تجمع السلطان كله لفرد واحد أو لهيئة واحدة . حقاً إن الباشا أو الوالى هو أعلى هؤلاء الأفراد والهيئات شأناً باعتباره ممثل السلطان فى ولايته ، ولكن الدولة أقامت إلى جانبه أصحاب مناصب أخرى وهيئات أخرى تقاسمه السلطان ، كالدفتردار والقاضى وضباط الأوجاقات ، ولكل منهم فى حكومة الولاية مكان معلوم .

هذا إلى أصحاب العصبيات الذين أقرت الدولة حكمهم فى مناطقهم ، فكانوا باستمرار شوكة فى جانب ولاة الدولة ، سواء برضا الدولة نفسها أحيانا أو رغما عنها أحياناً أخرى . حتى إذا شرع أحد أصحاب المناصب أو أحد أصحاب العصبيات أن يجمع السلطان لنفسه مغتصبا سلطان الدولة أثارت عليه الدولة آخرين من أصحاب المناصب أو أصحاب العصبيات ، وهم كانوا دائما على استعداد للإثارة ، وما يتبعها من قبض الثمن ، حتى تتاح للدولة فرصة لتأليب آخرين وهكذا .

(فقوة) الدولة إذن كما تبدو فى القرن الثامن عشر كانت قوة مصطنعة أكثر منها حقيقية ، استمدتها من أساليب الغدر والكيد والتأليب والإثارة ، لهذا لا عجب إذا شعر الجميع فى مثل هذا المجتمع بفقدان ضمانات العمل والسعى للكسب بل ضمان الحياة نفسها ، وأكبر مثل صارخ لما نقول المصير الذى لقيه أكثر باشوات الشام فى الإحدى والعشرين سنة التى سجل البديرى أحداثها ، فقد انتهت حياتهم

بالنفى والقتل والمصادرة(١) ، رغم الخدمات التى أدّوها للدولة وللولايات التى حكموا فيها ، ورغم ما جمعوا لأنفسهم من أساليب الثروة والقوة ، والدولة ترخى لهم فى حبال الأمل ، وتدعهم يجمعون ما يجمعون ، وهى واثقة فى النهاية أن هـذا كله سيؤول إليها ، قال باشا صيدا لأسعد باشا العظم ، عندما رآه يشنّ على الدروز حرب تخريب وإبادة ، فنصحه بالكف عن ذلك قائلا له: « هذا أمر يعود علينا وعليك بالتلف ولا ترضى الدولة به ، لأنهم يريدون العمار للبلاد ويكرهون الجور والفساد قادرون على إرسال عشرة وزراء بيوم واحد ولا يقدرون أن يعمروا فى عشر سنين قرية إذا خربت من هذه القضايا »(٢). ولكن أسعد باشا عاند واستمر فى الحرب ضد الدروز ، وانتصر عليهم وجمع الثروة الطائلة وبنى العمائر الشاهقة واستكثر من أسباب القوة ، وحج بالناس أربع عشرة حجة فى أمن وسلام ، ولكن هذا كله لم يشفع له ، فإذا بالنجم يهوى ، فينقل الباشا من دمشق فجأة ثم يقتل وتصادر أمواله وأملاكه ، لم تغن عنه شيئا . ولم يكن حظ الذين سبقوه أو خلفوه فى ولاية دمشق وغيرها من الولايات خيراً منه (٣).

انصرف همّ الوالى فى ولايته إلى المحافظة على الوضع القائم فيها خشية أن يضطرب الميزان بين الجماعات والهيئات والطوائف وأصحاب العصبيات لأنه يرى أن اضطراب الميزان يضطره كارهاً إلى شىء من الحركة والنشاط . إلى التدخل فيما لم يكن يودّ التدخل فيه ، إلى الاستعانة بقوى لم يكن يودّ إقحامها أو تغليبها ، كجلب طوائف من عسكر الدولة أو تغليب فئة فى المدينة على أخرى ، أو الاستعانة بقوة لصاحب عصبية.

---

(١) حكم إسماعيل باشا العظم دمشق ست سنوات ثم امتحن وسجن وصودرت أمواله.

(٢) ص ٩٩ من هذا الكتاب .

(٣) مات سليمان باشا العظم وصادرت الدولة أمواله ، وأعدم أسعد باشا العظم وصودرت أمواله وسعد الدين باشا العظم حاكم صيدا صودرت أمواله ، وعبد الله باشا الشتجى قتل وصودرت أمواله وغيرهم كثيرون . حتى أصبحت مصادرة أصحاب المناصب المعزولين أو المتوفين تجرى مجرى العرف ، واعتبرتها الدولة وسيلة تسترد بها أموالا جمعها صاحب المنصب من طريق غير شرعى، ونظر إليها الناس على أنها جزاء حق لما كان صاحب المنصب يرتكبه أثناء توليه منصبه، ونظر إليها السلاطين من زاوية أخرى : فقد كانت الهيئة الحاكمة — فى الأصل عبيداً للسلطان ، ولما كان من حق السيد أن يرث عبده فقد اصبح من حق السلطان ، وقد نص على ذلك فى بعض القوانين، أن يرث كل أو بعض أملاك أصحاب المناصب المتوفين سواء تركوا ورثة يرثونهم أم لم يتركوا ، ثم امتد هذا الإجراء إلى أصحاب المناصب أثناء حياتهم كعقوبة توقعها الدولة عليهم .

وقد يطالب بعض الموظفين المعزولين أو المنقولين أن (يحاسَبوا) حتى يتفادوا المصادرة .

Gibb & Bowen : op. cit., part 11. p. 28 — 30.

إقليمية (كبعض عشائر البدو مثلا) أو طائفية (كالدروز أو المتاولة) ، مع ما ينبع ذلك من تغليب عصبية أو طائفة على أخرى ، واستعلائها والعجز عن ضبطها ، حتى واتيه فرصة أخرى للعمل وهكذا .

خير ما يفعله الوالي إذن في ولايته أن يتمشى والفكرة العامة التي سيطرت على الدولة ، وعلى المجتمعات حينذاك ، وهي فكرة المحافظة على الحالة القائمة ، وعلى تزويد نفسه وحكمه بأسباب الحماية ، لا يكفي أن يظل قابضا على الميزان بين أصحاب المناصب والعصبيات وطوائف الأجناد ، ولكن ينبغي عليه أن يتزود بأسباب القوة فيجمع لنفسه قوة عسكرية خاصة يحتمي بها ويدفع بها كيد خصومه ، وهو مضطر إلى إرضائها بأن يطلق أفرادها يرعون في أرزاق الناس وأعراضهم ، ربما تواتيه الفرصة للتخلص منهم واصطناع غيرهم وهكذا . لأنه يعلم أن القوة هي وحدها التي تكفل له الاحترام من رعاياه ، حتى إذا أحسوا منه شيئاً من الضعف أو لحظوا على مركزه شيئا من الاضطراب استهانوا به وشاغبوا عليه . كان سليمان باشا حاكما قويا عادلا صاحب خيرات ، ولكن ما أن تأخر وصول فرمان التقرير له بالولاية حتى « لغطت الأراذل والأسافل بالقول والفعل وأظهروا بدعا كثيرة من محض الحرام ، ولازالوا على تلك الأحوال حتى جاء الفرمان »[1] .

ومات سليمان باشا وخلفه ابن أخيه أسعد باشا العظم ، فبدأ حكمه هادئاً بل خانعاً حتى استصغت الدولة أموال عمه وأهانت حريمه وأهله ، والباشا لا يحرك ساكنا ، حتى احتقره العسكر وراحوا يطلقون عليه ألفاظ السخرية ، فكانوا يسمونه « سعدية خاتم » حتى إذا وجد الباشا الفرصة الملائمة نهض إليهم وأمعن فيهم فتكا وتشريدا فهابه الجميع[2]

وهذا قاض عرفت عنه الاستقامة والقناعة والتواضع والسخاء الكثير ، ولكن « لما كان لا يأكل الرشوة ولا يميل في دعوى فقد مال عليه أهل الشام » وسعوا حتى عزلوه « كما هي عادتهم قديما »[3] .

---

(١) ص ١٧

(٢) ص ٦٠ — ٦٩

(٣) ص ١٣٢ ، وشبيه بهذا ما ذكره الجبرتي عن استهانة الفلاحين في بعض القرى المصرية بالملتزمين الذين يحسنون معاملة فلاحيهم ، ولا يلجأون إلى ما اعتاده الفلاحون من العسف والظلم .

ولا شك فى أن روح (المحافظة) التى سادت الحياة فى الولايات العثمانية فى العهد العثمانى الأول — أى حتى القرن التاسع عشر — قد مكنت أهلها من الحفاظ على قوميتهم ومقوماتهم الأصيلة، واحتفظت لهم بهذا التشكل الذى كان سمة الحواضر العربية فى عصورها (الإسلامية)، وهو الذى مكن لهم فى البقاء وأعانهم على الصمود لمفاسد الحكم، وإن كانت روح المحافظة قد أدت إلى الجمود والركود والتأخر وإهمال مرافق البلاد وشيوع روح التواكل، إلى أن بدأت تفد منذ القرن التاسع عشر عناصر غربية، هزت روح المحافظة وأحلت محلها سياسة التجديد، وغيرت ولا تزال تغير وجه الحياة فيها يوما بعد يوم.

* * *

هذه صورة عامة للعصر الذى عاش فيه البديرى من القرن الثامن عشر، وهى صورة تنطبق على دمشق، كما تنطبق على حلب والقاهرة وبغداد وغيرها من حواضر الولايات العربية فى ذلك العصر، لأن النظم الأساسية للحكم واحدة والأوضاع العامة لمجتمعاتها واحدة.

فى هذا العصر وصلت أزمة الحكم والمجتمع فى هذه الولايات إلى ذروتها، حقا إن البديرى لم يتعمق أسبابها وعواملها على نحو ما نفعل، ونحن ننظر إلى الصورة من بعيد، ولكنه عاش فى دوامة أحداثها ولفحه شواظها فأحس به إحساسا قويا، دفعه إلى تسجيل ما رأى وما سمع، فكان من ذلك هذا الوصف الذى قدمه لنا فى «حوادث دمشق اليومية» لطراز من الحياة فى حواضرنا الإسلامية اندثر وباد.

* * *

ولن نعالج فى هذه المقدمة كافة الموضوعات التى تعرض البديرى لأحداثها بالتسجيل فى كتابه «حوادث دمشق اليومية»، ولكن سنكتفى بموضوعات ثلاثة، هى فى رأينا أبرز موضوعات الكتاب وأكثرها استئثارا باهتمام مؤلفه، وليس من شك فى أن معالجتها — مما كتبه البديرى ومما كتبه آخرون — يكمل أو يوضح بعض جوانب الصورة التى نعمل على رسمها للعصر العثمانى بعامة، والقرن الثامن عشر بخاصة، وهذه الموضوعات هى:

١ ــ باشوات الشام من بنى العظم : وقــد شغلت الجانب الأكبر من كتاب البديرى حوادث الشام فى عهد وزيرين من بنى العظم ، هما سليمان باشا وأسعد باشا ، (١٧٤١ ــ ١٧٥٨م) . كما ذكر البديرى طرفا من أخبار بعض الباشوات الآخرين من بنى العظم ممن تولوا باشويات سورية أخرى ، كسعد الدين باشا والى طرابلس وصيدا وحلب ومصطفى باشا والى صيدا .

٢ ــ طوائف الأجناد فى دمشق ، وقد شغلت انباء فتنها الجانب الأكبر من اهتمام البديرى ، واهتمام الناس فى ذات العصر .

٣ ــ الحج الشامى ، وقد استأثرت أنباؤه فى طلوعه ورجوعه وما جرى له فى الطريق بأعظم اهتمام من البديرى ومن الناس ، حتى يمكن القول إن الناس كانوا كأنهم «يمسكون قلوبهم» بأيديهم حتى يعود الحاج سالما، فتقام الزينات ومعالم الأفراح .

* * *

باشوات الشام من بنى العظم :

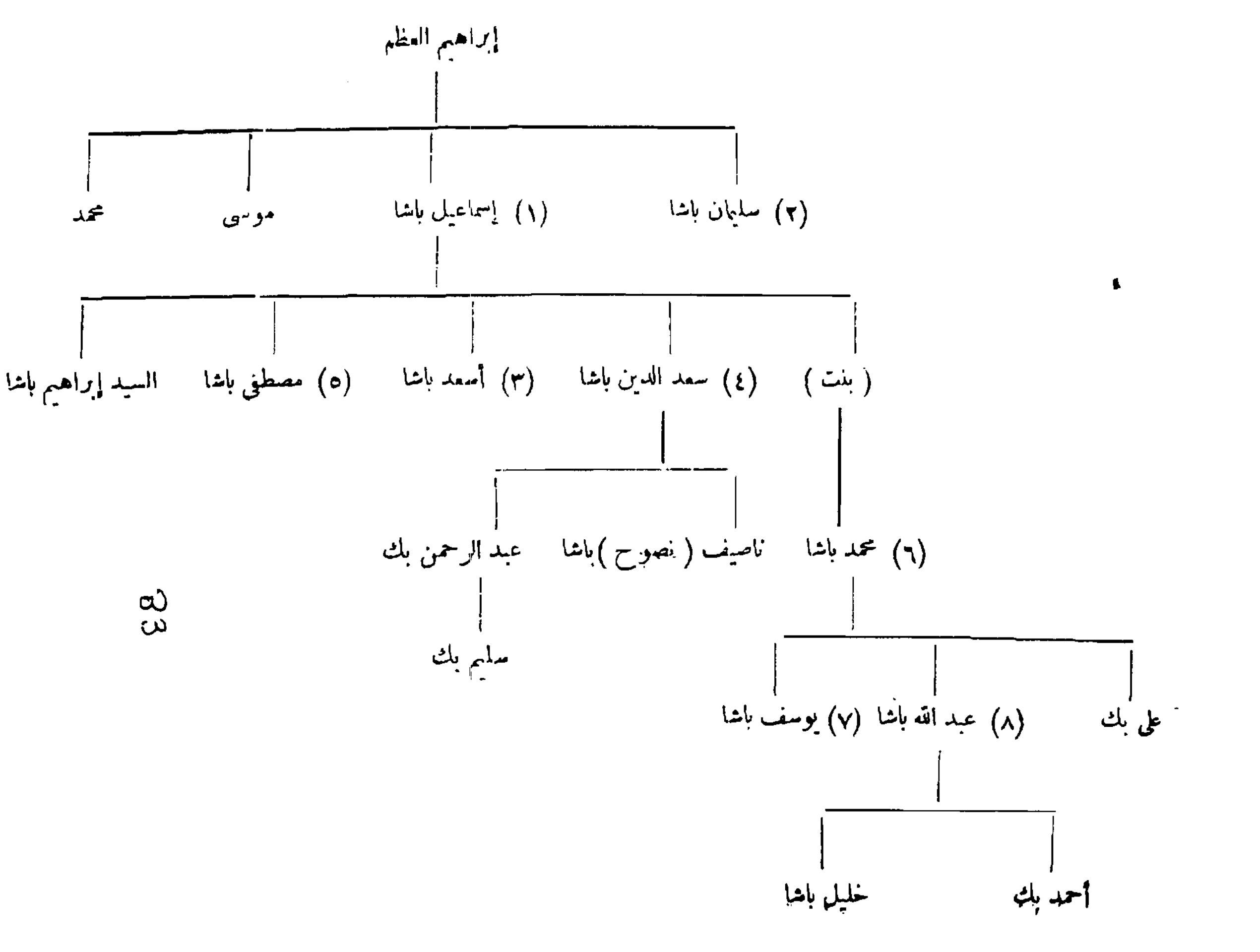
اختلف الباحثون فى أصلهم ، فمن قائل إنهم أتراك من قونية ، ومن قائل إنهم عرب من معرة النعمان (بقرب حلب) . وسواء أكانوا تركا أم عربا فقد أقام أكثرهم فى بلاد الشام . ومنهم من بنى المدارس وقرّب العلماء والشعراء، وظهر عظهر الحكام العرب،وقدرت الدولة فعلا هذه الناحية فيهم فاستخدمتهم فى الولايات السورية،حتى جاء وقت كان يشغل منصب الباشوية فى دمشق وحلب وطرابلس وصيدا فى القرن الثامن عشر باشوات منهم،كما استخدمتهم فى بعض الولايات العربية الأخرى كمصر والموصل ، ثم خشيت الدولة أن يؤدى طول مقامهم فى الولايات السورية إلى استقرارهم فيها وتأليفهم قوة يخشى جانبها ونشوء أطماع انفصالية لهم ، فعصفت بهم وشتتهم عن سورية، وكان جزاء أكثرهم من الدولة القتل والمصادرة .

وأول من عرف من آل العظم هو « إبراهيم العظم » ، كان جندياً سكن وأسرته فى معرة النعمان ، وخــدم بها ، واشترك فى حرب قامت بين أهلها وبعض عشائر التركمان الذين كانوا يفدون إليها شتاء(١) .

ثم آل الحكم فى المعرة لابنه :

---

(١) محمد كرد على : خطط الشام ٢/٢٨٧، ٢٨٩


إبراهيم العظم
(٢) سليمان باشا
(١) إسماعيل باشا
موسى
محمد
(بنت)
(٤) سعد الدين باشا
(٣) أسعد باشا
(٥) مصطفى باشا
السيد إبراهيم باشا
(٦) محمد باشا
ناصيف (نصوح) باشا
عبد الرحمن بك
سليم بك
علي بك
(٨) عبد الله باشا
(٧) يوسف باشا
أحمد بك
خليل باشا

١ — إسماعيل باشا العظم[١] :

حكم فى المعرة أولا، ثم انتقل منها إلى حماة وحمص برتبة الروملى (أو بكلربكى أى أمير أمراء) وهو باشا صاحب طوخين، أو ذيلين . وكانت حماة وحمص إذ ذاك سنجقين من باشوية الشام أو دمشق ، ثم جاءته رتبة الوزارة ، أى الباشوية بأطواخ ثلاثة ، وولى ولاية طرابلس ثم انتقل منها فى سنة ١١٣٧ (١٧٢٤ — ١٧٢٥) إلى ولاية دمشق ، فكان أول باشواتها من بنى العظم ، وأقام بها واليا ست سنوات ، ثم عزل وامتحن وحبس بقلعة دمشق ، وصادرت الدولة أمواله وأموال ذويه ، ثم أطلق سراحه وتولى على خانيه .

٢ — سليمان باشا العظم :

أخو إسماعيل باشا، تولى باشوية صيدا ، ثم نقل منها إلى باشوية الشام (١١٤٦) وأقام بها خمس سنوات (١٧٣٣ — ١٧٣٨) ثم نقل إلى ولاية مصر فى سنة ١١٥٢، (١٧٣٩) . ولكنه لم يمكث بها أكثر من عام ، فقد ساءت علاقته بأمراء المماليك، وأراد إيقاع فتنة بينهم ، بل إنه دبر مكيدة للفتك بعدد من رؤسهم ، ولكن خصومه تجمعوا عليه ، فأراد الاحتماء بباب الانكشارية ، فرفضوا حمايته ، وأرسل الأمراء رسولا إلى السلطان ، فقرر عزله من ولاية مصر وأعادته إلى ولاية دمشق ، فوليها للمرة الثانية فى سنة ١١٥٤ (١٧٤٣) ، وأقام بها ثلاث سنوات ، حتى مات محاصرا قلعة طبرية للشيخ ظاهر العمر .

وسليمان باشا أول من تحدث عنهم البديرى من باشوات الشام من بنى العظم ، وقد أشاد البديرى بأفعاله فى الشام — فى ولايته الثانية — كمحاولته إصلاح أمر الجند ومطاردته الأشقياء (أو الزرباوات) منهم[٢] وحمايته للحاج الدمشقى عندما دهمهم سيل جارف فى الحسا والقطرانة ، حتى « عدّوا هذه المنقبة لمثله من الهمم العالية والمروءة السامية »[٣] وتعمير نهر القنوات وترميمه من ماله الخاص، وهذا « ما سبقه

(١) انظر الجدول المواجه لأسرة العظم ، وقد استطعنا أن نقيم هذا الجدول من تراجم وأخبار بنى العظم المشتتة فى مصادر مختلفة كالبديرى والمرادى والمقار والقارى وحيدر الشهابى والجبرتى . وقد أعطينا المشهورين منهم أرقاما اتبعناها فى المتن أيضا حتى يسهل استخدام هذا الجدول .

(٢) ص ١٨ — ١٩

(٣) ص ٣٦ — ٣٧

إليه أحد من عهد إصلاحها من أيام التيمور»[1] .

وقد شغل الباشا أكثر وقته فى محاولة إخضاع الدروز وأميرهم إذ ذاك الأمير ملحم الشهابى ، وكان قوى الشخصية ، بذل جهودا كبيرة لدعم سلطان الأمراء الشهابيين فى جبل لبنان، ولما خرج ظاهر العمر — الزعيم البدوى فى فلسطين — على سلطان الدولة حاربه سليمان باشا ، حتى مات أثناء حصاره قلعة طبرية ، على أن هذه الخدمات لم تشفع له، فما أن وصل نبأ موته — وقيل مات مسموماً — حتى بادرت الدولة فأرسلت للشام مندوباً خاصا صادر أموال الباشا وأملاكه وأهان حريمه وسجن أهله وأعوانه ، حتى استخرج أموالا وجواهر كثيرة ، وتسامع الناس بذلك فغيروا رأيهم فى الباشا ، «ولهجوا بالذم والنكال ، وقالوا قد جوّع النساء والرجال والبهائم والأطفال ، حتى جمع هذا المال من أصحاب العيال ولم يراقب الله ذا الجلال »[2]

٣ — أسعد باشا العظم :

وخلفه فى ولاية الشام ابن أخيه (إسماعيل باشا) أسعد باشا العظم . وكان قبل ذلك حاكما بحماه — شأن أكثر الحكام من بنى العظم — وقد أقام واليا بدمشق أربعة عشر عاما متوالية (١١٥٦ — ١١٧٠) فكان أطولهم حكما ، وقد شغلت أنباء حكمه الجانب الأكبر من كتاب البديرى[3] .

تولى ولاية الشام فى ظروف صعبة ، فالدولة تستصفى أموال عمه وتحبس حريمه وأتباعه، ودفتردار الشام يعينها على ذلك ، وجند الانكشارية المحلية قد [illegible] فوق كل سلطان، حتى استبدوا بالناس وأساؤا إليهم فى أموالهم وأعراضهم وكرامتهم[4]، واستهانوا بالباشا فأطلقوا عليه ألقاب السخرية والتحقير ، والغلاء الفاحش قد استبد بالناس، حتى ثاروا وذهبوا يشكون إليه ، فأحالهم إلى القاضى ، فذهبوا إليه ورجموه ورجاله بالحجارة ، ونهبوا المحكمة وهرب القاضى فوق أسطح المنازل[5] ، والحرب ضد الدروز وظاهر العمر كانت لا تزال قائمة ، فالحاجة إذن ماسّة إلى بسط النظام والأمن فى المدينة .

---

(١) ص ٤

(٢) ص ٥٥

(٣) ص ٤٧ — ١٩٩

(٤) ص ٦٢

(٥) ص ٦٣

وقدّر الباشا أن علة العلل كامنة في اختلال أمر العسكر، وخاصة الإنكشارية المحلية. ولكنه لم يستطع معالجة الداء من أساسه ، فهذا أمر عجزت عنه الدولة نفسها ، فقنع بأن استجلب من الدولة فرقا من عسكرها (القبوقول) واستخدم فرقا من الدلاة هزم بهم الانكشارية وأذلهم ، ولكن هذه الفرق لم تكن أقصر من الانكشارية باعا في الفتنة والاعتداء على الناس .

وأصبح الباشا عزيز الجانب إذ « أرهب الكبار والصغار وعظم صيته حتى في البراري والقفار »[1]، حتى هابته العشائر البدوية ، فلم تجرؤ على الاعتداء على قافلة الحج الشامي طوال عهده .

وشغل الباشا ببناء قصره العظيم ، «فلم يلتفت إلى رعاياه وأنصاره ، ويقول ائتوني بحجارة المرمر والرخام والسرو وتفننوا بالبناء والنقوش والتحلية بالذهب والفضة . . غير أن أهل الشام في أكدار من غـــلاء الأسعار وبخل التجار وانفساد الأحرار وضعف الصغار وعدم رحمة الكبار ، والحكم لله الواحد القهار »[2].

ولكن الدولة كانت تملي له ، فتركته يجمع الأموال ويبني القصور ، بل إن السلطان أرسل له هدايا ثمينة وفرمانا «فيه تفخيم كثير» ، وعينت أخويه أحدهما على طرابلس والآخر على صيدا ، وإذا بها ـــ فجأة ـــ تأمر بنقله إلى حلب (١١٧٠ = ١٧٥٦) ومنها إلى مصر ، لولا أن تمسك به أهل حلب ، مما زاد في حنق الدولة عليه ، فأمرت بقتله ومصادرة أمواله وأملاكه ، وكأن لم يغن بالأمس شيئاً .

وقد بلغ من قوة شخصيته وما كان يتمتع به من هيبة أنه ما كاد يختفي من دمشق حتى أطلت الفتنة برأسها ، فعاد الجند إلى الشغب والعدوان ، ونهب البدو قافلتي الجردة والحج ، ونكبوا الحاج نكبة لا مثيل لها ، «وصارت أمور وأهوال في دمشق الشام ما وقعت في سالف الأزمان »[3] .

٤ — سعد الدين باشا العظم :

هو أخو أسعد باشا من أبيه إسماعيل باشا العظم ، رفعه السلطان إلى رتبة الوزارة في سنة ١١٥٩ (١٧٤٦) مكافأة لأخيه على بسطه النظام والأمن في المدينة

(١) ص ٧١
(٢) ص ١٤٥ ، ١٥٣
(٣) ص ٢١٩

بالفتك برؤساء الانكشارية ، وجعله السلطان واليا على طرابلس ، وعهد إليه بسردارية الجردة ليكون معناً لأخيه فى الدورة وإمارة الحج[1] وقتال الدروز[2] ثم نقل إلى باشوية حلب فى سنة ١١٦٤ (١٧٥٠) محتفظاً بسردارية الجردة[3] ، ثم أعيد إلى طرابلس . حتى إذا تحولت الدولة عن بنى العظم وعزمت على تشتيتهم نقلته إلى ولاية مرعش سنة ١١٧٠ (١٧٥٦)[4] ، ثم إلى جدة[5] سنة ١١٧٢ ، ثم جاء الأمر بعزله وضبط ماله ، « ونقل الثقات أنه خرج عنده مال عظيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم »[6] .

٥ — مصطفى باشا العظم :

نال له أخوه أسعد باشا الوزارة وولاية صيدا فى سنة ١١٦٠ (١٧٤٧)، إذ كان فى حرب مريرة ضد دروز لبنان وعلى رأسهم الأمير ملحم الشهابى ، وكان يهمه أن يكون على باشوية صيدا — وقد أنشئت فى سنة ١٦٦٠ خصيصاً للإشراف على شئون جبل الدروز (أو جبل لبنان) — باشا يكون متمشياً مع سياسة باشوية الشام إزاء الدروز . وكان باشا صيدا فى ذلك الوقت — محمد اشا — لا يميل إلى سياسة العنف ضد الدروز ، وطالما نصح أسعد باشا بالإقلاع عن هذه السياسة ، ولما كانت الدولة إذ ذاك راضية عن أسعد باشا فقد أجابته إلى ماطلب ، وعينت أخاه مصطفى باشا والياً على صيدا ، «حتى يعمل بالجبل ما أراد» على حد تعبير البديرى[7] .

وبقى مصطفى باشا والياً على صيدا حتى تحولت الدولة عن بنى العظم ، فنقلته فى سنة ١١٧٠ (١٧٥٦) إلى ولاية آدنة[8] وبعد قليل إلى ولاية الموصل[9] .

---

(١) ص ٨٤

(٢) أشار الأمير حيدر الشهابى فى تاريخه (١/٣٦) إلى أن أسعد باشا العظم كان يكنّ الأمير ملحم أمير الدروز أعظم الكراهية بينما كان أخوه سعد الدين باشا يودّه .

(٣) وبسبب ذلك اشتط فى طلب المال من أهل حلب فشكوه وشكوه للدولة (ص ١٦٠)

(٤) ص ١٩٩

(٥) ص ٢٢١

(٦) ص ٢٣٠

(٧) ص ١٠٠

(٨) ص ١٩١

(٩) ص ١٩٩

٦ — محمد باشا العظم :

هو حفيد إسماعيل باشا العظم من بنت له. وهو من مشاهير آل العظم وكبرائهم. لازم خاله سعد الدين باشا في حلب، وطرابلس، وبعد وفاة خاله أنعمت عليه الدولة برتبة أمير أمراء (أى باشا بطوخين) ثم برتبة الوزارة (أى باشا بثلاثة أطواخ) وولته والياً على صيدا سنة ١١٧٦ (١٧٦٢)، وبعد عام نقل منها إلى حلب. وكانت له سيرة طيبة فى حكم حلب إذ أبطل بها كثيرا من البدع، وانتقل منها إلى أورفة (الرها)، ثم عاد إلى صيـــدا، ثم نقل إلى قونية ومنها إلى دمشق سنة ١١٨٥ (١٧٧١)، فكان أول من وليها من بنى العظم بعد نقل أسعد باشا منها منذ خمسة عشر عاما، وأقام والياً بها حتى وفاته فى سنة ١١٩٧ (عدا فترة قصيرة فى ١١٨٦) وكانت أيامه بها على حد تعبير المرادى « مواسم أفراح »[١]، وقد عمّر فى دمشق أبنية كثيرة، وقرب إليه العلماء والأدباء وراجت فى أيامه سوق الشعر، وقد قاتل بعض الخارجين على الدولة، ومنهم على بن الشيخ ظاهر العمر.

٧ — يوسف باشا العظم :

هو ابن محمد باشا العظم، تولى أولا باشوية حلب فى سنة ١١٩٥[٢] (١٧٨١)، ويبدو أنه كان سيء السيرة فى الحكم، فإنه لما عين بعد ذلك والياً على طرابلس (سنة ١٢١٥ = ١٨٠٠) رفض أهلها أن يسمحوا له بدخول المدينة، بل أخرجوه من مينائها وحاربوه بضعة أيام، حتى اضطروه إلى الرحيل إلى اللاذقية[٣]

٨ — عبد الله باشا العظم :

هو ابن محمد باشا العظم أيضاً، وكان آخر من تولى الأحكام من بنى العظم[٤]

تولى ولاية حلب سنة ١٢٠٨ (١٧٩٣) ورأت الدولة ضعفه إزاء طغيان الجند الإنكشارية فعزلته، ثم ولاه الصدر الأعظم يوسف باشا ضيا — أثناء تقدمه لقتال الفرنسيين فى مصر — على دمشق، وكانت له حروب مع أحمد باشا الجزار، وفى عهده توالت إغارات (الوهابيين) على سورية، حتى وصلوا إلى جهات حوران

---

(١) سلك الدرر ج ٤ ص ٩٧ — ١٠٢

(٢) الغزى: نهر الذهب فى تاريخ حلب ج ٣ ص ٣٠٨

(٣) الأمير حيدر الشهابى : لبنان فى عهد الأمراء الشهابيين ج ١ ص ٢٠٥

(٤) محمد كرد على : خطط الشام ج ٣ ص ٤٤

واتهم عبد الله باشا بالميل إلى مبادئهم ، وظهر للدولة عجزه عن مدافعتهم ، فعزلته عن دمشق ، ونقلته إلى أورفة ، ثم صدر الأمر بعزله ورفع أطواخه وإقامته فى حماة(١).

وثمة آخرون من بنى العظم تولوا حكم بعض الجهات فى سورية ، وإن كانوا أقل شهرة ممن تكلمنا عنهم أو معلوماتنا عنهم ضئيلة ، كعبد الرحمن بك أو رحمون بك ابن سعد الدين باشا العظم ، وقد ولى حكم طرابلس(٢) ، وعبد الرحيم بك العظم كان حاكما لحمص سنة ١١٨٩ (١٧٧٥)(٣) ، وخليل باشا والى طرابلس سنة ١٢١١ (١٧٩٦)(٤) ويحيى بك متسلم حماة سنة ١٢٢١ (١٨٠٦)(٥) وسليم بك متسلم حماه سنة ١٨١٧(٦) :

ومن بنى العظم من اتصل بمصر وأحداثها ، نعرف منهم :

ناصيف (أو نصوح) باشا العظم :

وهو ابن سعد الدين باشا العظم ، يبدو أنه فرّ من سورية على أثر موت أبيه ومصادرة أمواله وأملاكه ، فأتى إلى مصر لائذا بالأمير المملوكى مراد بك ، حتى إذا وصلت حملة بونابرت إلى مصر فى سنة ١٧٩٨ بعث به مراد بك فى السفن التى خرجت فى فرع رشيد لملاقاة الفرنسيين وعرقلة تقدمهم صوب القاهرة ، ثم فر ناصيف باشا إلى الشام مع من فر من أمراء المماليك والعثمانيين بعد هزيمتهم ، ثم عاد إلى مصر فى صحبة الجيش العثمانى الذى وصل تنفيذاً لاتفاقية الجلاء التى عقدت فى العريش ، وشهد معركة هليوبوليس حيث هزم الفرنسيون بقيادة كليبر جيش الصدر الأعظم ، ولكنه تسلل إلى القاهرة مع من تسلل إليها من العثمانيين وغيرهم ، وقام بدور بارز فى إثارة الناس على الفرنسيين ، فقد قام — على حد تعبير الجبرتى — و« شمر عن ساعديه وشد وسطه ومشى » ، وبالغ إذحرض على قتل النصارى وعلى ارتكاب كثير من أعمال السلب والنهب ، حتى إذا أخمد الفرنسيون ثورة القاهرة اعتذر الناس للقائد الفرنسى « بأن هذا من فعل ناصف باشا »(٧) .

---

(١) الأمير حيدر : لبنان فى عهد الأمراء الشهابيين ج ٣ ص ٦٠٣

(٢) مذكرات لبنان ص ٦٨ ؛ والأمير حيدر ج ١ ص ١٩٩

(٣) المرادى : ج ٣ ص ١٥

(٤) الأمير حيدر : ج ١ ص ٨٢ .

(٥) المصدر السابق : ج ٢ ص ٥٠١

(٦) المصدر السابق : ج ٣ ص ٦٣٧

(٧) الجبرتى : عجائب الآثار ج ٣ ص ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠٤ ؛ والأمير حيدر : ج ٢ ص ٢٢٦ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٨ ؛ ونقولا الترك : نشرة ڤيت ص ٨٠

وذكر الجبرتى[1] أن مصطفى باشا النابلسى من « أولاد المظم » حضر إلى مصر لاجئاً لدى محمد بك أبو الذهب ، فأكرمه ورتب له الرواتب ، وتوسط له لدى الدولة ، وطلب له ولاية مصر ، فأجيب إلى طلبه .

ولما كنا فى معرض ذكر الحكام من بنى المظم يصح أن نذكر آخرهم « حقى بك المظم » رئيس الدولة السورية فى عهد الانتداب الفرنسى .

* * *

طوائف العسكر فى دمشق:

وعلة العلل فى فساد الحكم واضطراب المجتمع اختلال العسكر العثمانى فى العاصمة والولايات ، وقد بدأ هـذا الاختلال فى القرن السادس عشر ، ثم اشتد فى القرن الثامن عشر . وفى هذا القرن أيضاً بدأ السلاطين المحاولات الأولى لإصلاح العسكر .

وقد جاء هذا الاختلال نتيجة لمحاولة استدامة نظم وضعت فى وقت كانت فيه الدولة قوية ورقعتها محدودة ، إلى وقت ضعفت فيه الدولة — أو بتعبير أدق السلطة الحاكمة القابضة على زمام القيادة والزعامة ، وهم السلاطين — وعظم اتساع الدولة وتعددت عناصرها وبالتالى مشكلاتها . وانتهى الأمر بأن ظلت هذه النظم قائمة حقا ، ولكن على الورق . وبقيت قوات يطلق عليها أو تطلق هى على نفسها اسم الانكشارية ، ولكن شتان بين انكشارية القرن الثامن عشر وانكشارية القرن الخامس عشر ، فقد اختلفت عنها عنصراً وتكوينا ونظاما وتسليحا وقيادة ... الخ . وبقيت قوات يطلق عليها أو تطلق هى على نفسها اسم الاسباهية ، ولكن شتان بين أسباهية القرن الثامن عشر وأسباهية القرن الخامس عشر ... وهكذا .

أهملت الدولة تجديد جندها فى الولايات ، وسمحت لكل وال ولكل صاحب عصبية بأن يجمع لنفسه ما يشاء من جنـد ، وهكذا تعددت طوائف الأجناد ، ووجدت فى الأمبراطورية أصناف من الناس ، بل من العصابات ، تطوف فى أنحائها ومهمتها الأصلية السلب أنى وجدت له سبيلا ، وهى فى الوقت نفسه تعرض خدماتها على الولاة وأصحاب العصبيات ، ولكن تحولهم إلى عسكر لم ينسهم قط صفتهم الأصلية ، فكانوا رجال عصابات وقطاع طرق أكثر من أن يكونوا جنوداً .

---

(١) الجبرتى : ج ١ ، ص ٤٢٣

وطبيعى أنهم حرصوا على استدامة الامتيازات التى كان يتمتع بها الأجناد فى الدولة ، عندما كانوا أجناد حقاً ، من مرتبات وعلوفات وحكم ذاتى واستعلاء على الطوائف الأخرى من غير العسكر وهكذا .

وهذه الامتيازات كان المجتمع الإسلامى قد أضفاها على طوائف الأجناد منذ أسند إليها مهمة الدفاع عنه زمن الإغارات الصليبية والمغولية ، وفى سبيل القيام بهذه المهمة قبلت الطوائف الأخرى — من غير العسكر — أن تنزل عن مكان الصدارة فى المجتمع لطوائف الأجناد، وتقنع بأن تكون أدوات إنتاج لتغذية المجهود الحربى. ويكفى فى هذا المجال أن نذكر أن الأراضى فى الدولة الإسلامية أصبحت إقطاعاً للأجناد ، يأخذونها — حسب رتبهم — لتكون بمثابة مرتبات أو أخبازاً . كما رصدت للأجناد موارد معلومة من دخل البلاد .

حتى إذا انتهت الأزمة ، ووقفت الحرب ، وقامت (الهدنة) بين دار الحرب ودار الإسلام ، عملت طوائف الأجناد على أن تستديم لنفسها المركز الممتاز الذى نالته أيام الحرب . ولكنها — من ناحية — لم تعد وقفاً على العسكر وحدهم ، إذ دخل فى سلكهم رجال العصابات وأرباب الحرف والمشتغلون بالفلاحة ... الخ ، حتى أصبحوا يعملون فى كل شىء إلا (الجندية) ، ومن ناحية أخرى حرصت الطوائف الأخرى من غير الأجناد على أن ترفع من مكانتها لتنال نصيبها الحق فى المجتمع فلا تكون موضع استغلال وعدوان مستمرين . ومن هنا امتلأ تاريخ الولايات العثمانية بأخبار المنازعات بين طوائف العسكر ، وبينها وبين الطوائف الأخرى من غير العسكر . والجبرتى والبديرى وأمثالها من كتاب الحوليات فى القرن الثامن عشر يقدمون لنا أمثلة كثيرة من هذا الاضطراب والفساد . فلنحاول الآن أن ندرس أحوال العسكر فى دمشق فى القرن الثامن عشر ، مما أورده البديرى بصفة خاصة .

كان العسكر فى دمشق فى ذلك العصر ينتمون إلى طوائف شتى :

١ — جند الدولة ؛ وقد عرفوا باسم « القبوقول » أى عبيد الباب أو حرس السلطان ، وهم أنكشارية الدولة وكانوا جنداً مشاة .

٢ — الإنكشارية اليرلية ، أو المحلية أو البلدية ، وهم من أبناء الشام ، وكانوا من الفرسان [1] .

---

(١) يلاحظ أن جند الانكشارية كانوا منذ تكوينهم مشاة ، أما الانكشارية المحلية فكانوا فرسانا .

٣ — أخلاط شتى يستخدمهم الباشا وقت الحاجة كالمغاربة — وهم مشاة، والأكراد والتركمان وهم فرسان، ويطلق عليهم أحياناً اسم اللوند وأحياناً اسم الدالاتية أو الدلاة.

ولا نعرف على وجه التحديد متى وكيف حدث انقسام الجند إلى انكشارية قول أو انكشارية الدولة، وانكشارية يرلية أو محلية، وأكبر الظن أن الإنكشارية المحلية كانوا فى أول الأمر بقايا فرق الإنكشارية المعروفة فى الدولة العثمانية ممن أقامهم السلاطين العثمانيون عقب فتح سورية حاميات فى ولاياتها؛ ثم أهملت الدولة تجديد هذه الحاميات، فلجأ رؤساؤها — وقد طال مقامهم فى تلك البلاد — إلى تجنيد أخلاط من أبناء الشام من أهل الحرف والصناعات وغيرهم[1]، حتى أصبح يطلق عليهم اسم (انكشارية يرلية أو بلدية) أو (انكشارية الشام) أو جند الشام أو أولاد الشام.

وكانوا طوائف أو عصابات تتبع كل منها رئيساً، والرياسة متوارثة فى بيته[2] ولهم بيوت وقرى موقوفة عليهم[3]. وكان الظن — وهم من أولاد الشام — أن يكونوا حِمًى لأهل الشام ضد طغيان الحاكمين أو عدوان طوائف الجند الأخرى، ولكنهم سرعان ما سرت إليهم عدوى الاستعلاء والاستبداد والطغيان، وكانوا على أهل دمشق وغير دمشق حرباً وشراً مستطيراً.

أقول غير دمشق، لأن حلب كانت فى العصر العثمانى — من الوجهة العسكرية — تابعة لدمشق، أى أنها لم تكن مركز حامية عثمانية، فكانت دمشق تبعث إليها بعض فرقها من الإنكشارية « للمحافظة عليها »، فسرعان ما تحولوا إلى الاستبداد

(١) ذكر المحبي فى خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر (١٢٩/٢) فى ترجمة « كنعان وردى بن عبد الله الطاغية أحد كبراء جند الشام » فى القرن السابع عشر أنه « استتبع رعاعا وجهالا استخفهم فأطاعوه . . . وكان هو وأحفاده قد عاثوا فى البلاد وفتنوها، ومنه كانت نشأة فساد العسكر الشامى وطغيانهم ».

(٢) ذكر المرادى فى سلك الدرر (٦٣/٢) فى ترجمة لحسين بن موسى باشا المعروف بابن حسن التركمانى الأصل الدمشقى الميدانى أنه « من رؤساء الأجناد وكبراء أو جاق اينكجرية (الانكشارية) . . . وهو وأسلافه لهم قدم فى الرياسة . . ربما كانوا مع توابعهم ولواحقهم وأقاربهم يقاربون ربع العسكر ».

(٣) انظر ترجمة المرادى (١٠٧/٢) لدرويش بن عبدالله الحنفى آغت (أغا) أو جاق الينكجرية اليرلية فى سنة ١١٥٧.

باهلها : «كان يذهب منهم فى كل سنة طائفة إلى حلب وينصب عليهم سردار من كبرائهم ... وتقووا فى حلب وفتكوا وجاروا ... حتى رهبهم أهلها وصاهرتهم كبراؤها واستولوا على أكثر قراها ... بحيث قلّت أموال السلطنة وصارت أهالى القرى كالأرقاء لهم»(١). وتصدّى لهم الحلبيون ولكنهم هزموا ، وصفا الوقت الدمشقيين ووضعوا أيديهم على أكثر موارد المدينة ، فعرض والى حلب أمرهم على السلطان فأمر بإجلائهم عن حلب ، وتصدّى نصوح باشا لهذه المهمة وحاربهم حرباً عنيفة حتى تعقبهم إلى دمشق ، « وانقطع أمرهم عن حلب وعن سرداريتهم فيها ». وعلق المحبى على ذلك : «وليته انقطع عن دمشق أيضاً ، فلعمرى إن بلدة تأمن غوائلهم ولا ترى مصائبهم ونوازلهم لهى أمينة من جميع المصائب مدفوع عنها بلطف الله تعالى جملة النوائب ، فإنهم مدار كل ضرر آجل وعاجل ، وليس لهم تالله نفع ولا تحتهم طائل » .

وقبلت الدولة رجاء والى حلب ، فأذنت له بتكوين قوة عسكرية خاصة بحلب ، فكوّن « قولا جديداً ورتبه على هيئة قول الشام »(٢) .

أما دمشق فقد قاومت فيها الدولة جند الإنكشارية المحلية بقوة جديدة من إنكشارية الدولة ، أرسلت إليها « نحو الثلاثمائة من جند السلطان المعروفين بالقبوقولية ، فاستقروا بقلعتها وتسلموا أبواب المدينة وباب المحكمة والحسبة وسوق الخيل وميزان الحرير وبقية الخدم (أى الوظائف) التى كانت مخصوصة لعسكر الشام» . وزاد والى الشام على ذلك أن دبّر مكيدة فتك فيها بعدد من رؤسائهم ، وبذلك ضعف جند الشام أو الإنكشارية المحلية بعض الشىء(٣) . ولكنهم لم يستسلموا قط لسلطان القبوقول ، بل عادوا فى أواخر القرن السابع عشر إلى شىء من سابق قوتهم(٤) ، وامتلأ تاريخ دمشق منذ منتصف القرن السابع عشر حتى قيام الحكم المصرى فى سنة ١٨٣١ — بأخبار النزاع العنيف المستمر بين هاتين الطائفتين من الجند .

والبديرى فى حولياته يتتبع فنوناً من هذا الصراع .

حاول باشوات الشام أن يمسكوا الميزان بين هاتين القوتين المتخاصمتين ، فكانوا يميلون إلى إحداها كلما طغت الأخرى ، وهكذا . كما أنهم سعوا إلى تكوين قوة

(١) المحبى : ج ٤ ص ، ٤٤٨ وما بعدها فى ترجمة نصوح باشا .

(٢) الغزى : نهر الذهب ج ٢ ص ٢٦٦ — ٢٧٠ .

(٣) المحبى : ج ، ٤ ، ص ، ٣١١

(٤) المصدر السابق : ج ٤ ص ٣٣١ — ٣٣٢ .

عسكرية خاصة بهم يستعينون بها على أولئك وهؤلاء ، من هذه الأخلاط الذين كانت تمتلىء بهم بلاد الشرق الأدنى ، من المغاربة والأكراد والتركمان وغيرهم ممن لا تربطهم بالبلاد عائلات أو عصبيات ، ولكنهم لم يكونوا خيراً من الآخرين ، وكان الباشا يضطر أحياناً إلى أن يغض الطرف عن نهبهم للناس ، ريثما تواتيه فرصة للتخلص منهم وهكذا.

ازداد طغيان جند الدولة (القبوقول) فى الشام ، حتى دعا عليهم «شيخ الشام» الشيخ عبد الغنى النابلسى (المتوفى سنة ١١٤٣) ، واستجاب الله فيما يروى القاري[١] لدعائه ، فتقرر إخراجهم من دمشق (سنة ١٧٤٠) وأصدر السلطان خطاً شريفاً بإبطال القبوقول من الشام « وأن من استخدمهم أوردهم ملعون بن ملعون »[٢]. فهدأت المدينة « واصطلحت أحوال الناس »[٣].

وخلا الميدان للانكشارية البرلية فزاد رؤساؤهم طغيانا ، حتى استحالوا إلى أشقياء أو (زرباوات) فى مصطلح أهل الشام . وحاول سليمان باشا العظم إصلاح هذه الحالة ، فعزم على القبض على رءوسهم ، وأعلن أن دماءهم مهدورة « وأعطى أسماءهم للدلال » ، ولكنه عجز عن القبض عليهم ، فاضطر - وكان على وشك الخروج للحج - إلى أن يصدر أمراً بالعفو عنهم[٤].

ومات سليمان باشا وصادرت الدولة أمواله ولم يستطع خليفته ابن أخيه أسعد باشا أن يفعل شيئاً ، فزاد الإنكشارية طغيانا ، وراحوا يحقرون الباشا ، ويطلقون عليه أسماء السخرية .

ولكن أسعد باشا كان يدبر الأمر سراً ، فاستصدر من الدولة إذنا بإبادتهم ، وجمع جموعا من الدالاتية ، وفاجئوا القلعة فملكوها ، وكانت الحصن الحصين للانكشارية وهجموا بالمدافع على دور رؤسائهم فى حى سوق ساروجة والميدان ، فأحرقوها ونهبوها وملأت جثث القتلى شوارع المدينة ، « فسكنت بعد ذلك الشام وصارت كقدح لبن »[٥]

وفر رؤساء الإنكشارية لاجئين إلى الدروز ، فتقووا بهم ، وظلوا يهددون بالإغارة على دمشق ، وخاصة أثناء غيبة الباشا وأكثر القوات العسكرية فى الحج .

---

(١) نشرة المنجد ص ٦٨

(٢) ص ١١٠ .

(٣) البديرى : ص ٥ — ٦

(٤) ص ١٨ — ١٩

(٥) ص ٦٩

وهكذا ملك الباشا زمام الوقف فى المدينة بأربعمائة من عسكر الدالاتية ، ولكنهم ما لبثوا أن مدوا أيديهم ليتقاضوا الثمن من أرزاق الناس وأعراضهم ، وهم ـ على ما هم عليه من فساد ـ قد تقاعسوا فى حرب الدروز ، بينما صمد بقايا الإنكشارية فى القتال ، فأنبهم الباشا قائلا : «تبا لكم من أعوان ولمن أتخذكم من أنصار ! تأخذون العلائف والمال وتهربون من الحرب والقتال ، والمتطوعون (يقصد جند الشام من الإنكشارية) يقاتلون لله ورسوله ويتسابقون للحرب مع ما قد فعلت بهم من الفعال من قتل وسلب وخراب ديار » ودعا إليه جند الشام « وأوعدهم بالإحسان والإكرام » .

ولكن الباشا لم يبر بوعده خشية أن يعودوا إلى سابق طغيانهم ، بل إنه رأى أن خير ما يفعله أن يطلب جندا من الدولة ، وهكذا عادت للشام بعض فرق القبوقول ، « فدخلوا بكبر وحبر وعتو » و « رجعت دواتهم أحسن مما كانت »[1] .

وكما فعل الدالاتية والانكشارية فعل القبوقول ، فقد اعتزوا واستبدوا بالناس وتطاولوا على الأشراف ، وكانت للأشراف مكانتهم فى المجتمع الدمشقى ، وكانوا فئة مسلحة ، وكثيرا ما حملوا السلاح وقاتلوا . وأراد أسعد باشا أن يسجل على أهل دمشق اعترافا بأن الأمر لا يصلح إلا بجند الدولة ، خرج يوما للدورة ـ أى لجمع مال الدولة من جهات نابلس وعجلون ـ فدعا إليه علماء المدينة ليسلمهم زمامها أثناء غيابه ، فاعتذروا إليه قائلين :

« يا أفنديا ! نحن أناس منا علماء ومنا فقراء ومنا مدرسون ، وصنعتنا مطالعة الكتب وقراءتها . . . فقال لهم : هذا إقراركم ، وكيف وأنتم الأعيان . فقالوا : حاشا لله ، إنما أعيان الشام القبقول[2] . وتيقن الباشا أن البلد لا تصلح إلا بهم » ، فدعا رؤساءهم وسلم زمام الحكم فى المدينة لهم ، « وكان ذلك منه دهاء »[3] .

ونقل أسعد باشا من ولاية دمشق (١١٧٠) والحال بين الانكشارية والقبوقول على ما هو عليه ، فكل فريق حذر من الفريق الآخر متربص له ، ورأى الباشا أن

---

(١) ص: ٩٣ ، ١٥٩
(٢) لا شك أنهم قالوا هذه العبارة فى سخرية مريرة .
(٣) ص : ١١١

يصلح ما بينها قبل رحيله، ولكنه لم يستطع ، وعادت الفتنة ، ولم تسكن إلا بعد أن مشى نقيب الأشراف والعلماء بالصلح بينهما ، وكتبوا عليهم « حجة بحضور القاضي والمفتي وأعيان البلدة مضمونها أن كل من تعدّى يكون عنده مائة كيس لمطبخ السلطان ودمه مهدور »[1]

ولكن ما أن خرج الباشا للحج حتى عاد القتال بين طوائف الجند ، وتحزبت بينها أحياء المدينة فقاتل بعضها بعضا[2] . وانتهز البدو الفرصة فنهبوا قافلة الجردة وقافلة الحج، وكانت نكبة لا مثيل لها .

وجاء إلى الشام والٍ شديد المراس ، عزم على أن يفتك بجند الشام ، فجمعوا جموعهم فبلغت نحو عشرين ألفا « أظهروا الشجاعة وقلة الخوف منه » ، ولكنهم هزموا أمام جند الدولة الكثيف السلح بالمدافع الذى ساقه الباشا عليهم ، وظل الباشا يطاردهم فى المدينة حتى خارج باب الله ، ونهبت دورهم وقتل منهم الألوف وتشرد الباقون ، واعتبر الجند دمشق مدينة للأعداء فتحوها بحدّ السيف ، فأمعنوا فى المدينة والقرى المجاورة لها وأهلها نهبا وسلبا .

وبينما لم يكن الباشا يطعم جنده إلا اللحم والأرز والخبز الطيب، يجتمع مئات الناس على الأفران فلا يجدون خبزا ، «وانتكبت أهل الشام نكبة فى ذلك العام ما عهدت من أيام التيمور ولله عاقبة الأمور » . وأراد الدمشقيون أن ينهضوا لرد العدوان ، ولكنهم « لم يجدوا أحدا يأخذ بيدهم » . وافتقد الدمشقيون الحماية بعد أن تمزقت الإنكشارية المحلية أو أوجاق الشام كل ممزق[3].

وكانت هذه آخر فتنة بين طوائف الجند فى دمشق تحدث عنها البدرى ، ولكن الفتن بين هذه الطوائف لم تقف ، ومازالت دمشق تقاسى منها أهوالا ، حتى جاء الحكم المصرى (١٨٣١) فوضع للحكومة والجندية بها نظماً جديدة .

* * *

---

(١) ص ٢٠١

(٢) ص ٢٠٢

(٣) ص ١٥ : — ٢١٧

الحج الشـــامى (١) :

وقد استأثرت أنباء الحج بجانب كبير من اهتمام البديرى : فقد حرص فى كل عام على أن يتتبع هذه الأنباء ويسجلها ، منذ تنفصل قافلة الحج وركب المحمل ، ثم قافلة الجردة من دمشق ، حتى تصل كل منها إلى غايتها فى الأرض المقدسة ، ثم تعود قافلة إلى دمشق ، فهو يذكر وقت طلوعها ، ثم عودتها ، وما قد يحدث لها فى الطريق من حر شديد أو برد قارس ، من عطش أو سيل ، من رخص أو غلاء ، من أمن أو اعتداء . وهو حريص دائما على أن ينوه بمسلك أمير الحج — وهو باشا الشام — إزاء الحجاج وما يلقونه فى الطريق . حتى إذا عاد الحجاج سالمين غانمين تنفس البديرى — وتنفس معه الدمشقيون — الصعداء ، وحمدوا الله وأثنوا عليه .

وهؤلاء الحجاج الذين يتجمعون فى دمشق ويخرجون منها للحج ، ليسوا من دمشق وحدها ، ولا من سورية وحدها ، وإنما بفضل أهمية موقعها — كأكبر مدينة على حافة الصحراء السورية الحجازية وعلى أقصر طريق من الآستانة إلى الحرمين الشريفين — غدت دمشق مركزا يتجمع فيه الحجاج من بلاد العجم وتركيا وتركستان وغيرها من الجهات الشمالية.

وأصبح لدمشق بذلك لون من القدسية أو الشرف ، حتى دعيت (شام شريف) ووقع على عاتق المدينة مسئولية استقبال وإيواء وتموين هذا العدد الكبير من الحجاج من مختلف الجنسيات ، الذين كانوا يتجمعون فيها فى وقت واحد معين من كل عام استعدادا للرحيل إلى الحرمين الشريفين .

على أن دمشق أفادت من هذه المسئولية فائدة كبيرة من الناحية الاقتصادية ، فقد كانت مواسم الحج مواسم للتجارة أيضا ، وقد اعتاد أكثر الحجاج الغرباء أن يحملوا معهم كثيرا من منتجات بلادهم لبيعها فى دمشق ليستعينوا بثمنها على أداء نفقات الحج ، وكثير منهم يبادلون بمنتجات بلادهم منتجات سورية ، فكانوا بذلك يجمعون بين المتاجرة وأداء الفريضة . وهكذا كانت خانات دمشق وأسواقها تمتلىء وتموج بخليط عجيب من الناس والأصناف والإبل والخيل ودواب الحمل ، فتروج فيها

---

(١) موضوع (الحج الشامى) من المباحث الهامة فى التاريخ السورى الحديث . وقد ألف فى هذا الموضوع كاتب فرنسى كتابا قيما وهو Tresse : Le Pelérinage Syrien, Paris 1937. ولكن أكثر ما كتبه يتعلق بالقرن التاسع عشر .

حركة التجارة ، وكان أهل دمشق ينتظرون وصول قافلة العجم باهتمام كبير خصوصا إذا كانت كبيرة العدد ، فانهم يحضرون معهم « ريبات ذهب ... ولؤلؤ كبير وصغير وأحجار ومعادن وشال وغير ذلك» ، فيحدث — على حد تعبير البديرى — «جبر خاطر لعموم الناس فى البيع والشراء »[1] .

ووقع على عاتق وزير دمشق مهمة ضبط الأمن فى المدينة أثناء وجود هذا العدد الكبير بها ، ورقابة الأسعار حتى لا يستبد التجار بأهالى المدينة وضيوفها ، ثم مسئولية إعداد قافلتى الحج والمحمل الشريف ، وتأليف القوة العسكرية التى ستصحبهما ، والدفاع عنهما ضد أى عدوان محتمل يشنه العدو فى الطريق ، وإعداد الآبار ومنازل الحج وحراستها ، وتألف عشائر البدو بالهدايا والأموال وتوزيع الصرة على أشراف الحجاز وأموال الصدقة وغلالها على فقراء الحرمين ، وربما وجد أمير الحج مشاكل أخرى تنتظره فى الحجاز ، حيث الخصومات لا تهدأ بين شريف مكة ومنافسيه من الأشراف ، فإن الإشراف لا شك كانوا يحسبون ألف حساب لأمير الحج الشامى ، ولأمير الحج المصرى ، فإن كلا منهما كان يقود معه إلى الحجاز قوة عسكرية كفيلة بترجيح الجانب الذى تنحاز إليه . وهكذا غدت مسئولية وزير الشام — بوصفه أميرا للحج الشامى — أخطر مسئولياته وعلى نجاحه أو فشله فى النهوض بها كان يتوقف مصيره

وقدرت الدولة خطورة هذه المسئولية ، فكانت تتخير لباشوية الشام — عادة — من كبار رجالها ، وقد رأيت أنها مدت فى ولاية أسعد باشا العظم وإمارته الحاج أربعة عشر عاما ، إذ نهض بهذه المسئولية على خير وجه ، ولم يتعرض الحاج فى عهده لأى عدوان ، وقدرت الدولة الأعباء المالية[2] التى تطلبتها هذه المسئولية من باشا الشام فأعفته من المال الذى كان مقدرا على الولايات الأخرى أن تبعثه إلى الدولة

(١) ص ١٦١

(٢) قدر فولنى (ص ٢٥٩) تكاليف قافلة الحج والمحمل بستة آلاف كيس (والكيس خمسة جنيهات) ، تنفق فى شراء المشاعل والقرب والحبال ومواد التموين وأجر الجمال والأدلاء . الخ هذا عدا ١٨٠٠ كيس اعتاد الباشا أن يوزعها على العشائر الضاربة فى طريق الحج . وقال فولنى إن الباشا كان يعوض هذه التكاليف بأن كان يرث جميع الحجاج الذين يتوفون فى الطريق وقد جرت العادة بذلك ، على أنه لوحظ أن أكثر من كان يموت فى الطريق هم أغنياء الحجاج ! .

فى كل عام ، أما باشا الشام فقد اكتفت الدولة بأن فرضت عليه مبلغا بسيطا بصفة رمزية[1] ، كما أنها عهدت إلى باشواتها فى الولايات السورية الأخرى ، فى حلب وطرابلس وصيدا بأن يكونوا عونا لباشا الشام . فكانت تعهد إلى واحد منهم بأن يعدّ قافلة لتموين الحاج فى طريق عودتهم من الحجاز ، وكان يطلق عليها قافلة الجردة .

وقد بدأ والى الشام يتولى إمارة الحاج فى النصف الثانى من القرن السابع عشر ، أما قبل ذلك فقد جرت عادة الدولة بأن تعهد لحاكم نابلس وعجلون بامارة الحج الشامى ، وغالبا كان هذا الحاكم يختار من كبار العسكريين بدمشق أو من زعماء العشائر العربية فى فلسطين ، ومنهم « بنو فروخ » وهم أسرة نابهة تولى كثير من أفرادها إمارة الحاج فى القرن السابع عشر ، وكان آخر من تولى هذا المنصب منهم عساف باشا (الذى توفى فى سنة ١٠٨١ = ١٦٧٠ — ١٦٧١) ، ففى ذلك العام اعترض العربان قافلة الحج الشامى ونهبوا الحجاج وسدوا الآبار وقتلوا أمير الحج[2] . ففى العام التالى قررت الدولة أن يتولى باشا الشام إمارة الحاج ، وقد كان «حاكما ترتعد منه الأسود»[3] . ومنذ ذلك الوقت أصبحت العادة أن يتولى باشوات الشام إمارة الحج فى كل عام ، واستمر الجمع بين منصبى وزير الشام وأمير الحاج الشامى لشخص واحد نحو قرنين[4] .

وقد ظهرت فى القرن السابع عشر إلى جانب أمير الحج شخصية أخرى ، ويدعى صاحبها « أمير الركب » ، وكان أحد الباشوات العثمانيين أو من رؤساء الأجناد ، ولسنا نعلم على وجه الدقة اختصاصات منصبه ، ولعله أمير ركب المحمل ، فهو قائد الجند الذين يصحبون المحمل لحراسته ، بينما كان باشا الشام أميرا على القافلة كلها بما تنتظم من مدنيين وعسكريين ، وعلى أى حال فسرعان ما اختفى هذا المنصب فى القرن الثامن عشر ، وأصبح باشا الشام أمير الحج وأمير الركب معاً .

---

(١) قدره فولى بخمسة وأربعين كيساً .

(٢) المرادى: ٢/٦٣

(٣) المقار : ص ٤١

(٤) هذا باستثناء بعض السنوات ، فمثلا فى سنة ١٨٢٤ مات باشا الشام فى حمص وهو فى طريقه إلى دمشق ،وكان وقت الخروج قد أزف ، فبادرت الدولة الى تعيين باشا حلب أميراً للحاج الشامى ، وفى مناسبة أخرى كان باشا الشام رجلا طاعنا فى السن فأناب عنه فى إمارة الحج باشا آخر أقل رتبة .

الدورة :

ويتأهب الباشا للخروج للحج قبل حلول موسمه بنحو ثلاثة أشهر ، ويبدأ هذا التأهب بالخروج « للدورة » ، وهى جولة تفتيشية يقوم بها الباشا وبعض جنده فى جهات نابلس وعجلون . ويستهدف بها أمرين :

الأمر الأول : جمع مال الدولة من سكان المناطق الجنوبية من ولايته ، وهى المناطق التى يحكم فيها أصحاب العصبيات من شيوخ البلاد وزعماء العشائر. وذلك ليستعين بهذه الأموال فى إعداد قافلة الحج والمحمل. وكانت لنابلس وبيت لحم والخليل شهرة فى الخروج على الدولة والامتناع عن دفع أموالها[1].

والأمر الثانى: إظهار سطوة الدولة فى هذه الجهات التى ستمر بالقرب منها بعد قليل قافلة الحج والمحمل فى طريقها إلى بيت الله الحرام.

وقد جرت العادة أن يخرج الباشا للدورة فى أواخر رجب أو فى أوائل شعبان ثم يعود إلى دمشق فى أوائل شوال ، وقد يتقدم خروجه للدورة عن هـــذا الموعد فيخرج فى أواخر جمادى الثانية أو فى أوائل رجب. وقد يتأخر إلى أوائل رمضان . وفى هذه الحالة لا يستطيع أن يمكث فى الدورة إلا نحو شهر ، وعليه أن يعود مسرعا إلى دمشق ، لأن العادة جرت أن يخرج الحاج وركب المحمل فى منتصف شوال[2] » .

وفى بعض السنوات عهدت الدولة إلى حاكم القدس ـــ وهو باشا ذو طوخين ويعد تابعاً لوزير الشام ـــ بأن يجمع مال الدورة . ولـكن هـذا كان يعد علامة لتحول الدولة عن وزير الشام[3].

قافلة الحج :

فى الأسبوع الآخر من شعبان يبدأ توارد الحجاج البعيدين إلى دمشق(٤) وتمتلئ المدينة شيئا فشيئا بالحجاج طوال شهر رمضان ، وفى منتصف هذا الشهر ـــ أو فى الأسبوع الثالث منه ـــ يصل ركب «الصرة أمينى» أو أمين الصرة ، وهى المال الذى

---

(١) فولنى ص ٢٦٠

(٢) البديرى ص ٤٨ ، ٨٣ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٨٢

(٣) ص ١٨٨

(٤) ص ١١٥

ترسله الدولة لأشراف الحجاز ، وهو يبدأ عادة — رحلته من القسطنطينية فى أحد أيام الأسبوع الأخير من رجب[١]

حتى إذا ما انتصف شوال تكون الترتيبات النهائية لإعداد قافلة الحج وركب المحمل قد تمت ، فيخرج أمير الحج من سراى الحكم بقرب القلعة على رأس موكب المحمل بين ١٥ و١٧ شوال[٢] ويتخذ طريق الميدان مجازا باب المصلى ثم الميدان الفوقانى إلى باب الله فى طريق يمتد نحو ثلاثة كيلو متراب ، متجها إلى قرية المزيريب ، وهى إحدى قرى حوران وتبعد نحو مائة كيلو متر جنوبى دمشق . وبعد خروج موكب الحج ببضعة أيام ، من يومين إلى خمسة ، تخرج قافلة الحج الشامى من نفس الطريق[٣] ، ويتلوها قافلة الحج الحلبى ، ومعهم حجاج العجم[٤] ،أو قد يأتون فى قافلة خاصة بهم ، ويتجه الجميع إلى قرية المزيريب ، نقطة التجمع النهائى[٥] ، ويقضون بها بضعة أيام (من أربعة إلى ٧ أيام) ريثما يعدون أنفسهم للرحلة الشاقة إلى بلد الله الحرام فيبيعون ويبتاعون ، وينظم الباشا جنده ويستطلع طلع الطريق ، حتى إذا تم كل شىء تقدم أمير الحج بالمحمل الشريف والجند الكثيف يشق الطريق أمام قوافل الحجاج الذين يسيرون من خلفه .

---

(١) حدد تريس Tresse وقت مبارحة أمين الصرة للعاصمة العثمانية فى ٢٥ رجب ووقت وصوله دمشق بين ٢٠ و ٢٥ رمضان .

(٢) يظهر أن هذه المواعيد تقدمت فى القرن التاسع عشر ، فان تريس ذكر أن الباشا يخرج يوم ٥ شوال .

(٣) ذكر تريس نقلا عن بعض المراجع أن عدد المشتركين فى قافلة الحج الشامى ٤٠ ألفاً فى القرن الثامن عشر ، ثم تناقص العدد فى القرن التاسع عشر ، فى تقدير بور خارت (سنة ١٨١٤) ٥ آلاف (وفى سنة ١٨٣٤) ٤٥٠٠ (وفى سنة ١٨٥٣) ٧ آلاف فى تقدير برتون.

(٤) قدر البديرى عدد حجاج العجم فى سنة ١١٥٤ بثلاثمائة حاج وقد جاءوا فى قافلة الحج الحلبى (ص ١٠) وفى العام التالى قدرهم بـ ١٧٠٠ حاج وقد جاءوا مع الحج الحلبى أيضاً (ص ٣٠) وفى سنة ١١٦٤ قدرهم بـ ١٦٠٠ حاج وقد جاءوا فى قافله خاصة .

(٤) ذكر تريس أن أول مكان يقف عنده الحجاج بعد خروجهم من دمشق هو قرية القدم ، (وتقع بعد باب الله مباشرة) ويمكثون بها بضعة أيام لاجراء الترتيبات النهائية ويحدث التجمع النهائى ، ثم يخرجون منها إلى المزيريب . ولكن البديرى فى تتبعه لقافلة الحج منذ تفصل عن دمشق لا يذكر شيئاً عن قرية القدم ، وإنما يذكر دائماً أن التجمع النهائى يكون فى المزيريب ، مما يجعلنا نرجح أن قرية القدم أخذت أهميتها كأول مرحلة فى طريق الحج فى خلال القرن التاسع عشر . أما المزيريب فكان يعقد بها فى موسم الحج سوق نافقة ، كما أنها كانت سوقا لسكان جنوبى سورية . وقد بدأت المزيريب تفقد أهميتها عندما تحول عدد كبير من الحجاج إلى استخدام طريق البحر الأحمر ثم سكة حديد الحجاز .

وينفض الجمع من المزيريب ، ويعود (المزيرباتية) إلى دمشق فى أواخر شهر شوال . والمزيرباتية هم الذين خرجوا لتوديع الحجاج حتى المزيريب أو التجار الذين عقدوا بها أسواق البيع والشراء . يعود المزيرباتية فيحدثون أهل الحاج بأنهم فى خير حال وأنهم فى طريقهم لأداء الفريضة المقدسة .

ويمضى الركب فى طريقه إلى الحجاز ، فإذا كان الوقت شتاء مضوا فى سيرهم نهارا واستراحوا ليلا، أما إذا كان الوقت صيفا آثروا السير ليلا والراحة نهاراً . وهم يتقدمون إلى مكة فى طريق مألوف عرف بالدرب السلطانى ، وهو أقرب ما يكون إلى البحر غربا وهم يؤثرونه على طريق آخر إلى الشرق منه ، وهو على قصره يجتاز أرضا مجدبة ، ويشق على الجمال الحملة اجتيازه ، وحتى فى المرحلة الأخيرة من الطريق بين المدينة ومكة قد يتعرض الحجاج للبدو الضاربين بين الحرمين . ويكون وصول الحاج إلى مكة فى الأسبوع الأول من ذى الحجة (بين اليوم الخامس واليوم السابع) وفى اليوم التالى لوصولهم يمر أمير الحاج فى موكب فخم فى شوارع مكة فى طريقه إلى الكعبة .

وبعد أن يقوم الحجاج بشعائر الحج يبرحون مكة عائدين إلى المدينة فى أواخر شهر ذى الحجة ، ومنها إلى دمشق فيصلونها فى الأيام الأولى من شهر صفر .

الجردة :

وبينما ركب الحجاج يغذون السير إلى بلد الله الحرام ، تكون الدولة قد وقع اختيارها على أحد وزرائها أو ولاتها فى حلب أو طرابلس أو صيداً أو حاكم غزة إن عاد الحجاج عن طريق (الدرب الغزاوى) متنكبين الدرب السلطانى تجنباً لمخاطر الطريق . فيعكف الوزير — ويدعى حينئذ سردار الجردة — على إعداد قافلة الجردة ، وهى مؤن من بقسماط وزيت وأرز وشعير وعليق وحبال وملابس تعدّ لإسعاف الحجاج فى طريق عودتهم إلى الشام خشية أن يكون ماعندهم منها قد نفد(١) . ويصحب الجردة طبعا طوائف من الجند لحراستها والاشتراك مع الجنود المرافقين لأمير الحاج فى حراسة قوافل الحجاج فى طريق العودة .

---

(١) قدر فولنى أن الجردة كانت تكلف الباشا ٧٥٠ كيسا . وذكر البديرى (ص ١٦٠) أن سعد الدين باشا العظم عندما ولى حلب طالب أهلها أن يجمعوا له ٢٠٠ كيس لنفقات الجردة فعصوا وشاغبوا عليه .

وقد جرت العادة أن تصل الجردة إلى دمشق من حلب أو طرابلس أو صيدا فى منتصف شهر ذى القعدة — أى بعد شهر من خروج الحاج — وتمضى بدمشق بعض الوقت، ثم فى اليوم العاشر من ذى الحجة أو فى منتصفه تفصل الجردة عن دمشق يقودها سردارها، وتسير الجردة فى نفس الطريق الذى سار فيه ركب الحاج ، وبعد أن تمضى فى الطريق نحو ٢٢ يوما منذ خرجت من دمشق تصل إلى مكان يسمى هدية ، على بعد قليل شمالى المدينة المنورة فتقيم بها أياما فى انتظار قافلة الحج ، فيكون اللقاء فى هدية ، ويقضى الجميع بها بضعة أيام (قد تصل إلى أحد عشر يوما)(١) يكون الحجاج فى خلالها ضيوفاً على قافلة الجردة وسردارها ، وتكون هذه الفترة بمثابة (ترفيه) عن الحجاج وتأهيا لقطع طريق العودة .

وبعد انقضاء هذه الفترة يسرع الجميع فى السفر قافلين إلى دمشق . وإذا كان أمير الحج قد سبق قوافل الحجاج وتقدمها فى طلوعها من دمشق ليشق لهم الطريق ، فإنه فى طريق العودة إلى دمشق يتأخر عنهم ليكون ردئاً لهم من اعتداءات العربان .

حتى إذا اقترب الركب من دمشق أنفـــذ أمير الحج أحد رجاله — ويعرف بالجوقدار أو الجوخدار — ليسبق الركب إلى دمشق ليبشر أهلها بسلامة الحاج ، إن كان قد عاد سالماً ، أو ليطلب إليهم النجدة إن تعرض للعدوان ، وهو — فيما يقول تريس — ينفصل عن الركب فى تبوك ، ويغذُّ السير إلى دمشق فى حراسة بضعة جنود متقدماً القافلة بسبعة أيام(٢) ، وعادة يصل إلى دمشق

---

(١) فى سنة ١١٧٣ كان عثمان باشا الصادق وزير طرابلس سرداراً للجردة ، وقد أشاد البديرى (ص ٢٣١) بحسن صنيعه ، عندما انتظر الحجاج فى هدية أحد عشر يوما « وهذا أمر ما سبق لأحد غيره ، وقد أغاث الحجاج بالإكرام ، فقد أطعم الجائع وسقى العطشان وركّب العيان وكسا العريان » ، وقدرت الدولة صنيعه فولته ولاية الشام ، وولت ولده ولاية طرابلس .

(٢) هذا جوخدار الباشا ، أما جوخدار السلطان الذى يحمل إليه البشرى بسلامة الحاج فكان يدعى مزده حى (musdegy) تريس ص ٢٣٠ ، وسماه البديرى مشطجى (انظر ص ٢٠٧،٧) ويبدو مما ذكره تريس أنه فى القرن التاسع عشر كان جوخدار الباشا وجوخدار السلطان والكتّاب الذى يحمل بريد الحجاج شخصا واحدا، فقد ذكر أنه كان يحمل معه رسائل الحجاج الدمشقيين الى ذويهم فيدفعها إلى أحد أهالى حىّ الميدان ، وهذا بدوره يستأجر محلا بجوار جامع الدرويشية ليوزع منه الخطابات إلى ذويها . أما الجوخدار فيستمر فى طريقه الى إسلامبول حيث تحييه طلقات المدافع ويشق شوارع العاصمة مرتديا زى أهل المدينة المنورة ، ثم يستقبله السلطان والوزراء فيتناولون بعضا من تمر المدينة، الذى جلبه معه على سبيل التبرك ثم يسلم الخطابات الى أصحابها . وبعد إنشاء خط البرق بين الأستانة والحجاز فى سنة ١٩٠١ لم يعد ثمة حاجة للجوخدار Tresse, op. cit p, 252 .

في الأسبوع الأخير من شهر المحرم (بين ٢٢ و٢٧ منه) حيث يستقبل باحتفالات شائقة ، وحسبه أنه يبدد مخاوف الدمشقيين على ذويهم من حجاج بيت الله الحرام ، فيهرعون لملاقاتهم حاملين لهم الحلوى والملابس ، كما يهرع التجار إلى المزيريب ليقيموا سوق البيع والشراء .

وفي أثر الجوخدار يغذُّ الكَتّاب السير إلى دمشق . والكَتّاب هو الشخص الذي ينفذه أمير الحاج ليحمل كتبهم إلى ذويهم ، فيصلها بعد الجوخدار بثلاثة أيام وقد يكون لدمشق ولكل من حماة وحلب كتاب آخر .

وفي أثر الكتاب — بعد يومين أو ثلاثة — يبدأ وصول الحجاج إلى دمشق فيصلونها بين ٢و٥ صفر[1] ، ويستمر دخولهم إلى المدينة نحو خمسة أيام ، وفي أثرهم يدخل أمير الحج وسردار الجردة في كامل زينتهما وأبهتهما .

وتقام الزينات في المدينة ويستقبل الأهالي الحجاج مهللين مكبرين حامدين الله على سلامتهم ، فيحدثهم هؤلاء عما لقوا من أهوال الطريق .

والحق أن رحلة الحاج لم تكن نزهة ، كان الحجاج من أبناء الشام يقضون في الرحلة كلها نحو أربعة أشهر (من شوال إلى صفر)[2] ، وكانت الرحلة حقا (قطعة من العذاب) . ومدوّنات تلك الأيام تفيض بما كان يلقاه الحجاج في كثير من الأحيان من أخطار الطريق ، من ظواهر طبيعية لا يستطيعون لها دفعا ، كالحر اللافح أو البرد القارس أو السيل الجارف ، أو من عدوان بعض العشائر البدوية ، فيموت منهم الألوف ، ويعود الباقون في أشأم حال ، بينما يظل الناس في دمشق يتنسّمون أخبارهم ، وخاصة كلما أزف موعد عودتهم ، ومنهم من يخرج إلى ظاهر المدينة ، عند باب الله ، يستطلعون أنباءهم وكثيراً ما كانت أنباء سوء .

وقد تحدث البديري عما لقيه الحجاج من أخطار في بعض السنوات : ففي سنة ١١٥٦ « جاء خبر عن الحج الشريف بأنه غرق في الحسا ... وذهب على ماقيل مقدار نصف الحاج من خيل وجمال وبغال ونساء ورجال وأموال وأحمال » وبلغ

(١) وصل الحجاج إلى دمشق في إحدى السنوات في ١٢ صفر متأخرين أسبوعا عن الموعد المعتاد .

(٢) أما الحجاج الأتراك فيصلون إلى الآستانة حوالي ٢٥ ربيع الثاني بعد غيبة امتدت نحو ثمانية أشهر ، وقد قدرها ترنس بـ ٢٦٠ يوما .

من خطورة الموقف أن الحجاج استغاثوا بأمير الحج — وكان سليمان باشا العظم — وعرضوا عليه أن يهبوه أموالهم ولا يتركوها للعرب ، ولكن الباشا أبت عليه همته إلا أن يخاطر هو وجماعته حتى رد عليهم أحمالهم « ولم يدنس حجته بشيء ، وقد عدوا هذه النقبة لمثله من الهمم العالية والمروءة السامية » .

ومضى الحجاج فى طريقهم إلى دمشق ، فإذا بسيل آخر يفاجئهم فى البلقاء ، حتى كاد أن يهلك بقية الحاج ، وبادر الباشا فأنفذ رسولا إلى دمشق يطلب النجدة من أهلها ؛ فشق شوارعها ينادى : «يا أمة محمد ! من كان يحب الله ورسوله ويمكن من الخروج فليخرج ومعه ما يقدر عليه من مأكل ومشرب وملبس ... فخرجت الخلق مثل الجراد»(١) .

وفى عام آخر (١١٦٤) فاجأ الحاج سيل فى عسفان ، فأمرهم الباشا « بأن يجدوا فى السير حتى ترك من العشرة اثنين »(٢) .

وقد يضطر أمير الحاج إلى تنكب الطريق السلطانى حيث تقوم الآبار وتتوافر المياه إلى طريق آخر ليتجنب عدواناً يدبره الأعراب ، فلم يجد الحاج ماء فأصابهم العطش حتى مات منهم فى اليوم الواحد ألف وخمسمائة حاج(٣) ، ومثل هذا كثير .

أما اعتداء العربان فكان شر ما يخشاه الحجاج فى الطريق ، وقد امتلأت مصادر ذلك العصر بأنباء كثيرة عن اعتداءات العشائر البدوية ، وخاصة إذا قبض الباشا يده عن المرتبات والمنح التى كان من المعتاد تقديمها كل سنة للعشائر الضاربة فى الطريق بين الشام ومكة .

ويكفى أن نذكر هنا مثلا واحدا ، وهو النكبة التى حلت بالحاج الشامى فى موسم سنة ١١٦٩ ، وكان أسعد باشا العظم قد نقل منذ زمن وجيز من باشوية دمشق بعد أن تولاها أربعة عشر عاماً حج بالناس فى كل عام فى أمن وسلام ، فقد كان شخصية مرهوبة خشيها العربان ، فلم يجرؤا قط على مد أيديهم بالعدوان ، فما أن نقل من دمشق حتى فشا فيها الاضطراب ، وتجرأ عربان بنى صخر فاعتدوا على قافلة الجردة وقافلة الحج أشنع اعتداء ، واتهم أسعد باشا نفسه بأنه حرض العرب

---

(١) ص ٣٦ — ٣٧

(٢) ص ١٥٢ .

(٣) ص ١٨٨

على ذلك انتقاما لنقله من دمشق ، وصدقت الدولة هذا الاتهام ، فأعدمته وصادرت أمواله .

وقد وصف البديرى هذه النكبة وصفا مؤثرا[1] : قال إن العرب بدأوا بقافلة الجردة عندما وصلت إلى القطرانة ، حيث يضيق الطريق بين الحسا والقطرانة فيسمى البوغاز ، فهاجموا الجردة ونهبوها ونهبوا سردارها « حتى شلحوه لباسه وخاتمه من أصبعه وأنزلوه من تحته ... وأخذوا طبوله وأطواخه ومدافعه » . وثنى العرب بقافلة الحاج ، فأمعنوا فيها قتلا وسلبا ، حتى إنهم ارتكبوا « أفعالا لا يفعلها عباد النيران » ، فقد كانوا « يشلحون الرجل ويفتشون تحت إبطه ودبره وفمه وتحت خصيته وإن وجدوا الرجل كبيرا بطنه أوله قرّ أى قيلة شقوا بطنه وبقروا قره أى قيلته ، ويدخلون أيديهم فى دبر الرجال وفى فروج النساء ، وقد كانت المرأة تضع الطين على قبلها ودبرها سترا لعورتها فيكشفونه ... ومنهم من مات جوعا وعطشا وبردا وحرا ، وذلك بعد ماشرب بعضهم بول بعض ، وما كفى جور العربان ، بل زاد عليهم جور أهل معان ، غضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم عذاب النيران » .

ووصلت هذه الأنباء إلى دمشق ، وتكتمها المتسلم ، ولكنها تسربت إلى الناس فهاجوا وماجوا وهجموا على المتسلم بالسراى ورجموه بالحجارة ، وخرجت منهم جموع تحمل مؤنا وثيابا ونعالا لمن بقى حيا من حجيج بيت الله الحرام ، وتبرع الشيخ ظاهر العمر — صاحب طبرية — بافتداء العلم النبوى والمحمل الشريف من العربان بقدر من المال .

ونختم هذا الحديث عن قافلة الحج الشامى بذكر التغيرات التى دخلت على بعض إجراءات الحج فى القرن التاسع عشر ، منها التحول إلى استخدام البحر الأحمر ، وخاصة حين حلت — ابتداء من سنة ١٨٥٨ — السفن البخارية محل السفن الشراعية فى نقل الحجاج بين السويس وجدة ، ثم جاء إنشاء الخط الحديدى بين الاسكندرية والقاهرة والسويس ثم شق قناة السويس فزاد استخدام طريق البحر الأحمر ، فكان الحجاج الآتون من تركيا أو شمالها يفضلون أن يأتوا بحرا إلى بيروت أو إلى الأسكندرية ، وآثر الحجاج الإيرانيون استخدام طريق خليج البصرة (الخليج الفارسى) إلى جدة . ولكن كان أعظم انقلاب فى الحج هو إنشاء سكة حديد الحجاز فى سنة ١٩٠٨ ، فبطل طريق القوافل تماما .

---

(١) ص ٢٠٤ وما بعدها .

ومن التغيرات التي حدثت أيضا أنه ابتداء من سنة ١٨٥٩ صرف النظر عن إرسال قافلة الجردة اكتفاء بما يحمله الحجاج معهم من مؤن. ثم قرّ الرأي على أن ترسل حكومة دمشق قوة عسكرية من ٣٠٠ فارس ليخرجوا لحراسة الأهالي الذين يودون الخروج لملاقاة ذويهم من الحجاج حاملين لهم ما يلزمهم من مؤن ، واستمر هذا الإجراء قائما حتى أنشىء الخط الحديدي فلم يعد ثمة مبرر لذلك .

والمرة الأولى — في سنة ١٨٥٣ — نجحت الحكومة العثمانية في وضع قافلة الحج تحت الحجر الصحي في خان دنون على بعد خمس ساعات من دمشق .

أما إمارة الحج فقد بقيت لوالي دمشق إلى سنة ١٨٦٦ ، حين رأت الدولة أن غياب الوالي عن مقر ولايته مصحوبا بعدد كبير من جند الولاية بضعة أشهر من كل عام يؤدي إلى اضطراب الأمن في المدينة ، فقررت الدولة الفصل بين منصبي والي الشام وأمير الحج وعينت قائد الجندرمة أميرا أو محافظا للحج . وكان قائد الجندرمة يختار عادة من الضباط الأكراد من بيوت معينة(١) .

* * *

هذا هو البديري الحلاق ، وهذا كتابه « حوادث دمشق اليومية » .

وإن لي مع المؤلف وكتابه لقصة طويلة ، تبدأ من سنة ١٩٤٦ ، حين انتدبت لتدريس تاريخ العرب الحديث لطلاب كلية الآداب بالجامعة السورية (جامعة دمشق) وكانت قد أنشئت في ذلك العام . والحق أن جامعة دمشق لها — بين الجامعات العربية — فضل السبق إلى العناية بتدريس تاريخ العرب الحديث . وتوفرت على تدريس هذه المادة ثلاث سنوات متوالية ، حفيّا بها وبالنتائج التي أخذت تتكشف لي ولطلابي فيها .

وقد اتجهت منذ البداية إلى أن أتعرف على المصادر الأصلية التي ينبغي أن نستمد منها مادة التاريخ ، فأقبلت على البحث عنها في مظانها ، وكان مخطوط (حوادث دمشق اليومية) أحد هذه المصادر التي اهتديت إليها في المكتبة الظاهرية بدمشق ، فأقبلت على قراءته والإفادة منه ، وقدّرت أهميته فعزمت على نشره .

(1) Tresse. op. cit. p. 73.

والحق أنى لم أكن أول من عرف البديرى وكتابه وقدّر قيمته، فقد سبقنى إلى ذلك كثيرون :

فالمرحوم الأستاذ محمد كرد على ذكره فى قائمة المراجع التى رجع إليها فى كتابه (خطط الشام) ونقل منه فقرات .

وكتب عنـــه الأستاذ عمر رضا كحالة أمين المكتبة الظاهرية تعريفا بمجلة المجمع العلمى العربى بدمشق(١) .

وعرف (حوادث دمشق اليومية) صديقنا الدكتور إبراهيم الكيلانى الأستاذ المحاضر بجامعة دمشق ، واعتمد عليه فى بحثه الموجز عن أسعد باشا العظم الذى نشره فى كتابه (عبقريات شامية) .

وعرفه أيضا صديقنا الدكتور صلاح الدين المنجد ، وذكره فى قائمة مراجع العصر العثمانى فى سورية التى أوردها فى صدر كتابه (ولاة دمشق فى العهد العثمانى) وهو الكتاب الذى نشر فيه مخطوطين صغيرين عن باشوات دمشق وقضاتها ، الأول لمحمد بن جمعة المقار والآخر لرسلان بن يحيى القارى . كما أفاد منه الدكتور المنجد ونقل عنه فى بحثه المنشور عن قصر أسعد باشا العظم .

وعرف (حوادث دمشق اليومية) أيضا أحد طلاب التاريخ بجامعة دمشق — السيد عبد الغنى العطيش — وقدم عنه بحثا للجامعة

وعرف الكتاب وقدّر قيمته الأستاذ الأمير جعفر الحسنى عضو المجمع العلمى العربى بدمشق وأمين سره ، وبدأ — فيما أعلم — فى تحقيق الكتاب فى سنة ١٩٥٤ ثم توقف .

* * *

وعدت إلى القاهرة فى سنة ١٩٤٩ ، وتابعت تدريس تاريخ العرب الحديث فى جامعة القاهرة ثم فى جامعة عين شمس ، وعدت إلى البديرى ، وأقبلت على تحقيق مخطوطه بالضبط والشرح والتعليق والمقارنة ، وأمضيت فى ذلك زمنا ، ثم شغلنى عنه ما يشغل الإنسان عادة من شئون الحياة والدرس . ثم كان الحدث العربى — بل الدولى — الخطير ، قيام الجمهورية العربية المتحدة ، فرأيت أن خير تحية أوجهها إلى

---

(١) المجلد العشرون . الجزء السابع والثامن (تموز وآب ١٩٤٥) ص ٣٧٤ — ٣٨٠

موطنى العربى الكبير أن أنشر فى القاهرة هذا الكتاب الذى يؤرخ لدمشق ويصف المجتمع فيها فى سنوات من القرن الثامن عشر . وفى خلال ذلك علمت بوجود نسخة من المخطوط فى الخزانة التيمورية بدار الكتب بالقاهرة ، فأقبلت على مقارنتها بنسخة الظاهرية[1] . ثم علمت بوجود النسخة الأصلية لتنقيح القاسمى للحوادث فى مكتبة الأسرة القاسمية بدمشق ، فطلبت إلى صديقى الأستاذ أبو الفرج العش محافظ المتحف الوطنى بدمشق أن يراجعها ، فتفضل مشكورا بمراجعتها ، وخرجنا من هذه المراجعة بأنها لاتختلف عن النسخ الأخرى ، كما انتهينا من المراجعات التى أجريناها إلى عدم العثور على النسخة الأصلية من مخطوط البديرى قبل أن تتناوله يد القاسمى بالتنقيح . ونشطت لإكمال العمل ، حتى اتخذ الصورة التى يسرنى أن أقدمها اليوم .

* * *

وقد شاركنى فى إخراج هذا الكتاب أصدقاء كثيرون لا أحب أن تفوتنى هنا فرصة التنويه بفضلهم : فصديقى الأستاذ أبو الفرج العش صحب البديرى ومخطوطه معى منذ كان — أى صديقى أبو الفرج — يطلب العلم فى جامعة دمشق حتى اليوم . فقد أعاننى على نسخ المخطوط من المكتبة الظاهرية وتحمس لنشره ، واشترك معى فى كثير من الشروح والتحقيقات ، وقام فى دمشق باتصالات كنت أقصر عن القيام بها وأنا بالقاهرة ، فأنا مدين له بالشىء الكثير ، ومهما أفعل فلن أستطيع أن أفيه حقه من الثناء والتقدير .

كما أقدم الشكر الجزيل للسادة أعضاء أسرة القاسمى بدمشق ، لاهتمامهم بنشر الكتاب الذى قام بتهذيبه جدهم الشيخ محمد سعيد القاسمى ، وللمساعدت التى تفضلوا بتقديمها ، وأخص بالذكر منهم الأستاذ ظافر القاسمى المحامى ، والسيد محمد سعيد القاسمى القيم على مكتبة الأسرة .

وأشكر الصديق الدكتور سليم عادل عبد الحق المدير العام للآثار والمتاحف بدمشق لتفضله بإعارتى بعض الصور لقصر أسعد باشا العظم بدمشق .

وقد شارك صديقاى الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور المدرس بجامعة القاهرة والأستاذ عبد القادر طليمات فى مراجعة تجارب الكتاب . فأقدم لهما جزيل شكرى .

---

(١) فى المكتبة الظاهرية نسختان من المخطوط ولكنهما تتشابهان ، فاعتبرناهما نسخة واحدة ، ونبهنا فى حواشى الكتاب إلى مابينها وبين نسخة التيمورية من اختلاف ، لايعدو إسقاط أو زيادة بعض الكلمات أو العبارات .

وكنت أود أن تتاح لى فرصة تقديم هذا الكتاب للعالم الأستاذ خليل مردم بك رئيس المجمع العلمى العربى بدمشق تقديرا له على ما قدم من تشجيع لنشر الكتاب وعلى ما أبدى من استعداد لطبعه على نفقة المجمع ، فإذا كان موت الأستاذ أخيرا قد حال دون تحقيق أمنيتى ، فالشكر أقدمه لزملائه الأفاضل رجال هذا المجمع .

أما أستاذى السيد محمد شفيق غربال فإن مابذلته فى تحقيق هذا الكتاب إنما هو أثر من فضله على الدراسات التاريخية بعامة وما يتعلق منها بتاريخ الأمة العربية بخاصة ، وقد تم نشر هذا الكتاب فى مطبوعات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية التى تعتز برياسته بتزكية منه لمجلس إدارة الجمعية ، فالشكر خالصاً أقدمه لسيادته ولزملائى المحترمين أعضاء المجلس .

* * *

وبعد فهذا كتاب فى تاريخ دمشق تضافرت على إخراجه ثلاثة جهود تنتمى إلى ثلاثة قرون متوالية فى دمشق والقاهرة ، ألفه حلاق دمشقى فى القرن الثامن عشر ، وتناوله بالتنقيح والتهذيب عالم من علماء دمشق فى القرن التاسع عشر ، ثم وقف على تحقيقه ونشره للناس مشتغل بالتاريخ فى القاهرة فى القرن العشرين .

٨ / ٨ / ١٩٥٩ أحمد عزت عبد الكريم

تنقيح العالم الفاضل الأديب الكامل

الشيخ محمد سعيد القاسمي

لحوادث دمشق اليومية

الواقعة من سنة ١١٥٤ إلى سنة ١١٧٦

التي جمعها الشيخ أحمد البديري

الحلاق الدمشقي

رحمهما الله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

حمداً لمن تفرّد بالبقاء ، وتوحّد بالربوبية والكبرياء ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد الأنبياء ، وعلى آله الأصفياء وأصحابه الأتقياء .

أما بعد ، فإن حوادث دمشق الشام اليومية التى صدر غالبها فى أيام الوزيرين العظيمين : سليمان باشا وأسعد باشا اللذين هما من أعيان وزراء بنى العظم العظام ، جمعها الفاضل شهاب الدين أحمد بن بدير البديرى الشهير بالحلاق ، من سنة ١١٥٤ إلى سنة ١١٧٦[١] قد اشتملت على غرائب وعجائب وأهوال ، ولبساطة مؤلفها كتبها بلسان عامى ، ثم أطنب بزيادات كلمات وأدعية مسجعة يملّ سامعها ويسأم قارؤها ، فحذفت القشر من هذه الحوادث ووضعت اللباب ، وهذبتها على حسب[٢] الاستطاعة بالصواب ، وإليه تعالى المرجع والمآب ، آمين .

---

(١) توافق هذه الفترة من سنة ١٧٤١/١٧٤٢ إلى سنة ١٧٦٢/١٧٦٣ ميلادية . ولكن الواقع إن المؤلف وقف بحوادثه عند سنة ١١٧٥ هـ (١٧٦١ — ١٧٦٢) كما نوّه بذلك القاسمى منقح المخطوطة فى آخرها .

(٢) فى نسخة التيمورية : سبيل .

سنة ١١٥٤

قال البديري رحمه الله ما معناه : وفى سنه ١١٥٤[1] كان والياً بالشام الحاج على باشا من الأتراك[2] وذلك بعد مضى إحدى عشرة سنة من جلوس مولانا السلطان محمود خان[3] بن السلطان مصطفى خان ، أيّد الله عرش هذه الدولة إلى آخر الدوران .

جرى على لسان العامة أنه سيحدث بدمشق الشام زلازل عظيمة تهدم بسببها أماكن كثيرة ، وأن الرجال ستقلب نساء ، وأن أنهار الشام تجرى طعاما . وتحدثوا فى حوادث كثيرة من مثل هذه الخرافات ، وصاروا يتداولونها فيما بينهم ، ولم يحدث شىء فيما بعد من هذه السنة .

وكانت هذه السنة سنة غلاء فى الأقوات وغيرها ، حتى بلغت أوقية السمن بخمسة مصارى ونصف[4] ، ورطل الأرز بستة عشر

---

(١) يوافق أولها ١٩ مارس ١٧٤١ .

(٢) هو على باشا بن عبدى باشا ، وقد نقل من بلغراد إلى دمشق والياً ، ومكث ثمانية أشهر من أواخر شعبان ١١٥٣ إلى أواخر ربيع الثانى ١١٥٤ (١٧٤٠ — ١٧٤١ م) [انظر محمد بن جمعة المقار : الباشات والقضاة ، نشرة الدكتور صلاح المنجد ص ٦٨] وذكره القارى [وزراء دمشق . نشرة المنجد أيضاً ص ٧٨] باسم على باشا أبو قيلى . وقال إنه كان حاكما عادلا كريما يحب الفقراء والمساكين . أما الأمير حيدر الشهابى (تاريخ الأمراء الشهابيين ج ١ ص ٣١) فذكره باسم : على باشا أبو ريشة .

(٣) حكم السلطان محمود الأول من سنة ١٧٣٠ إلى سنة ١٧٥٤ .

(٤) مصارى جمع مصرية وهى عملة من فضة رخصت الحكومة العثمانية لحكومة مصر بسكها بدار السكّ بالقلعة ويطلق عليها أحيانا البارة ، والقرش أربعون بارة ، ولازال أهل دمشق يسمون النقود مصارى.

مصرية، ومد الشعير بثمان مصارى ، والخبز الأبيض باثنى عشر مصرية ، ورطل الكعك بأربعة عشر مصرية والخبز الأسمر رطله بخمسة مصارى .

وكان فى العام الذى قبله الحاكم بدمشق الشام عثمان باشا المحصل[1] ، أخرج الأورطة إلى القبيقول[2] من قلعة الشام . فمنهم من نفاه ، ومنهم من قتله ، والذى بقى كرّ له كرر عمامته[3] بعد شهادة جماعة من الناس بأنه غيرّ زَرَبَه[4] ، ولا وقع منه فساد ، وشتت شملهم فى جميع البلاد[5] ،

---

(١) فى النسخة التيمورية يكتب اسمه « المحصر » بالراء ، والصحيح ما أثبتناه هنا (المحصل) . انظر القار ص ٦٢ والأمير حيدر ج ١ ص ٣١ ، ٣٢ .
وسيشير البديرى (فى حوادث سنة ١١٦٤) إلى وفاة عثمان باشا المحصل عند ما كان حاكما على جدة .

(٢) القبيقول تحريف للتركية قبوقول ، ومعناها عبيد الباب ويقصد به جند السلطان أو حرسه . والكتاب حافل بأخبار النزاع بين القبوقول والانكشارية ، أى بين جنود الدولة والجنود المحلية . وسيذكر البديرى بعد ذلك فى حوادث سنة ١١٥٩ إعادة القبوقول إلى دمشق فى عهد أسعد باشا العظم .

(٣) أى حلّ له عمامته ، علامة على أنه أصبح لا ينتمى لهذا الأوجاق ، وجاء فى رواية للقار عبارة تمشى مع عبارة البديرى ، قال القار (ص ٦٢) : والذى استقام فى دمشق غيّر زيّه وصار من جملة الرعايا .

(٤) زربه يعنى (شقاوته) أى ترك الشقاوة . وكان (الفتوات) يطلق عليهم بالشام (زرباوات) .

(٥) تتفق رواية البديرى عن حادث تشتيت القبيقول من دمشق مع رواية محمد ابن جمعة القار ، قال ص (٦٨) : « وفيها — أى فى سنة ١١٥٥ — وقعت الشواشر بين القبى قول والأينكجرية (الانكشارية) وسكّرت (بمعنى أقفلت) دمشق ، وتفرقت القبى قول فى الحارات ، وعملوا المتاريس ، وسكّروا البوابات ، لئلا أحد =

وكان ذلك إصلاحا . وقد قل الشرّ من دمشق الشام واصطلحت أحوال الناس .

وكان مجيء الجوخدار[1] من الحج مبشرا في اليوم السابع والعشرين

= يهجم عليهم ... وفى أثناء هذا الأمر جاءت أودتين (أى أورطتان) من الدولة العلية، فلما دخلوا وقع منهم مفاسد ، وشاركوا أهل الحرف ، وصار منهم التعدى والفساد ، فوقع رأى ساداتنا العلماء والأكابر وحاكم دمشق بإخراجهم إلى جهنم وبئس المصير . وكان غالب القبي قول حَوَش (وقد ظنها الناشر : وحوش ، وكتبها هكذا ، ولكنها (حَوَش) بمعنى أراذل أو أسافل) ، ووقع منهم مفاسد وأمور تقشعر منها الأبدان ، وبقية القبي قول هرب وسافر . والذى استقام فى دمشق غيّر زيه وصار من جملة الرعايا . وكان سبب هذا الأمر دعوة شيخنا وأستاذنا قطب العارفين الوارث المحمدى سيدى الشيخ عبد الغنى النابلسى قدس الله سره العزيز ، فسرت الدعوة عليهم فى سائر البلاد فمزقهم الله كل ممزق» . وقد توفى الشيخ عبدالغنى النابلسى أكبر تلامذة الصوفى الكبير الشيخ محيى الدين بن عربى فى سنة ١١٤٣ (١٧٣٠ — ١٧٣١) أى قبل وقوع هذه الفتنة بعشر سنوات ، وقد شهد كثيراً منها فى أواخر أيامه فدعا عليهم ، وكان لأهل الشام فيه اعتقاد كبير . انظر ترجمته فى سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر للمرادى ج ٣ ص ٣٠ — ٣٨ .

[1] جوخدار من التركية چوقدار أو چوقه دار ، والمعنى الأصلى فتى من فتيان القصر السلطانى ، ثم أصبحت الكلمة تطلق على رسول السلطان أو الوالى .

انظر: Nicolas Turc : Chronique d'Egypte1798 — 1804. p. 297 نشرة ڤيت.
Haim Nahoum : Recueil des firmans impériaux ottomans. p. 358.

والجوخدار هنا هو الرسول الذى يرسله أمير الحج إلى دمشق ليبشر الناس بعودة الحجاج قبل وصولهم ببضعة أيام ، وقد جرت العادة أن ينفصل الجوخدار عن قافلة الحج فى تبوك ، فيصل إلى دمشق قبل الحجاج بسبعة أيام . وقد ذكر تريس Tresse : Le pélérinage syrien aux villes saintes de l'Islam, p. 250 — 252. نقلا عن كورانسيز قنصل فرنسا بحلب فى أوائل القرن التاسع عشر Corancez: Histoire des Wahhabis p.187. أن الجوخدار كان يحمل كتابا من =

من شهر المحرم . ودخل الكَتّاب[1] تلك السنة ليلة الأربعاء ثالث ليلة من شهر صفر . وكان الكتّاب [١٢] باكر بشة الحمامى ومعه جماعة . ودخول الحج إلى الشام كان نهار السبت ثانى يوم بعد مجيء الكتاب ، ولم يزل ينجرّ وينسحب خمسة أيام حتى دخل المحمل . وذكر الحجاج أنهم داروا فى هذه السنة دورتين بين الحرمين ، وصار عليهم غلاء وبرد كثير ، وقتل ابن مضيان شيخ عرب بين الحرمين بعد قتال وقع بينهم وبين والى الشام أمير الحج[2] .

= شريف مكة إلى السلطان العثمانى يبشره فيه بسلامة الحاج ، فيقدمه إلى السلطان وقت الاحتفال بمولد النبي فى جامع السلطان أحمد بالقسطنطينية ، ولهذا دعاه كورانسيز (مشردهجى) « le muz degy bachi » أى حامل البشرى . وقد جعل تريس الجوخدار والكتّاب شخصا واحداً ، فقال إن الجوخدار يحمل معه رسائل الحجاج الدمشقيين إلى ذويهم ، لهذا كان الجوخدار يقابل فى دمشق بأعظم مجالى الفرح وما أن يعلن الجوخدار اقتراب الحاج حتى يهرع أهلوهم للاقاتهم يحملون إليهم مؤناً وملابس .

(١) الكتّاب بفتح الكاف وتشديد التاء هو الرجل الذى يسبق الحجاج إلى دمشق ليحمل بريدهم إلى ذويهم .

(٢) كان أهم واجبات والى الشام بصفته أميرا للحاج الشامى أن يدفع عنهم اعتداءات القبائل العربية التى تنوى بهم شراً . وقد وصف القار الحرب التى دارت بين على باشا والعرب ، قال (ص ٦٨) : « وجاء [الباشا] من طريق لم يكن أحد يعرفه ، لأن عرب حرب كانوا رابطين للحاج ، ودخل الباشا والحج إلى المدينة المنورة من ناحية جبل أحد ، فزار حضرة الرسول عليه أفضل الصلاة وأتم السلام ، وخرج من المدينة إلى أن وصل إلى وادى العقيق ، فخرج عليه العرب من الجبال ، فقام هو وجماعته وجمع الحجاج وقاتلوهم ، فقتل من العرب جماعات كثيرة ، وتجرح جماعة لا تحصى ، وانتصر الباشا والحاج عليهم وانهزموا مخذولين بإذن الله سبحانه وتعالى وبيركة الرسول عليه الصلاة والسلام . » وقد حفلت مصادر ذلك العهد بأنباء اعتداءات العربان على قوافل الحج .

ثم أقام مدة بعد مجيئه من الحج ، والناس فى أمن وأمان ثم عزل . ووجهت الدولة العلية الشام على سليمان باشا بن العظم[1] ، فأرسل سليمان باشا قبل دخوله للشام سلحداره[2] زوج بنت الوفائى متسلما[3] وبقى نحو شهرين لم يدخل الشام ، ثم أتى ونزل على البقاع[4] ، وأراد محاصرة جبل الدروز[5] ، فصالحوه بمال عظيم حتى أرضوه[6] . ودخل

---

(١) هذه هى الولاية الثانية لسليمان باشا العظم على دمشق ، الأولى من ١١٤٦ إلى ١١٥١ (١٧٣٣ — ١٧٣٨)منتقلا إليها من صيدا، والولاية الثانية من ١١٥٤ عائداً إليها من مصر إلى أن مات فى طبرية سنة ١١٥٧ (١٧٤١ — ١٧٤٤) ، ثم خلفه على دمشق ابن أخيه إسماعيل باشا وهو أسعد باشا العظم الذى مكث والياً على الشام ١٤ سنة .

(٢) السلحدار حامل السلاح أو الموظف الذى يعهد إليه بالإشراف على دار السلاح . وكان من المناصب الهامة فى عهد سلاطين المماليك أيضاً .

(٣) المتسلم فى السلك الإدارى العثمانى بمثابة المتصرف على إحدى الصناجق ، وقد جرت العادة أن يبعث الباشا أحد رجاله (ليتسلم) إدارة الباشوية قبل وصوله ، ويدعى فى هذه الحالة بالمتسلم .

(٤) سهل البقاع أخصب أراضى لبنان ، ويقع إلى الشرق من جبال لبنان ، بين الشام والجبل .

(٥) لا يقصد بجبل الدروز هنا جبل الدروز الذى هو جزء من سورية ، ويطلق عليه الآن اسم (جبل العرب) وإنما يقصد به جبل لبنان ، وكان أكثر أهله فى ذلك الوقت من الدروز .

(٦) يشير البديرى إلى القتال بين والى الشام والشهابيين أمراء الدروز ، وقد خلف الأمراء الشهابيون الأمراء المعنيين فى حكم جبل لبنان، وكان أميرهم فى ذلك الوقت الأمير ملحم الشهابى ، وقد ارتفع شأنه — على حد تعبير الأمير حيدر مؤرخ لبنان فى عهد الشهابيين ج١ ص ٣٠ — « وسرت هيبته فى دياره وقويت به عزيمة أهل بلاده وأمصاره ، فطفقوا يمدون الأيدى على غير ديار [أى إلى ديار أخرى] =

الشام نهار الخميس ثانى عشر جمادى الثانية فى هذه السنة المذكورة وهى سنة ١١٥٤ . وبعد ثلاثة أيام من دخوله صلب ثلاثة أشقياء من العرب ، وبعد ذلك أبقى كل شيء على حاله ولم يحرك ساكنا .

وكانت السنة التى دخل فيها بمظهر اسمين من أسمائه تعالى : وهما قيوم حفيظ لسنة ١١٥٤ ، نظمها الشيخ عبد الرحمن البهلول[1] أحد أدباء الشام ببيت ، فقال :

بهذا العام فيهم قد تجلى .. مع التاريخ قيوم حفيظ
١٥٦ ٩٩٨[2]

= ويثقلون على أهل الجوار » ، فلما عاثوا فى قرى البقاع خرج إليهم باشا الشام وحاصرهم حتى صالحوه على مال عظيم قدّره المؤرخ اللبنانى بخمسين ألف قرش . ويلاحظ أن الأمير حيدر ذكر نبأ ذلك القتال فى حوادث سنة ١١٤٤ بينما ذكره البديرى فى حوادث سنة ١١٥٤ . وقد أشار الشدياق (أخبار الأعيان فى جبل لبنان ص ٣٦٩) إلى النزاع بين سليمان باشا والأمير ملحم الشهابى ، وقد « اعتز جداً وتعاظم أهل بلاده وطفقوا يمدّون أيديهم إلى ما يجاور بلادهم ويخرقون فى البقاع » .

(١) هو السيد محمد عبد الرحمن بن محمد الشاكر ويكنى بالبهلول ، كان من تلامذة الشيخ عبد الغنى النابلسى ، وقد لقبه النابلسى (شيخ الأدب فى الشام) ، إذ كانت له يد فى النظم ، خصوصاً فن التاريخ . وقد مدح البهلول أستاذه النابلسى بقصيدة طويلة ، كل شطر بيت منها يحمل تاريخاً واحداً ، وهو سنة ١١٣٦ هجرية (انظر القصيدة فى كتاب (لبنان فى عهد الأمراء الشهابيين للأمير حيدر الشهابى . القسم الأول ص ٢٢ — ٢٨) . ولكن البهلول عانى فى حياته كثيراً ، حتى إنه — فيما روى المرادى — حج ماشياً على قدميه فى الذهاب وفى الإياب ، وقد ترجم له المرادى فى سلك الدرر ج ٢ ص ٣١٠ — ٣١٧ وأورد طائفة من شعره . وسيذكر البديرى وفاة الشاعر البهلول فيما يلى من كتابه فى حوادث سنة ١١٦٣ (١٧٤٩ — ١٧٥٠) .

(٢) جاء هذان الرقمان فى نسخة المكتبة التيمورية ، ومجموعهما ١١٥٤ وهى السنة التى جاء فيها سليمان باشا العظم إلى دمشق .

وفى هذه السنة كان صوم رمضان الجمعة ، ثم ثبت فى آخره أن الشهر كان أوله الخميس ، وخرج المحمل الشريف مع الباشا فى منتصف شوال نهار السبت ، وثانى يوم جاء الحج الحلبى ، ومعهم من العجم نحو الثلاثمئة . وبعد أربعة أيام خرج الحج ، وبقيت شرذمة من الحاج لأجل دفتر دار السلطان محمد خان ، فخرج ثانى يوم الخميس ، وخروج الحاج كان فى كانون الأول[1] والبرد فى غاية الشده ، وبقى الصقيع والجليد فى الأرض نحوا من خمسة وعشرين يوما ، والشمس طالعة والجليد لايذوب ، حتى قيل إنه ماروى مثلها ، فقد يبست الأشجار ، وعدمت الثمار على الخصوص الليمون والكباد والنارنج ، حتى بيع رطل الفحم بالشام بثلاثة مصارى . وأخبرت المزيرباتية[2] بعد رجوعهم أنه

---

(١) شهر ديسمبر .

(٢) المزيرباتية نسبة إلى المزيريب وهى قرية من قرى حوران تبعد نحو مائة كيلو متر إلى الجنوب الغربى من دمشق . وكانت محطة هامة تنزل بها قافلة الحاج الشامى قبل أن تبدأ المرحلة الأولى فى طريقها إلى الحجاز . وقد جرت العادة أن يمكث بها الحجاج بضعة أيام ليتخذوا الترتيبات النهائية للتموين وغيره وينتظم الجند المرافقون لأمير الحاج . ولهذا كانت المزيريب فى موسم الحج سوقاً تجارية نافقة . والمزيرباتية هم الأهالى من تجار وغيرهم الذين عادوا من المزيريب بعد أن ودّعوا الحجاج وباعوهم ما احتاجوا إليه .

وفى الأرجوزة التى نقلها تريس (Tresse: op. cit. p.212.) عن أحد أهالى حىّ الميدان وكان يتغنى بهـا الحجاج هذا المقطع عن المزيريب ، وهى المرحلة الأولى فى طريق الحج :

وصلنـــا المزيريب ∴ وكتبنا المكاتيب
وفى قلبى تلهيب ∴ لك يا نبينـــا

بيع رطل الفحم كل ثلاثة أرطال بقرش .

وفى هذه السنة خرجت [٢ب] الجردة[1] نهار السبت السابع والعشرين من ذى القعدة ، وصار عليها سردار يعقوب باشا المتولى على مدينة حلب ، وقد ذكر له سيرة مرضية وعدل بالرعية .

قال الشيخ أحمد البديرى : وقد قلت فى هذا العام ، وهو عام ١١٥٤ هذا المواليا فى حق من أظهر الكذب والأراجيف التى قدمنا ذكرها ، حيث قلت :

---

(١) الجردة هى القافلة التى تحمل المؤن إلى قافلة الحاج وهى فى طريق عودتها من الحجاز ، وكان يمد قافلة الجردة ويقودها إلى الحجاز أحد باشوات حلب أو طرابلس أو صيدا ، وإذا آثر الحجاج فى طريق عودتهم أن يسلكوا الدرب الغزاوى على الدرب السلطانى (وهو أقصر من الأول ولكن أقل أمناً) إيثاراً للسلامة من اعتداءات الأعراب كان أهل غزة يمدون جردة محملة بالمؤن ويخرج بها حاكم غزة لملاقاة الحاج فى معان . وقد ألحقت الدولة ميناء اللاذقية بباشوية طرابلس ليستعين الباشا بإيراداتها فى إعداد الجردة التى يقودها ، وكانت مهمات الجردة تتألف من بقسماط وزيت وأرز وشمير وعليق وحبال وملابس مما ينفع الحجاج ، خوفاً من أن يكون ما عندهم منها قد نفد . وقد قدر فولنى أن الجردة كانت تكلف الباشا ٧٥٠ كيساً (والكيس خمسة جنيهات) وكان باشا طرابلس بوصفه قائداً للجردة فى أكثر الأحيان — يقيم أربعة أشهر فى طرابلس ومثلها فى اللاذقية ليجمع إيرادها ، أما الأشهر الأربعة الباقية من السنة فيقضيها فى مهمة الجردة ذهاباً وإياباً . انظر : فتح الله بن أنطون صائغ : المقترب فى حوادث الحضر والعرب ص٣٢ — ٣٣ مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس و Volnéy : Voyage en Egypte et en Syrie p.p.243, 245,278. وقد ذكر Tresse (ص ٢٤٦) أن قافلة الجردة كانت تخرج من دمشق فى يوم ١٤ ذى الحجة وتقابل قافلة الحج فى طريق عودتها فى هدية على بعد ٢٢ يوماً من دمشق و ٣ أيام من المدينة المنورة . وفى اليومين اللذين =

من كثر كذب الروافض دبّ فينا الشيب
ما يعلموا الكذب أنه من شروط العيب

من جهة الزلزلة قالوا كلام الريب
هم الملاعين صـــاروا يعلموا بالغيب

[١٣] غـــيره

فى ليلة السبت خامس عشر فى محرم
مالو لقول الروافض زور ومحرّم

من جهة الزلزلة النـــوم تحرم
من نام تحت السقوفة يا أخى بالليل
شم الهوى بين أطرافه بيتحرم

غـــيره

ياناس كذب الروافض شاع فى الأقطار
وصيّرونا نســـا نقعد بوسط الدار

= يقيمهما الحجاج والجردة فى هدية يكون الحجاج ضيوفاً على قافلة الجردة ، ثم تعود القافلتان معاً إلى دمشق ، على أن تسبق قافلة الجردة قافلة الحج بضعة أيام ، وتستغرق قافلة الجردة فى رحلتها فى الذهاب والإياب خمسين يوماً . وأضاف Tresse أن باشا طرابلس (أو الجردجى باشا) كان يستغل هذه المهمة فيمعن فى فرض المغارم على التجار الفرنسيين ، وتدخلت السفارة الفرنسية فى القسطنطينية ، فأصدر السلطان فرمانا للباشا والقاضى بمنع ذلك .

ينزل عليهم غضب واحد أحد قهّار

روّعوا الخلق فى هل زلزلة ياناس

هو حمير اليهود جوا سقر فى النار

غـــيره

بثبوت إن الروافض يوم الحشر يا أخيار

حمير للركب للخاخان والجوقار[1]

راموا دسيسة بجلّق[2] عمت الاقطار

فى ليلة السبت قالوا الزلزلة بتصير

هل يعلم الغيب إلا الواحد القهّار

غـــيره

فى ليلة السبت قالوا الزلزلة بتصير

والطفل من عجبها بين الورى بتحير

أسألك يارب بمن جا للأنام بشير

تمسح روافض أهل الشام يا معبود

واحرق آباهم وغوّر[3] كورهم[4] والبير

---

(١) لعله يقصد الخاقان والجوقدار .

(٢) جلق هى دمشق .

(٣) لعله يقصد كور إسماعيل قائد القبو قول ، وقد قتل فى الفتنة التى قامت فى تلك السنة بين القبو قول والإنكشارية وأدت إلى طرد القبو قول من دمشق وقد أشار إليها البديرى والمقار (نشرة النجد ص ٦٨) .

(٤) لعلها : فى .

قد قالت الناس كذبة ما سمعناها
أنهار الشام يا أخى ينقع ماءها
تجرى طعام بدال الماء مجراها
فاختية[١] ورز أصفر ولحم سمين
قوموا انظروا للكبب والسمن غطّاها

غيره

سمعت واحد يقول يا أخى قساطلكم
هى عاطلة تا قوم[٢] معكم أعاونكم
لأن أدهان ها الألوان[٣] تساعدكم
وتخبوها لأيام الغلا والقحط
لايحبسوها الكبب فى دربها عنكم

غيره

فى سنة أربع مع الخمسين يا سادات
سمعت أخبار ما سمعت[٤] بها عادات[٥]

(١) لون من ألوان الطعام بالشام .
(٢) أى حتى أقوم.
(٣) ها الزلزلة وها الألوان أى هذه الزلزلة وهذه الألوان .
(٤) صارت : فى النسخة التيمورية.
(٥) لعله يقصد أهل عاد .

زادوا باسرافهم ما سمعوا الكلمات

الكل لله والأعمال بالنيات

غيره

أستغفر الله ربى باعث الأرزاق

واحد مهيمن تجد كلها إطلاق

وامدح المصطفى هو صفوة الخلاق

[٣ ب] يغفر لكم ومعكم أحمد الحلاق

سنة ١١٥٥

ثم دخلت سنة ١١٥٥(١) وأولها يوم الخميس وهو أول المحرم. وبعد خمسة أيام كان أول آذار(٢). وفى تلك الأيام ظهر كوكب وصار يطلع كل ليلة من جهة الشرق من نصف الليل إلى طلوع الفجر، وله ذنب طويل، ومكث أياما ثم غاب. وقد عمل بعضهم تاريخاً يتضمن تاريخاً لدخول هذه السنة وهى :

نحمد الله الذى أوهبنا حسن عام وحبانا بالكرم

هلّ هذا العام ياقوم انظروا لفظة التاريخ فألآ يغتنم

فاضرعوا لله فى إتمامه بنجاح إنكم خير أمم

وابشروا يا أمة الهادى الذى خصّه الله بفضل وحكم

(١) أولها يوافق ٨ مارس ١٧٤٢

(٢) شهر مارس.

فضل ربى عمّنا تكرمة ليس يحصى شكر هاتيك النعم
وكذا كل الورى قد عمهم لطفه سبحانه بارى النسم
وخصوصا عصبة الشام التى هى للأبدال مأوى ملتزم
كيف والسادات[1] قد حلّوابها سّرهم عمّ لسهل وأكم
فاشكروا الله على عام أتى أظهر التاريخ حفظا ونعم

وكان دخول جو قدار سليمان باشا الوزير ابن العظم سنة ١١٥٥ فى يوم السبت الواقع فى رابع وعشرين من شهر محرم من السنة المذكورة . وفى يوم الثلاثاء السابع والعشرين من المحرم أقبل كتّاب[2] الحج الشريف . وثارت فى اليوم المذكور ريح شديد يومين وليلتين قلعت أشجاراً كثيرة وهدمت أماكن لاتحصى . ووقع فرع عظيم من شجرة الخرنوبة التى فى الحضرة على رأس غلام مراهق فمات لوقته ورجلين آخرين فهشّمهم ، وسكن الريح بوقته .

وفى يوم الاثنين ثالث صفر من السنة المذكورة دخل الحاج الشامى إلى دمشق ، ودخل سليمان باشا العظم ثانى يوم . وكان صحبته يعقوب باشا سردار الجردة المنفصل عن حلب . وكان الحج فى تلك السنة بأمن وأمان ورخاء ورخص ، غير أن الباشا ذهب بين الحرمين من قبا وخرج من جبل عرفات من عند قبة النور ، وآب راجعاً من الطريق الذى جاء منه على باشا .

---

(١) السادات الأشراف أو السادة .

(٢) انظر فيما سبق ص ٧ حاشية رقم (١)

قال [البديرى] : وفى ذلك العام [٤١] تأخر مجىء الفرمان المقرر على سليمان باشا عظم زاده[1] ، فلغطت الأراذل والأسافل بالقول والفعل وأظهروا بدعا كثيرة من محض الحرام، ولازالوا على تلك الأحوال حتى جاء الفرمان ، وكان دخوله صبيحة رابع جمادى الثانية من السنة المذكورة ، وكان القاضى بالشام عبد الوهاب أفندى الملقب أبازاده .

وفى ذلك العام أمر فتحى أفندى ابن القلانسى الدفترى[2] فى تعمير طريق الصالحية . فقلب بلاطه وعمر صفته وأصلح حاله مع الناس .

---

(١) أى ابن العظم .

(٢) كان الدفترى أو الدفتردار من الشخصيات البارزة فى دمشق فى ذلك العهد وهو المشرف على حسابات الولاية ، والقلانسى تحريف للفلاقنسى نسبة إلى فلاقنس من أعمال حمص وقد اشتهر بالجرأة والإقدام ، وتولى النظارة على وقفى السليمانية ، وكانا من أهم الأوقاف بالشام ، وصاحب العلماء والأدباء والكتاب وأرباب الموسيق والمضحكين ومدحه الشعراء ، حتى إن أحد أدباء عصره وهو الشيخ سعيد السمان جمع مدائحه فى كتاب سماه : الروض النافح فيما ورد على الفتح من المدائح . وكان الدفترى نفسه يقرض الشعر ، وكانت له عصبة قوية ، فوضع أتباعه فى المناصب الهامة بالشام ، غير أنهم عرفوا بالفسق والفجور ، واستبد الدفتردار بالأمر وكثرت ثروته وعظم نفوذه ، حتى طغى وتجبر ، وجاهر بالمظالم ، وكان يحمى أصحاب الشر من رجال أو جاق الإنكشارية المحلية (اليرلية) الذى كان هو ينتمى إليه ، وقد عظم فسادهم ، « وكلهم — فيما يقول المرادى — ينطقون بلسان واحد كأنهم روح فى جسم واحد » ، حتى هزؤا بالباشا نفسه — وهو أسعد باشا العظم ، فاستصدر أمرا بقتله ، و « ضمن الدولة تركته بألف كيس » وخنق الدفترى فى دهليز الخزنة بسراى دمشق ، وأرسلت رأسه إلى القسطنطينية وصودرت أمواله للدولة ، وكذلك فعل أسعد باشا مع أتباع الدفترى . (المرادى : سلك الدرر ج٣ ص ٢٧٩ ومابعدها) . وسيتحدث البديرى بعد ذلك فى حوادث سنة ١١٥٩ =

وفى غرة رجب المبارك من السنة وهى سنة ١١٥٥ جاءتنا جارية[١] مباركة ، وكنا قد اشترينا لنا منزلا جديداً فى محلة التعديل ، وكنا فى ضيق فقلنا : لعل بقدومها يحصل لنا الفتح والفاتحة ، فسميناها صالحة ، جعلها الله تعالى فالحة.

وفى ٢٢ من جمادى الثانية عمل حضرة سليمان باشا العظم ديوانا ، وجمع فيه الأفندية والأغاوات ، وأخرج خطاً شريفاً[٢] بالعدل والتفتيش على المفسدين فى دمشق من الانكشارية ، وطلب رؤساء الميدان[٣] وهم الأغاوات للحضور ، فأبوا وأرسلوا له يسألونه ما يريد ، فأرسل يطلب منهم ستة عشر رجلا من الأشقياء الذين يسمونهم باصطلاحهم زرباوات ،[٤] فأرسلوا يقولون له : نحن لا نقدر على

= من مصرع فتحى الدفترى ويذكر سيئاته وحسناته . وقد قال يصف نفوذه فى أوائل حكم أسعد باشا العظم : «كان هو السلطان فى الشام وصاحب نفوذ الكلام وكلامه يقضى الأشغال والأمر مفوض لذى الجلال» .

(١) يقصد المؤلف أنه ولدت له بنت .

(٢) هو الفرمان السلطانى وعليه خط السلطان

(٣) حى الميدان من أقدم أحياء دمشق ، وكان فى أول الأمر بمثابة ضاحية لها تقع إلى الجنوب منها فى طريق الحج ، وكان معقل الانكشارية المحلية (اليرلية) وعرف بهذا الاسم نسبة إلى (ميدان الحصى) القديم وهو قريب منه . سوفاجيه : دمشق الشام ، لمحة تاريخية ص ٤٥

(٤) الزرباوات هم (الفتوات) فى الاصطلاح المصرى . انظر فيما سبق ص ٥

لإلقاء القبض عليهم فدونك وإياهم . فبالحال أزال عنهم كدكاتهم[١] ، ووجّهها على غيرهم وأعطى أسماءهم للدلّال ، وأمره أن ينادى فى شوارع الشام أن هؤلاء الستة عشر دمهم مهدور ولا جناح على من قتلهم وغيرهم فى أمن وأمان من سليمان باشا . ففرحت الناس أجمعين ، لأنهم كانوا من أعظم المفسدين. وثانى يوم قتلت الدالاتية[٢] رجلا أنكشاريا ،

---

(١) كدكات جمع عربى للكلمة التركية گدك (gedik) ومعناها الأصلى امتياز أو إعفاء ، ثم تطورت إلى معان شتى ، فهى تعنى أحياناً السند الذى يتسلم به الجندى راتبه ، وهى هنا بمعنى التمكين من مزاولة صناعة ما ، وكان يعدّ نوعا من الملكية يمكن التنازل عنه أو بيعه أو توارثه عند وفاة صاحبه . وإذا اراد مشتغل بحرفة أن يحصل على كدك وجب عليه أن يدفع مبلغاً من المال للحكومة بعد أن يثبت أنه يملك الأدوات التى يحتاج إليها فى عمله . والـگدك نوعان : نوع يسمح لصاحبه بأن يقوم بعمله أينما أراد ونوع آخر يقيد صاحبه بمكان معين

Gibb & Bowen. Islamic Society and the West Vol 1. part 1. p. 7 1, 282.

والأستاذ شفيق غربال : مصر عند مفرق الطرق ، ترتيب الديار المصرية كما شرحه حسين أفندى [مجلة كلية الآداب بالجامعة المصرية المجلد الرابع الجزء الأول — مايو ١٩٣٦ ص ٢٦ . وفى ٨ ذى الحجة ١٢٧٧ (١٨٦١) اصدرت الحكومة العثمانية قانونا من ٢١ مادة لتنظيم (الكدكات) . انظر : مجموعة التنظيمات العثمانية المنشورة باسم : الدستور . ترجمة من التركية إلى العربية نوفل أفندى نعمة الله نوفل المجلد الأول . بيروت ١٣٠١ ص ٩٤ — ٩٦ .

(٢) الدالاتية أو الدلاة كلمة عربية مشتقة من (دلى) التركية بمعنى مجنون أو متهور ، وهم طائفة من الجند ، وصفهم الجبرتى (الطبعة الأهلية ج ٤ ص ٢٤١-٢٤٢) فى حوادث سنة ١٢٣٠ بمناسبة إرسال محمد على فريقا منهم إلى الحرب فى الحجاز بقوله : « وهؤلاء الطائفة التى يقال لهم دلاة ينسبون أنفسهم إلى طريقة سيدنا عمر ابن الخطاب رضى الله عنه (كذا) . وأكثرهم من نواحى الشام وجبال الدروز =

فهربت الناس وسكّرت(١) دمشق الشام . فسأل الباشا عن ذلك ، فقيل له إن بعض الموصلية والبغادة(٢) الذين كانوا قبقول وطردوا فى زمن عثمان باشا المحصل حين قتلوا بعض الأنكشارية مرادهم الآن يعملوا فتن . فأمر منادياً ينادى أن لا يبق بعد ثلاثة أيام أحد من الموصلية والبغادة والقبقول ، وكل من بق منهم يصلب وماله ينهب .

وفى ٢٤ من جمادى من هذه السنة دخل القاضى محمد أفندى الملقب بفندق زاده ، ونزل فى الصالحية ، وكان الباقى من مدة القاضى

= والتاولة وتلك النواحى ، يركبون الأكاديش ، وعلى رءوسهم الطراطير السود مصنوعة من جلود الغنم الصغار ، وطول الطرطور نحو ذراع ، وإذا دخل الكنيف نزعه من على رأسه ووضعه على عتبة الكنيف ، وما أدرى أذلك تعظيم له عن مصاحبته معه فى الكنيف أو لخوف وحذر من سقوطه إن انصدم بأسكفة الباب فى صحن المرحاض أو الملاقى . وهؤلاء الطائفة مشهورة فى دولة العثمانيين بالشجاعة والإقدام فى الحروب ، ويوجد فيهم من هو على طريقة حميدة ومنهم دون ذلك » . وقد وصفهم الأستاذ شفيق غربال بأنهم « أشقياء من أكراد سوريا ... كانوا شر من رأى أهل مصر » (محمد على الكبير ص ٣٣) . وقد اشتهر عنهم بأنهم إذا احتمى بهم أحد فلبس قلبقهم حموه ودافعوا عنه (ميخائيل الدمشقى ص ٣٣ ، ٩٨ – ٩٩) . وبيت الدالاتى من البيوت المعروفة بدمشق حتى اليوم .

(١) سكرت بمعنى أقفلت فى تعبير أهل الشام .

(٢) الموصلية والبغادة هم ممن ينتمون إلى الموصل وبغداد ، وكان يقيم منهم بالشام عدد كبير التحقوا بالخدمة فى الأوجاقات ليفيدوا من اضطراب الأحوال بالشام فى ذلك الوقت [انظر : ميخائيل الدمشقى ص ٣٢ — ٣٥ فى حوادث سنة ١٨١٢ عن فتنة البغادة فى الشام على الباشا واعتصامهم بالقلعة ثم الفتك بعدد منهم وطرد الباقين سواء من الجند أو من التجار ثم العفو عنهم .

القديم أربعة[١]. وبعد إتمامهم باشر القاضي الجديد وظيفته في المحكمة.

وفي عشية ليلة الثلاثاء ثالث رجب من هذه السنة [٤ ب] ارتحل سليمان باشا طالباً قتال الظاهر عمر حاكم قلعة طبرية[٢] ومعه عسكر عظيم أكثره دالاتية، وأخذ معه القنابر واللغمجية والطوبجية الذين جاءوا من إصطنبول بطلب منه، ثم وصل إليها وحاصرها حصاراً شديداً[٣]،

(١) لم يميز المؤلف هذه الأربعة، أكانت أياما أم شهوراً.

(٢) الشيخ ظاهر العمر الزيداني من الشخصيات البارزة في تاريخ سورية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. كان ينتمي إلى قبيلة بفلسطين تدعى الزيادنة، بدأ بأن نال ولاية طبرية والتزام أموالها من باشا صيدا، فلما استقر بها حصنها ودعا أهله إليها، واستخدم الجند وكثر أتباعه، وتحالف مع أقوى القبائل العربية الضاربة في تلك الأنحاء وهم بنو صقر، ثم شرع يضم البلاد التي حول طبرية شيئاً فشيئاً سواء سلماً أو حرباً. ويطلب من وزير صيدا التزامها مدعياً أنه يريد حمايتها من العربان، حتى قوي سلطانه وذاع صيته، فضم إليه عكا، وقد جعلها قاعدة له وحصنها، كما ضم إليه بلاد نابلس وحيفا وصفد، ولقب بشيخ مشايخ صفد. وقلقت الدولة لاتساع سلطانه، فألبت عليه ولاتها في سورية، فتحالف ظاهر مع علي بك الكبير الذي كان قد خلع طاعة الدولة في مصر في ذلك الوقت، واتصل بالقائد الروسي في البحر الأبيض المتوسط، وكانت روسيا في ذلك الوقت مشتبكة في حرب مع الدولة العثمانية، ولكن الدولة قضت على حركة علي بك مستعينة بمملوكه محمد بك أبي الذهب، ولم تصل إلى ظاهر مساعدة روسية ذات قيمة، وانتهى الأمر بهزيمته ومصرعه على يد تابعه الدنكزلي سنة ١٧٧٥. [انظر تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيداني حاكم عكا وبلاد صفد تأليف ميخائيل نقولا الصباغ العكاوي. نشره الخوري قسطنطين الباشا]

(٣) ذكر الصباغ مؤرخ سيرة الشيخ ظاهر العمر حصار سليمان باشا العظم قلعة طبرية في حوادث سنة ١٧٥٣ (١١٦٧ — ١١٦٨ هـ) وذكره الأمير حيدر =

وأرسل حضرة سليمان باشا يطلب من أهل الشام سلالم. فأرسلوا له ما طلب، وبعد مدة أرسل يطلب فعّالة وبستانية ويكون معهم مرور ومساحى. ومجلاف[1]، فأرسل جميع ما طلب إليه. ولم يزل محاصراً القلعة، وهو يضرب عليها بالمدافع والقنابر، ولم يؤثر فيها، وقد ساعدته الدروز وأهل نابلس ونائب القدس خليل أغا ابن أبو شنب[2] وعرب بنى صخر وعرب السقر[3] مع قعدان بن ظاهر السلامة[4]. وقد ضيقوا على أهل القلعة الحصار. لكن أخبر بعض أهل طبرية بأن المحصورين بالقلعة ماحصل لهم ضيق لأن مؤنهم كثيرة، وقيل إن باب القلعة يفتح فى وقت مخصوص، وبعض الناس تغدو إليهم وتروح بما يطلبون. وقد قبض على ذخيرة مرسلة لهم، وذلك بأن أهل «دير حنا»[5] وفيها أخو

= الشهابى فى حوادث سنة ١١٥٧ (١٧٤٤م). ولكن التاريخ الصحيح هو ما ذكره الديرى هنا وهو سنة ١١٥٥ هـ (١٧٤٢ م) ويتفق معه القسار (ص ٦٩) بل يتفق معه فى اليوم الذى بدأ فيه سليمان باشا العظم الحصار وهو ٣ رجب من تلك السنة

(١) مجلوف : فى النسخة التيمورية.

(٢) أبوشيب : فى النسخة التيمورية.

(٣) ذكر الصباغ فى تاريخه لظاهر العمر (ص ٦٣ – ٦٤) أن عرب «الصقر» كانوا أولا مع ظاهر وأن فرسانهم كانوا يطاردون جند الشام المنهزمين وقد استمروا يناصرون ظاهراً حتى ارتفع شأنه، ثم لما استتب له الأمر رفع يدهم ومنعهم من السلب والنهب ومن عوائدهم التى كانوا يأخذونها من البلاد، فخرجوا عليه بعد ذلك وناصبوه العداء. وقد كان عرب الصقر ينزلون فى الإقليم بين جبل نابلس والناصرة (الصباغ ص ٥٤).

(٤) قعدان أحد زعماء بنى صقر، وسيأتى ذكره فى الكتاب.

(٥) دير حنا قرية بفلسطين بها قلعة قديمة، وقد جعل ظاهر العمر أخاه الأكبر سعداً عليها (الصباغ ص ٥١).

الظاهر عمر أرسل لأخيه كتاباً مع شخص، وأرسل ذخيرة بارود وخلافها مع أشخاص، فألقى رجل من عسكر سليمان باشا القبض على الشخص الذى معه المكتوب، وذلك بعد تفتيشه. وجد الكتاب موضوعا فى نعله، فأخذ حضرة الباشا الكتاب وقرأه وقرّره. فأقر بالنجدة والذخيرة المرسلة لأخى الظاهر عمر، فحالاً أمر سليمان باشا بقتله، وأرسل جماعة للقوم الذين معهم الذخيرة فأخذت منهم، وقتلوا غالبهم، وقطعت رؤوسهم، وأرسلها سليمان باشا إلى إسلامبول، وشدّد الحصار. وأرسل سليمان باشا لأخى الظاهر عمر الذى فى ديرحنّا يقول له: إذا فرغنا من أخيك جئنا إن شاء الله إليك. وستأتى تتمة فتحها إن شاء الله تعالى.

وكان هلال رمضان فى هذه السنة نهار الاثنين وأثبت بعد العشاء، وأشعلت القناديل فى سائر مآذن الشام، وضربت مدافع الإثبات فى منتصف الليل. وحصل للناس زحمة فى حركة السحور، حتى فتحت دكاكين الطعام ليلاً كالخبازين والسمانين[1].

وفى تاسع رمضان المذكور هطلت أمطار غزيرة على عامة البلاد ولله الحمد. وغرق مركب بساحل صيدا [١٥] بتلك المدة، وكان قادماً من مصر وفيه أرزاق كثيرة، عوّض الله أصحابها خيراً. قيل إنه غرق

(١) السمانون هم (البقالون) فى تعبير أهل مصر.

فى نوء قاسم كوى[١]. وجاءت الصرة[٢] من إسلامبول يوم الجمعة ، وجاءت الخزنة السلطانية[٣] من مصر يوم السبت ثالث عشر من رمضان ، وقد تأخرت عن وقتها ، وكان صنجقها عمر بك .

وجاءت البلطجية[٤] من إسلامبول نهار الاثنين فى الشهر المذكور ومع ذلك حضرة سليمان باشا العظم فى حصار طبرية ، وقد شدّد على أهلها كما يأتى .

وفى يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من هذا الشهر شهر رمضان توفى الرجل الصالح الحاج أحمد الحلاق بن حشيش ، كان رجلاً صالحاً رأى العجائب لأنه كثير السياحة ، وكان حسن المعاشرة والوداد ، وكان حلاقاً لفرد زمانه وقطب أوانه الشيخ عبد الغنى النابلسى قدّس سره ، وكان يحلق أيضاً للشيخ مراد أفندى النقشبندى الكسيح ، ولعمدة

(١) فى القاموس المحيط كُوَىّ على وزن سُمَىّ وهو نجم . وفى المخصص لابن سيده كُوَىّ نجم من الأنواء فنوء كوى من الأنواء المعروفة عند الفلكيين العرب . أما كلمة قاسم فلا محل لها إلا أن تكون مصحفة ، وربما كانت العبارة (نوء قاسمه كوى) .

(٢) الصرة هى الأموال التى كانت ترسلها الدولة فى كل عام إلى الأشراف بالحجاز .

(٣) الخزنة هى الأموال التى كانت ترسلها مصر فى كل عام إلى خزينة السلطان بالقسطنطينية وكانت فى أغلب الأحيان ترسل براً عبر الأراضى السورية ، وسنجق الخزنة هو قائد الجند المعينين لحراسة الخزنة فى طريقها من مصر إلى القسطنطينية ، وكان يختار من كبار الأمراء المماليك .

(٤) البلطجية هم الرسل .

مذهب السادة الشافعية شيخنا الشيخ محمد العجمونى ولأمثالهم ، وكان يحلق مجاناً للفقراء من طلبة العلم وغيرهم . ومن صلاحه وتقواه أنه ما وضع يده على مريض إذا رمد وقرأ ما تيسّر إلا شفاه الله وعافاه . قال مؤرخها الحلاق الشيخ أحمد [البديرى] : وكان صاحب الترجمة أستادى ومعلمى فى صنعة الحلاقة ، ومنه حصل لى الفتوح والبركة ، رحمه الله تعالى .

وثانى يوم الأربعاء توفى الشيخ مصطفى المغربل ، وكان رجلاً ديناً أخذ الطريق من الأستاد الشيخ يوسف الطباخ .

وفى تلك الأوقات اشتد الغلاء فى سائر الأشياء سيما المأكولات ، مع وجود الأغلال وغيرها ، فمن عدم تفتيش الحكام صار البيّاعون يبيعون بما أرادوا ، غير أن الغنم كان قليلا جداً ، فصار الجزارون يذبحون الجاموس والجمل والمعز ، فصار يباع رطل اللحم الشامى بثلاثين مصرية ، ورطل إلية الغنم بقرش وربع ، والبيض كل ثنتين بمصرية ، والسمن رطل وأوقتين بقرش ، والثوم رطله بثلاثين مصرية ، ورطل الخبز بأربع مصارى وبخمسة مصارى وبأكثر . وقد كان بثلاث مصارى ونصف. فبقدوم شهر رمضان المبارك غلت الأسعار حتى الخضر ، فقد كان قبل رمضان الكوسا كل مائة بمصرية ، فلما هلّ رمضان صار خمسة وأربعة بمصرية ، والباذنجان كل رطلين بمصرية [٥ ب] ، فصار كل رطل بمصريتين ، واللحم عدم ، وكل ذلك من عدم تفتيش الحكام .

وكان نهار عيد الفطر يوم الأربعاء ، وقد ضمناه ثلاثين يوماً بإكمال العدة ، فدخل العيد ، ولم يأت حضرة والى الشام سليمان باشا (من الدورة[1] ، بل هو الآن مقيم على حصار قلعة طبرية .

وفى يوم السبت رابع شوال جاء تبشير رسمى من حضرة سليمان باشا)[2] بفتوح قلعة طبرية ، فضربت المدافع وعملوا الزينة ودقت الطبول والزمور .

وثانى يوم الأحد دخل حضرة سليمان باشا العظم إلى دمشق ، فسبق كخيته[3] والعسكر ، وترك على قلعة طبرية على أغا بن الترجمان ، وعنده بعض العسكر والفعالة ، وأمره أن لا يقدم دمشق حتى يخربها بعد إخراج أهلها منها

---

(١) الدورة : كان باشا الشام — قبل موسم الحج بنحو ثلاثة أشهر — يخرج للدورة ، وهى جولة تفتيشية فى جهات نابلس وعجلون ، وكان جبل نابلس ملكا خاصاً للدولة (مثل يافا) ويتزعم مشايخه بيت الجرار ومركزهم قلعة سانور ، وقد نشأوا فى بيت قديم بنابلس ، وهو بيت طوقان (الصباغ ص ٤٩ ، ٥١) . وكان الباشا يستهدف من هذه الدورة أمرين : الأول جمع الأموال الأميرية من سكان المناطق الجنوبية من إيالته ؛ وهى المناطق التى يسودها نفوذ أصحاب العصبيات من شيوخ البلاد وزعماء العشائر ، وذلك ليستعين بهذه الأموال فى إعداد قافلة الحج .
والأمر الثانى : إظهار سطوة الدولة فى هذه الأجزاء من إيالته وهى التى ستمر بها بعد زمن وجيز قافلة الحاج الشامى إلى بيت الله الحرام .

Volney : Voyage..... p.. 260.

(٢) العبارة الواقعة بين القوسين ساقطة من النسخة التيمورية ، وواضح أن المعنى لا يستقيم إلا بها .

(٣) الكخيا أو الكتخدا هو وكيل الباشا أو نائبه .

قال المؤرخ : وبلغنى أنّ سبب فتحها أنه لما اشتد الحصار على أهلها ، وقد قلّ الزاد من عندهم ولم يتمكنوا من جلب قوت مما قد أحاط بهم من العساكر والعربان وأنه بعد ضرب المدافع والقنابر أمر حضرة سليمان باشا بحفر (خنادق)[١] ولغم طوله مائتان وثمانون ذراعا ، ولما بلغهم ذلك ضاقت عليهم الدنيا وازداد فزعهم ، أرسل الظاهر عمر المحصور شيخ طبرية إلى عمر بك صنجق الخزنة المصرية التى تأتى للدولة العلية بهيئة وافرة ليتوسط بالصلح بينه وبين حضرة سليمان باشا ، وكان ذلك قبل وصوله ووصول الخزنة لدمشق . فلما وصلت سار عمر بك ، ودخل على حضرة سليمان باشا ، لأن بينه وبين حضرة الباشا مودة وصداقة حينما كان سليمان باشا حاكما بمصر[٢] . وكان عمر بك رجلا وقوراً كبير السن ، وقال له : ياحضرة الوزير ، أنا رجل كبير السن بمنزلة والدك ، وإن كنت من جملة خدمك ، وداخل على جاهك

(١) هذه الكلمة غير واردة فى النسخة الظاهرية .

(٢) تولى سليمان باشا العظم ولاية مصر فى سنة ١١٥٢ (١٧٣٩) ، ولم يمكث بها أكثر من عام ، إذ نازعه الأمراء المماليك وأرسلوا يشكونه إلى السلطان ، فعزله (المرادى ج ١ ص ٣٨) وقد ذكر الجبرتى بشئ من التفصيل فى حوادث تلك السنة (ج ١ ص ١٥٥ — ١٥٦) النزاع بين سليمان باشا والأمراء وعلله بأن الباشا لما استقر فى ولاية مصر أراد إيقاع فتنة بين الأمراء ، بل دبر مكيدة للفتك بعدد من رؤوسهم ، ونجح فعلا فى تنفيذ بعض ما دبرّ ، ولكن خصومه تجمعوا عليه، فأراد الاحتماء بباب الانكشارية فرفضوا واضطروه للرحيل من مصر ، وكان ممن استعان بهم سليمان باشا العظم ، الأمير عمر بك بن على بك قطامش ، وهو الذى قاد بعد ذلك قافلة الخزنة المصرية إلى القسطنطينية — على نحو ما ذكر البديرى — وزار صديقه القديم فى دمشق وتوسط لديه للشيخ ظاهر العمر

فى الصلح بينك وبين عبد نعمتك ودولتك الظاهر عمر شيخ طبرية والصفح من شيم الكرام ،وأنتم الكرام لاسواكم .فأجابه حضرة الباشا بأنه يصير خير إن شاء الله تعالى.ولما كان ثانى [أيام] العيد،عيد الفطر اشتد على أهل طبرية الأمر ، وزاد عليهم الحصر ، خرجوا إلى أعلا الأسوار رافعين أصواتهم ينادون حضرة على أغا الترجمان ، ولما قرب منهم قالوا له : لك الأمان ادخل الباب . فأخذ الإذن من الباشا ودخل [١٦] الباب . وكان حضرة سليمان باشا قد أدركه السفر إلى الحاج ، فدخل على أغا إلى قلعة طبرية فتلقوه [كذا] المشايخ ومعهم الظاهر عمر ، فوقعوا على قدميه وصاروا يبكون حواليه ، وعملوا له عشرة أكياس ، ليدخل بينهم وبين حضرة سليمان باشا بالصلح ، ثم خرجت النساء والأطفال والشيوخ يبكون وينتحبون فرقّ لهم ، وسار طالباً حضرة الباشا ، فلما وصل إليه وقع على قدميه ، ووعظه بالحلم والإشفاق ، وذكر له فضائل محاسن الأخلاق ، فرقّ قلبه وأجاب سؤاله . فلما علم المحصورون وتحققوا أن حضرة الباشا عفا عنهم وصفح خرجت النساء ، والرجال والأطفال ، وفى رقابهم المحارم وعليهم الذل رافعين أكفّ الضراعة بالمسكنة ، وضاجّين بالأدعية له وللسلطان الأعظم ، ودفعوا لحضرته مائتا [كذا] كيس من المال بعد ما أخذ ابن الظاهر عمر رهينة وأتى إليه[1] إلى الشام ، وأرسل جماعة لهدم القلعة وإبادتها .

---

(١) صحتها : به .

قال المؤرخ : هكذا حدّث بذلك علي أغا شاطر باشي ، وقد نقلت لنا على غير هذا الوجه . والله أعلم بحقيقة الحال[1]

وفى يوم الجمعة عاشر شوال من هذه السنة توفى الحسيب النسيب السيد عبد الله بن عجلان نقيب السادة الأشراف بالشام ، ودفن بمدفنهم فى سوق الغنم لصيق جامع المرادية ، وكان يومئذ معزولا عن النقابة وهى على ابن أخيه السيد على أفندى[2] . وفى ذلك اليوم عزل السيد على أفندى عن النقابة ووجهت على السيد محمد أفندى بن الشيخ عبد القادر الكيلانى ، وفى ذلك اليوم أيضا عزل حامد أفندى ابن العمادى[3] عن وظيفة الإفتاء ووجهت إلى ابن عمه محمد أفندى ابن العمادى .

---

(١) لم يرد فى المراجع المعاصرة لتلك الحوادث كتاريخ الصباغ وميخائيل الدمشقى وروفائيل كرامة والقار والقارى والأمير حيدر الشهابى ما يؤيد هذا « التبشير الرسمى » بفتح سليمان باشا قلعة طبرية ، ويبدو أن البديرى نفسه شك فى ذلك ، إذ قال : وقد نقلت لنا (هذه الحادثة) على غير هذا الوجه والله أعلم بحقيقة الحال ، وسيعود مرة أخرى فيذكر خروج سليمان باشا لقتال الظاهر عمر « حاكم قلعة طبرية » .

(٢) بيت العجلانى من البيوت الشهيرة بدمشق ، توارث كثير من أفراده نقابة الأشراف بها وترجم المرادى لنفر منهم ، منهم السيد على العجلانى الذى تولى النقابة للمرة الأولى فى سنة ١١٥٠ (١٧٣٧ - ١٧٣٨) ثم عزل عنها وعاد إليها عدة مرات وأخيراً تولاها من سنة ١١٧٢ حتى وفاته فى ١١٨٣ (١٧٥٨ — ١٧٦٩) ، وقد علا شأنه فى عهد الباشا حسين مكى ، فتولى عدة مناصب وحاز عدة إقطاعات (المرادى ج ٣ ص ٢٠٦) .

(٣) بيت العمادى من البيوت الشهيرة بالعلم فى دمشق فى القرن الثامن عشر ، تولى =

قال المؤرخ رحمه الله : وفى ليلة السبت حادى عشر شوال توفيت والدتى فى الثلث الأول من الليل ، رحمها الله وعفا عنها وبرّد مضجعها ، وقد فارقت الدنيا وأنا بين رجليها نائم ، وكانت من القانتات العابدات تصلى نوافل الليل ، ولها أوراد ، إلى آخر ما قال .

وفى ذلك الشهر من هذه السنة بعد صلاة الجمعة خرج المحمل الشريف مع الوزير الخطير سليمان باشا بن العظم . وثانى يوم السبت جاء الحج (الحلبى ومعه ألف وسبعمائة عجمى . وفى عشرين شوال خرج الحج)[1] ، من البلد شيئا فشيئا . وقبل سفر الوزير سليمان باشا عمل [٦ ب] ديوانا وأحضر الأعيان ، وأظهر الفرمان الذى فيه قتل الزرباوات[2] أى المفسدين من الأنكشارية ، وقال لمن حضر : هذا الفرمان الذى أمره مفوض لنا قد ألغيناه وعفونا عنهم ، وعُدّ ذلك من حسناته .

= كثير من أفراده إفتاء الحنفية بالشام ، تلقى حامد العمادى العلم على نفر من كبار علماء الشام والقسطنطينية ونال رتبة السليمانية ، وهى من أرفع الرتب العلمية بين العلماء الأتراك ، ثم درّس بالجامع الأموى وبالسليمانية وشغل منصب الإفتاء أربعة وثلاثين عاما وألف كتباً كثيرة ، منها فتاويه ، وقد ألف فى فنون مختلفة ، كالأفيون والقهوة ودفع الطاعون وترجم للشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى ، وكان يقول الشعر ، وقد جمع ثروة كبيرة وظل موضع احترام الناس والحكام حتى مات فى شوال ١١٧١ (١٧٥٨) المرادى ج ٢ ص ١١ — ١٩ .

(١) العبارة الواقعة بين القوسين ساقطة من النسخة الظاهرية ولا يستقيم المعنى إلا بها .

(٢) انظر فيما سبق ص ٥ ، ١٨ ، ١٩ .

وكان أول فصل الشتاء فى هذه السنة يوم الأربعاء تاسع وعشرين شوال وهو يوم دخول المزيرباتية[1] ، وأقام الباشا فى المزيريب أربعة أيام ورحل فى اليوم الخامس ، وشال الحج عرب بنى صخر[2] . وقد كان كل شىء رخيص [كذا] من جميع البضائع ما عدا المعمك[3] ، والشعير المدّ بنصف وقرش، وقد رجع من الغلمان خلق كثير ، وأمطرت السماء مطراً غزيراً يوم مجىء المزيرباتية بعد أن قنطوا ، فاستبشرت عموم الخلق وحمدوا البارى على لطفه .

وفى عاشر ذى القعدة دخل مصطفى باشا متولى طرابلس الشام نهار الاثنين إلى دمشق ، عينته الدولة العلية سرداراً على الجردة[4] . والمذكور كان سفاكاً للدماء ظلوماً غشوماً أهرق دماء كثيرة حينما كان فى طرابلس ، وكان غالب قتله بالكلاب والشنكل ، يترك الرجل حتى يموت جوعاً وعطشاً ، فهربت غالب أهالى طرابلس من ظلمه وتفرقوا فى البلاد ، وأرسل أعوانه فى طلب الهاربين ، فالذى قبضوا عليه كان من الهالكين . وبعد مجيئه لدمشق وقعت فتنة بين الدالاتية[5] التى للمقسا

---

(١) انظر فيما سبق ص ١٠ حاشية رقم ٢ .

(٢) يقصد أن عرب بنى صخر قدموا الإبل لحمل الحجاج ومهماتهم

(٣) خليط من بقايا الطحين وبعض الحبوب يقدم غذاء للإبل .

(٤) انظر فيما سبق ص ١١ — ١٢ .

(٥) انظر فيما سبق ص ١٩ — ٢٠ .

وبين لاوند[١] الأكراد، وقتل من الفريقين جماعة، وكانت تلك الفتنة في يوم الجمعة، حتى بطلت صلاة الجمعة في كثير من الجوامع.

وفي غرة ذي الحجة ختام السنة المذكورة توفي الشيخ محمد الكيال وكان من رؤساء المؤذنين في جامع الأموي، وكان رجلا صالحاً، وكان ينسخ كتباً وغيرها بخط مقبول، وكان ينام والقلم بيده ويفيق ويكتب من غير نظر للكتابة، وقد عُدت له كرامة.

وفي ذلك اليوم جاء خبر قتل متسلم دمشق[٢]، قتله عرب الزبيد[٣] وقتلوا من جنده جماعة كثيرة، وذلك لما كانت هذه العرب عاصية على الدولة خرج المتسلم المذكور ومعه جماعة من العسكر، فساروا حتى وصلوا للعرب المذكورة، ففاجأهم المتسلم وجنوده على حين غفلة بالقتل وغيره، وأرادوا أخذ أموالهم ومواشيهم، فردوا عليهم رد غيور صبور فقتلوا المتسلم المذكور وجماعة من عسكره، فحين بلغ هذا الأمر أكابر دمشق عملوا [١٧ا] ديواناً ثم أمروا منادياً ينادي: من أراد طاعة الله

---

(١) اللوند هم (أصلا) رجال البحرية العثمانية من أهل المشرق (Levantins) ثم أصبح الاسم يطلق على طائفة من الجند العثمانية من أخلاط شتى، وقد عرفوا بالفساد والإفساد، حتى أصدر السلطان فرماناً بإبطال طائفتهم، فتفرقوا في الأقطار ودخلوا في خدمة الولاة وأصحاب العصبيات.

(٢) متسلم دمشق هو نائب الباشا في حكمها أثناء غيابه في الحج، وقد ذكر القار (نشرة المنجد ص ٦٩) أنه كان يدعى ابراهيم أغا، وذكر البديري بعد ذلك أن اسمه (إبراهيم).

(٣) عشيرة بدوية ويطلق عليها الآن: (الزبيدات).

والسلطان بمن له قدرة وقوة على الركوب فلا يتخلف، فالغارة الغارة على عرب الزبيد الذين قتلوا المتسلم وعسكره، فخرجت الإنكشارية والسباهية والزعماء، وعينوا نائباً بدمشق حسين أغا بن القطيفاني المتولي على وقف المرحوم سنان باشا، ثم ساروا للعرب، ورجعوا ومعهم جسد المتسلم (المقتول)[1]، وهو في حالة عبرة لمن اعتبر، ثم غسلوه في سراية الحكم ودفنوه في باب الصغير[2]. وكان اسمه إبراهيم، وهو مملوك سليمان باشا بن العظم حاكم الشام، وكان مع عدل مولاه له ظلم وعدوان وجرأة على الخاص والعام، وكان يأمر بالقبض على كل من رآه بعد العشاء، ويأمر بتقييده في الحال بالحديد. إلى أن يأخذ منه مال كثير [كذا]، وإذا أذنب أحد ذنباً، ولم يقدر على قبضه يقبض من يقدر عليه من أهله وقرابته، ويلزمه بمال عظيم، وإذا نهاه أحد عن تلك الأحوال يحرد، ويطلب الارتحال، ولازال بظلمه وعتوه، إلى أن أخذه الله. وقيل سبب تدميره أنه جاءه شيخ الجبلة[3]، الفحيلي، وقال له سراً: قم حتى أكسبك كثيراً من الغنائم، ولم يعلم أحداً من كبراء الشام، سوى قومه الطغاة، فذهب هو وقومه، حتى وصل إلى اللجاة، فلما وصل إلى تلك القبيلة ساق أموالهم والحريم. فارتدت عليه العرب، وأخذ عليه واحد منهم نيشاناً، وضربه

---

(١) كلمة المقتول غير واردة في النسخة الظاهرية.

(٢) باب الصغير أحد أبواب دمشق القديمة في الجزء الجنوبي من سورها

(٣) قبيلة عربية في طريق حوران. انظر فيما بعد.

فلم يخطئه ، وتركه ملقى قتيلا ، وقتلوا جماعة من قومه ، ذلك بما قدمت يداه .

وفى نهار السبت منتصف ذى الحجة ، توفى أبونا ووالدنا وأستاذنا ومربينا سليمان بن الحشيش الحكواتى رحمه الله . كان فريد عصره ووحيداً فى أوانه . وكان يحكى سيرة الظاهر وعنترة وسيف ، ونوادر غريبة فى التركى والعربى ، ومع ذلك فهو أمى لا يقرأ ولا يكتب . وكان أشقر أبرص ، شديد البياض ، إلا أنه بحر خضم لا يخاض ، رحمه الله .

وفى يوم السبت خامس عشر ذى الحجة توفى المرحوم عبد العزيز أفندى السفر جلانى ، وكان فقيهاً محباً للعلماء ، مقبولا عند الحكام مهاباً وقوراً ، وأعطى جاهاً لم ينله أحد من بنى السفر جلانى ، محباً لفعل الخير . ولهذا حصل له القبول عند الخاص والعام .

وفى اواسل الشتاء من آخر هذه السنة قلت الأمطار ، ويئست الخلق ونهض الغلاء على قدم وساق ، فأغاث الله عباده بالأمطار [٧ ب] كالبحار ، وذلك فى ابتداء كانون الثانى (١) ، واستمر ليلا مع نهار لا يفتر ، وأثلجت الدنيا سبع مرات ، واستمر ذلك خمسة وأربعين (يوماً) (٢) ، وتهدمت أماكن كثيرة ، بحيث ما بقى محل ولا جهة فى الشام إلا ووقع الهدم فيها ، ثم بعد ذلك طلعت الشمس ، وأحيا الله الأرض بعد موتها .

---

(١) يناير .

(٢) غير واردة فى المخطوطة .

سنة ١١٥٦

ثم دخلت سنة ١١٥٦ ، ألف ومائة وستة وخمسين، نهار الاثنين غرة محرم[١]، جعلها الله سنة خير ورحمة وبركة . وكان والياً بدمشق الشام سليمان باشا العظم ، وهو فى ركب الحج الشريف .

وقد هلّ هذا العام الجديد ، ورطل الخبز الشامى ، بأربع مصارى وبخمسة . ورطل الأرز بثمانية مصارى، ورطل الدبس بثمانية مصارى ، وأوقية السمن بستة مصارى ولا توجد ، مع أنه كان من نحو شهر كل رطل وثمانية أواق بقرش ، ولكن الخزان ما أبقى للفقراء قمصان ، وأوقية العسل بخمسة مصارى ، ورطل اللحم الضأن بثلاثين مصرية ، ورطل لحم الجاموس ولحم البقر بعشرين مصرية ورطل الثوم باثنى عشر مصرية، وأوقية الزيت بمصريتين وقطعة[٢]. وهذا الغلاء ماسمعنا بمثله أبدا وقد طال المطال، والناس منتظرة للفرج من الملك المتعال.

قال المؤرخ : وفى أوائل هذه السنة الجديدة توفى الحسيب النسيب السيد أحمد البابا ، رئيس حرفة الدباغين . كان رحمه الله بهى المنظر ذا هيبة حسنة ، ولنا معه صحبة .

---

(١) يوافق ٢٥ فبراير (شباط) ١٧٤٣ م.

(٢) المصرية (أو البارة) كانت ١٠ قطع أو فلوس . والقرش ٤٠ مصرية . والمصرية من الفضة، أما القطعة فمن نحاس . انظر فيما سبق حاشية ٤ ص ٤ .

وفى رابع وعشرين محرم ، كان دخول الجوخدار[1] من الحاج الشريف ، يبشر بالسلامة وحسن السيرة . ثم جاء الكتّاب[2] ومعه المكاتيب ، ثامن وعشرين محرم ، نهار الأحد من هذه السنة المذكورة .

وفى سلخ محرم ، صار فى دمشق ، سيل عرمرم ، ما روى قط مثله من قديم الزمان ، وعقبه نزل برد كبير ، استقام نزوله مقدار ساعتين ، حتى علا على وجه الأرض مقدار ذراع ونصف .

وفى أوائل شهر صفر الخير ، جاء خبر عن الحج الشريف ، بأنه غرق فى الحسا قريباً من القطرانة[3] ، وذهب على ماقيل مقدار نصف الحاج ، من خيل وجمال وبغال ، ونساء ورجال وأموال وأحمال وقد غرق لأحد التجار سبعة عشر حمل ، كل حمل لا يقام ثمن ، فاستغاثوا بحضرة سليمان باشا العظم والى الشام ، وأمير الحاج ، وقالوا : نحن نهب لك ما لنا

---

(١) انظر فيما سبق ص (٦) حاشية رقم (١)

(٢) انظر فيما سبق ص (٧) حاشية رقم (١)

(٣) الحسا أحد منازل الحج الشامى ، إلى الشمال من معان ، والقطرانة كذلك إلى الشمال من الحسا ، وهما محرومتان من الماء صيفاً ، ولكن بهما ماء فى الشتاء . وكان الحجاج يلاقون مشقة زائدة ، فى ذلك الجزء من الدرب ، حيث تكثر اعتداءات البدو فى المضايق ، ويقل ماء الشرب . وكثيراً ما كانت السيول تجرف الركب ، كما ذكر البديرى هنا .

فكان الحجاج يقولون :

بوغاز الحسا ∴ ما ينتسى
كله أسى ∴ رمل وحصا

انظر : Tresse op. cit. p.22. ، كرد على : خطط الشام ، ج ٥ ص ١٨٦ -

وخذه أنت ولا تتركه للعرب . فحالاً نهض وأخذ معه جماعة ، وذهب نحو مرحلة ، وقد خاطر هو وجماعته ، ثم غاب يوما وليـــلة [١٨] بعد ما جدّوا فى طلبه ، وإذا هو قادم ومعه الأحمال، لم تنقص ولا ذرة . ثم ناداهم وسلمهم [كذا] إلى أصحابهم ، ولم يدنس حجه بشىء . وقد عدّوا هذه المنقبة لمثله ، من الهمم العالية والمروءة السامية ، وبوصولهم أيضا للبلقة(١) جاء أيضا سيل عظيم ، أخذ مقدارا عظيما من الحج ، وأراد أن يتمم على بقية الحج ، لولا أن تداركه الله بلطفه . ولما حصل هذا الأمر ، كتب حضرة أمير الحاج سليمان باشا توقيعا ، وأرسله إلى الشام وإلى من حواليه ، بأن يأتوه بعلف وذخيرة ، فنادى المنادى فى شوارع دمشق : يا أمة محمد ، من كان يحب الله ورسوله ، وتمكن من الخروج فليخرج ، ومعه ما يقدر عليه من مأكل ومشرب وملبس ، فليخرج ليلاقى الحجاج . فخرجت الخلق مثل الجراد .

وفى يوم الأحد رابع صفر الخير دخل الحاج ، وثانى يوم دخل المحمل الشريف مع حضرة سليمان باشا ، وكانت سنة هائلة أخبر الحجاج أن مدّ العليق صار بعرشين ، وفى بعض الأماكن بأربع قروش ، وكل ثلاث ثمرات بمصرية ، وهذا شىء ماسمع من قديم الزمان ، وبيع كعب البقسماط ، بثلث قرش . وكانت دمشق أشد غلاء من غيرها ، حتى مدّ الملح وصل ثمنه إلى ثلاثين مصرية ، والدبس الأوقية

(١) البلقاء موضع بناحية معان .

بمصرية ، واللبن فى آدار[١] رطله بسبعة مصارى ، والخبز لا يوجد ، والحكام يحزنون ، وأهل البلد يفعلون كفعلهم ، وإلى الله المصير .

وفى يوم الاثنين ثالث عشر شهر صفر الخير من هذا العام ، توفى العالم العامل ، الشيخ أمين أفندى ابن الخراط رحمه الله

وفى غرة ربيع الأول من هذه السنة شرع حضرة والى دمشق الشام ، سليمان باشا ابن العظم فى فرح ، لأجل ختان ولده العزيز أحمد بك ، وكان فى الجنينة التى فى محلة العمارة ، وجمع فيه سائر الملاعب وأرباب الغناء واليهود والنصارى ، واجتمع فيه من الأعيان والأكابر من الأفندية والأغوات[٢] مالا يحصى ، وأطلق الحرية لأجل الملاعب يلعبون بما شاؤا ، من رقص وخلاعة وغير ذلك ، ولا زالوا على هذا الحال سبعة أيام بلياليها . وبعد [ذلك] أمر بالزينة ، فتزينت أسواق الشام كلها سبعة أيام ، بإيقاد الشموع والقناديل ، زينة ما سمع بمثلها . وعمل موكب ، ركب فيه الأغوات والشربجية[٣] ، والأكابر والانكشارية ، وفيه الملاعب الغريبة ، من تمثيل شجعان العرب وغير ذلك . [٨ ب] وثانى يوم طهّر ولده أحمد بك ، وأمر من صدقاته أنه يطهّر من أولاد الفقراء وغيرهم ممن أراد ، فصارت تقبل الناس بأولادهم ، وكلما طهروا ولدا يعطوه بدلة وذهبين . وأنعم على الخاص

---

(١) آذار وهو شهر مارس .
(٢) رؤساء الجند .
(٣) الأعيان .

والعام، والفقراء والمساكين بأطعمة وأكسية وغير ذلك، مما لم يفعل أحد بعض ما فعل، ولم نسمع أيضا بمثل هذا الإكرام والإنعام، على الخاص والعام، فرحمه الله وجازاه أحسن الجزاء، آمين :

وبعد هذا الفرح العظيم، عمل فتحي أفندي الدفتري[1] فرحاً عظيما بهذا الشهر، أعنى به (ربيع الأول، زوج ابنته لابن أخيه، وكان فرحاً عظيما ما عمل بدمشق نظيره)[2] ولا بلغ أحد أنه عمل مثله، وكان سبعة أيام، كل يوم خصّه بجماعة : فاليوم الأول خصّه بحضرة والى الشام سليمان باشا بن العظم، واليوم الثانى إلى الموالى[3] والأمراء، واليوم الثالث إلى المشايخ والعلماء. واليوم الرابع التجار والمتسببين، واليوم الخامس إلى النصارى واليهود، واليوم السادس إلى الفلاحين، واليوم السابع إلى المغانى والمومسات، وهم [كذا] بنات الخطا والهوى. وقد تكرم عليهم كرماً زائداً، ويعطيهم الذهب والفضة بلا حساب. وكان قبل الفرح عمل تهليلة، جمع بها جميع مشايخ الطرق.

وفى السادس والعشرين من ربيع الأول بهذا العام توفى نقيب النقباء فى دمشق، على الحرف والصنايع والطرق، الشيخ عبد الرحمن ابن الشيخ محمد الحلاق القادرى، صاحب الحلقة فى الجامع الأموى.

(١) انظر فيما سبق ص (١٧) حاشية (٢)
(٢) العبارة المحصورة بين قوسين ساقطة من النسخة الظاهرية.
(٣) علماء الأتراك.

وفى يوم الخميس ثامن والعشرين من ربيع الثانى، فى هذه السنة المذكورة، توفى الشاب السعيد، سلالة الطاهرين، ونخبة الصديقين، أحمد أفندى البكرى الصديقى، وكان من النجابة على جانب، ودفن بتربة الشيخ رسلان رحمه الله.

وفى يوم الأحد غرة جمادى الأولى من هذه السنة، شرع حضرة سليمان باشا ابن العظم، فى تعمير وترميم نهر القنوات، وجعل جميع المصارف من ماله جزاه الله خيرا، واشتغل بها من الفعلة مائتا فاعل، فأمر بقطع بعض الصخر من طريقها، وبتشييد أركانها، وإصلاح ما فسد منها، ورفع جدرانها وبضبطها ضبطا جيدا، وبإصلاح فروض مستحقيها على الوجه الحق، وأن يأخذ كل ذى حق حقه. فكانت هذه العمارة والضبط ما سبقه إليه أحد من عهد إصلاحها من أيام التيمور[1] لما أصلحت بعده، وقد [٩ أ] تمت عمارته فى برهة خمسة عشر يوماً فى أول مربعانية الصيف[2]. ولما تم أمر بإطلاق النهر، فكان إطلاقه على أهل دمشق فرجة من أبهج الفرج، ويوم مثل يوم الزحام. وقد أرّخ هذه العمارة شيخ الأدب فى الشام الشيخ عبد الرحمن البهلول[3]، مادحاً حضرة الوزير سليمان باشا ومشيرا لتاريخ تتميم البناء، فقال:

---

(١) يقصد غزوة تيمورلنك بدمشق، وكانت فى سنة ١٤٠١ م.

(٢) مربعانية الصيف: تعبير يطلقه أهل الشام على الأربعين يوماً الأولى من فصل الصيف وفيها يشتد الحر.

(٣) انظر فيما سبق ص ٩ حاشية رقم (١).

جزى المولى أمير[1] الشام خيرا سليمان الزمان ودام دهرا
بما قد جدّد القنوات صدقا بإخلاص زكا سرا وجهرا
فيا طوبى له إذ نال أجرا على مرّ الليالي مستمرا
له في كل مكرمة أياد بإحسان عامت وهلم جرا
فكم صنعت يداه وجوه بر بها أرخ سبيل الخير أجرا
١١٥٦

وفي نهار الثلاثاء سادس عشر جمادى الأولى توفي الشيخ الفقيه العالم الشيخ علي، مدرس جامع عز الدين في باب السريجة[2]، وقد ناهز الثمانين، رحمه الله تعالى.

وفي يوم السبت الثامن والعشرين من جمادى الأولى من هذه السنة، قامت العامة وهجمت على المحكمة، وطردوا القاضي، ونهبوا الأفران. وسبب ذلك كثرة الغلاء والازدحام على الأفران، وقلة التفتيش على صاحب القمح والطحّان والخزان، فتلافى حضرة الوالي سليمان باشا هذا الأمر، وأرسل يشدّد على الطحانة والخبازة، ويهددهم ويخوفهم فحالاً وجد الخبز، وتحسن وكسد، بعد ما كانت غالب الناس تبات بلا خبز، فابتهلت الناس بالدعاء لحضرته.

وفي سادس جمادى الثانية من هذه السنة، توفي الشيخ مصطفى

---

(١) « وزير » في النسخة التيمورية.
(٢) حيّ يقع إلى الجنوب الغربي من دمشق خارج سورها القديم.

ابن شيخنا، وأستاذنا، شافعيّ زمانه، وفاضل أوانه، الشيخ محمد العجلوني، من افتخرت به محلة القنوات، رحمه الله. وبالأمر المقدور، توفيت زوجته أول يوم، ولحقها ثاني يوم، رحمهما الله تعالى.

وفي سابع جمادى الثانية من هذه السنة، خرج سليمان باشا قاصدا قتال الظاهر عمر، حاكم قلعة طبرية[1]، واستصحب معه من العسكر، نحو خمسمائة رجل، ألبسهم قلابق. وكانوا يشبهون الأرنؤط وسماهم الأرانطة. وجاءه فرمان من الباب العالي، بأن يخرج معه والي صيدا ووالي طرابلس والقدس وغزة والرملة وإربد، وقيل ركب معه من جبل الدروز [٩ ب] عشرون ألفاً ويوم العاشر أرسل إلى أغاوات الإنكشارية، وأن يرسلوا له ثلاثمائة انكشاري، وما بقي من العساكر يرسلونهم لمحافظة قرى حوران. وأرسل أيضا إلى عامة قرى الشام بأن يخرجوا من كل قرية عشرة أنفار، ليحافظوا مع الإنكشارية أيضا. ثم سار بتلك الجموع، وحطّ على مرج القدس بفتح القاف والدال في بلاد المتاولة[2]، وأرسل طلب الأمير

(١) انظر فيما سبق ص ٢١، ٢٧، ٢٨

(٢) المتاولة أو بنو متوال، قوم يتخذون بعض مبادىء الشيعة، وكانوا يسكنون جبل عامل من أعمال لبنان. ومن مشايخهم بنو حرفوش في بعلبك، وبنو صعب في مقاطعة الشقيف، وبنو منكر في الشوير والتفاح، وبنو علي الصغير في بلاد بشارة. وكانت الزعامة في بيتهم. وكان كبيرهم، في ذلك الوقت من القرن الثامن عشر، الشيخ =

ملحم[١] ، فجاءه ومعه مائتا خيال . وبعد مدة جاء خبر لدمشق ، بأنه وقع قتال بين الدروز والمتاولة ، فقتل من المتاولة أكثر من ألف وحرقت الدروز بلادهم ونهبت أموالهم . ثم صالت المتاولة على الدروز فقتلت من الدروز نحو خمسمائة رجل ، وكان معهم الأمير حيدر صاحب قلعة دير القمر[٢] ، فهاهم الباشا ، فاعتذروا له فتركهم وشأنهم. ثم رحل حضرة سليمان باشا ، طالباً قلعة دير حنا[٣] (وأخذ معه شيخ المتاولة نصار ومعه نحو من أربعمائة إنسان ، ورجع الدروز ، ولم

= ناصيف النصار ويدعى شيخ مشايخ المتاولة ، وفى معرض التبجيل يقال له (أمير) . وكان الأتراك يكرهون المتاولة والدروز ، ولهذا كانوا يضربون كل طائفة بالأخرى. وقد أشار الأمير حيدر الشهابى (ج ١ ص ٣٢) إلى ذلك القتال بقوله : « وفى هذه السنة (١١٥٦) خرج سليمان باشا وزير صيدا بالعساكر الكثيرة ، فى مرج قدس فخرب بلاد بشارة وبلاد الشقيف وإقليم التفاح ، وبقى الباشا فى مرج قدس ثلاث عشر يوماً » . وواضح أن سليمان باشا كان فى ذلك الوقت ، والياً على الشام ، لا على صيدا ، كما أن البديرى أشار إلى أن هذا التخريب لبلاد المتاولة إنما قام به الدروز .

(١) الاسم غير واضح فى نسختى الظاهرية والتيمورية ، وقد رجحنا أنه الأمير ملحم (الشهابى) زعيم الدروز فى ذلك الوقت . انظر الحاشية التالية .

(٢) أخطأ البديرى فذكر أن صاحب قلعة دير القمر (وهى مقر إمارة الدروز فى ذلك الوقت) هو الأمير حيدر ، فقد توفى هذا الأمير (صاحب الانتصار الكبير الذى أحرزته القيسية على اليمنية ، فى وقعة عين دارة سنة ١٧١٠) فى سنة ١١٤٣ هـ (١٧٣٠ — ٣١) . أما زعيم الدروز فى الوقت الذى يتحدث فيه البديرى ، فهو الأمير ملحم (الشهابى) ، وقد أشار البديرى فيما سبق إلى القتال الذى دار بين سليمان باشا فى أول توليته على الشام وبين الدروز .

(٣) انظر فيما سبق ص ٢٢ حاشية رقم ٥ .

برض معاونتهم ، وكان فى قلعة دير حنا)[١] أبو سعد[٢] أخو الظاهر عمر .

قال [البديرى] : وفى تلك الأيام جاء الخبر إلى دمشق ، بأن القافلة التى سارت إلى بغداد أخذتها العرب ، وكان بها من الأموال ما لا يحصى بقلم ، ومن جملتها هدية وافية من حضرة سليمان باشا والى الشام ، إلى أحمد باشا بن حسن باشا والى بغداد . وقد نقلت الرواة بأن العرب ، الذين أخذوا القافلة من أعوان الخارجى ، الذى خرج من بلاد العراق ، ويسمى طهما سب ، الذى تغلب على ملك العجم وأخذ بلاده ، وعلى ملك الهند وأخذ بلاده ، وقصد مدينة بغداد وحاصرها أشد الحصار[٣]

(١) العبارة الواقعة بين القوسين ساقطة من النسخة التيمورية .

(٢) ذكر الصباغ (ص ٦٠ — ٦٢) أن اسمه سعد. وقد وزع الشيخ ظاهر أبناءه على القلاع ، كما ذكر الصباغ أن سعداً هذا هو الذى دبر مقتل سليمان ، إذ لجأ إلى الباشا متظاهراً بأنه خرج على أبيه وتربص حتى واتته فرصة ملائمة فدس السم للباشا .

(٣) يشير المؤلف هنا إلى (نادر قلى) من قبيلة الأفچار الذى انضم إلى طهماسب (الصفوى) المطالب بعرش إيران الذى اغتصبه الأفغانيون، وانتصر نادر وأصبح وصياً على العرش ، وقد تطلع لاسترداد بغداد من العثمانيين ،فحاصرها (سنة ١٧٣٣)، وبذل واليها أحمد باشا جهداً عنيفاً لإنقاذها ، وتم له ذلك بعد أن وصلته نجدة من القوات العثمانية بقيادة طوبال (الأعرج) عثمان .

انظر : Longrigg : Four Centuries of Modern Iraq .

وقد أطلق البديرى على نادر لقب (الخارجى) لأنه ينتمى إلى الشيعة .

وفى سابع يوم من رجب ، جاء خبر لدمشق بأن سليمان باشا ابن العظم قد مات ، ودخل فى خبر كان ، فحالا قام فتحى أفندى بن الفلاقنسى ، دفتردار الشام ، وختم على دوره وخزائنه وأملاكه[1]. وأقام على ذلك حرساً بالليل والنهار ، وقرّر على أغا المتسلم على حاله ، وكتب بذلك عرضاً ، وأرسله للدولة العلية .

وفى ليلة الخميس ثامن رجب من هذه السنة ، فى وقت الفجر أدخلوا سليمان باشا فى تخت ، وأدخلوه لسراية الحكم[2]، وغسّلوه بها ودفنوه ضحوة النهار ، فى مدفنهم فى باب الصغير ، بجوار سيدنا بلال الحبشى ، فى القبر الذى فيه ولده إبراهيم بيك ، بوصية منه رحمه الله تعالى[١٠ ا] رحمة واسعة . فقد كان وزيراً عادلا ، حليما صاحب خيرات ومبرات ، محباً للعلماء وأهل الصلاح . وقد أبطل مظالم كثيرة ، كانت على أهل الشام ، مثل الشاشية والمشيخة والعرض ، وهى أموال تفرض على الحرف والصنائع والحارات فى الشام مرة أو مرتين فى السنة .

قال المؤرخ البديرى : وقد أخبرنى بعض من أثق به عن سبب موته ، وهو أنه دخل إلى حمام عكة[3] ، وخرج منه محموما ، وأن الظاهر

---

(١) كان لمسلك فتحى أفندى الدفترى هذا ، أثر فى إغضاب أسعد باشا العظم عليه ، حتى دبّر مصرعه ليأخذ بثأر عمه ، كما سيذكر البديرى فى حوادث سنة ١١٥٩ .

(٢) السراى مقرّ الباشا ، وهى قريبة من القلعة ، وقد أطلق عليها فى العهد التركى المتأخر (المشيرية) ، ويقوم فى موضعها الآن (القصر العدلى) .

(٣) أشار الصباغ فى تاريخه لظاهر العمر (ص ٦٢) إلى مسألة الحمام هذه ، ولكنه أضاف إليها أن سعداً بن ظاهر احتال حتى دس السم لسليمان باشا فى كأس =

عمر حاكم طبرية أرسل له كتابا ، يطلب منه الصلح فأبى ، وقال لا يمكن إلا برأسك . فأرسل الظاهر عمر يستغيث به ، ويقول خُذ من الأموال ما تشاء ، ودع سفك الدماء والقتال ، وارحم النساء والأطفال . فلم يقبل سليمان باشا ، إلى أن دخل الحمام وخرج محموماً ، وعلم أنه ميت لا محالة ، ثم إنه أوصى أن يرحل به إلى الشام ويدفن عند ولده ، ثم قضى نحبه رحمه الله تعالى . فكتم الأمراء موته ، ورحل ألاى بيك وأكابر الدولة . مع كخية سليمان باشا من عكة ، ومعهم العساكر والمدافع ، وقربوا من طبرية ، ثم ضربت المدافع ، ونزلوا على طبرية ، بعد ما وضعوا الباشا فى التخت وحوله الجوخدارية ، والغلمان تروّح له بالمراوح يمينا وشمالا ، وأمروا الخدام أن تنادى بالعسكر وهم مارين : الله ينصرك يابو خرما[1] يا سليمان باشا . ثم أمر أن تفرد البيارق وتصطف العساكر وتسير ، ومرّوا على طبرية ، ولم يدر أحد ماجرى[2] . ولما وصلوا إلى جسر بنات يعقوب بلغهم أن خمسة آلاف

= الشراب بالحمام . و «عكة» هنا ليست واضحة ، لأن «عكا» كانت مقراً لظاهر العمر وهى بعيدة عن مسرح القتال فى طبرية . وذكر القار (ص ٦٩) أن سليمان باشا مات بقرية « لوبية » بالقرب من قلعة طبرية ، ويتفق معه رسلان بن على القارى (ص ٧٨).

(١) « خرما » اسم ابنة سليمان باشا ، وقد جرت عادة العرب أن يكنوا الرجل بابنته .

(٢) تختلف رواية البديرى عن رواية الصباغ الذى ذكر (ص ٦٤) اضطراب جند الشام ، بعد موت سليمان باشا وانسحابهم بدون نظام ، واستيلاء جند ظاهر العمر على أموالهم ومتاعهم .

من المتاولة كامنين لهم ، فرحلوا أول الليل وجدّوا فى السير ، فلطف اللطيف ، ووصلوا للشام طلوع الفجر . ويوم دخولهم قامت الأنكشارية وقتلوا جماعة من الدالاتية تعدياً بلا سبب . وأما فتحى جلبى الدفتردار فإنه أمر بسجن السلحدار والخزندار والسيد محمد بيك ، ابن عم سليمان باشا ومحمد آغا الديرى ، وكيل الخرج[1] والمتصرف بدمشق الشام . وكان سجنهم فى باب الأغا ، ورسم على من معهم من الجماعة ، وأقام ينتظر الجواب .

وفى نهار الأربعاء ، رابع عشر شهر شعبان من هذه السنة ، ورد خبر بأن أسعد باشا بن العظم ، الحاكم فى حماة ، قد تقرّرت عليه ولاية دمشق الشام مع إمارة الحاج . فأبقوا متسلمها على أغا المتقدم ذكره ، إلى حين حضور الباشا المذكور .

وفى ذلك النهار جاء ثلاثة نجابة ، من المدينة المنورة الشريفة على ساكنها أفضل الصلاة وأتم [١٠ ب] السلام ، وأخبروا بأن المدينة محاصرة وأنها ثلاثة أحلاف : حلف مع غزّ القلعة ، وحلف مع الطواشى[2] ، وحلف مع أهل المدينة ، وأنهم فى قتال عظيم ، وأن شريف مكة أرسل إلى الطواشي خمسة عشر بيرقاً تساعده على ذلك ، وأن النجابين المذكورين ، قاصدين اصطنبول ، ليخبروا حضرة السلطان

---

(١) هو المشرف على صرف المهمات .

(٢) أغا السراى ، وهو شيخ الحرم المدنى ، تعينه الدولة ليقضى بقية حياته فى مدينة الرسول .

بذلك الحال[1] .

وفى يوم السبت ، الخامس والعشرين من شعبان المبارك ، الواقع فى سنة ١١٥٦ ، كان دخول أسعد باشا ابن العظم لدمشق الشام والياً . وكان دخوله من مسجد الأقصاب ، وهى المحلة المشهرة عند أهل الشام بمز القصب . ودخل بموكب عظيم من الأنكشارية ، وأكابر دمشق وأمرائها وأعيانها .

وفى ليلة السبت ، حكم قاضى دمشق بإثبات هلال رمضان ، وضربت المدافع قبيل العشاء ، وصليت التراويح فى جامع الأموى وفى سائر الجوامع .

وفى ليلة الخميس خامس رمضان المذكور ، سافر أسعد باشا بعسكره على الدورة[2] ، وترك على البلد المتسلم على أغا المتقدم ذكره . وكان خروجه بزمن معتدل ، والبلد بأمن وخير كثير ، فرطل الخبز بخمسة مصارى ، وأوقية السمن بستة مصارى ، ورطل الأرز بتسعة مصارى ، ورطل اللحم بثمانية عشر مصرية ، وغرارة القمح

(١) يشير البديرى هنا إلى بعض وقائع النزاع بين شريف مكة — وهو إذ ذاك الشريف مسعود — وخصومه من الأشراف . [انظر أحمد بن زينى دحلان : خلاصة الكلام فى بيان أمراء البلد الحرام — نسخة على هامش كتابه : الفتوحات الإسلامية بعد مضى الفتوحات النبوية . الطبعة الثانية . ص ٩٥ — ٩٨] .

(٢) انظر فيما سبق ص ٣٦ حاشية رقم (١) .

بخمسة وعشرين قرشا . والغلاء بهذه الدرجة ، ولم يكن محل ولا جراد، ولا قلة مطر، ولكن من قلة التفتيش ،والالتمات . وقد سافر حضرة أسعدباشا ، وأتى المتسلم المذكور آنفا ، وقد ترك كل شيء على حاله .

وقد توسط فتحي أفندى الدفترى [في] الصلح بين الظاهر عمر حاكم طبرية، وبين حضرة أسعد باشا.فأرسل له الظاهر عمر أربعين حملا محملة أرزا وسكرا وجوخا ، وهذا ما عدا لفتحي الدفترى مما اختص به ، فإنه كان هو السلطان فى الشام ،وصاحب نفوذ الكلام ، وكلامه يقضى الأشغال ، والأمر مفوض لذى الجلال .

وفى تلك الأيام وصلت الأخبار ، بأن الخارجي المسمى بطهماسب[١] ، وصل إلى أرض العراق ، وأخذ مدينة كركوت[٢] ، ويحاصر الموصل وبغداد ، وقد باع الحريم والأولاد ، نسأله تعالى اللطف بالعباد .

وفى تلك الأيام ، رجعت الإفتاء إلى حامد أفندى ابن العمادى[٣] . وفى ليلة السبت خسف القمر ، بعد نصف الليل خسوفاً فاحشاً ، وبقى إلى أن طلع النهار . وفى رابع عشر شهر رمضان من [١١١] هذا العام ، ألقى رجل نفسه من أعلا منارة جامع الدقاق إلى الأرض ؛

---

(١) انظر فيما سبق ص ٤٤ حاشية رقم (٣)
(٢) لعله يقصد كركوك .
(٣) انظر فيما سبق ص ٢٩ وحاشية رقم (٣)

فهلك سريعاً ، بعد أن تكسر جسمه ، واسمه الشيخ حسن بن الشيخ يوسف الرفاعي . فسألنا عن سبب ذلك ، فقيل لنا إن أخا زوجته أتى بامرأة إلى بيته ، وكانت من الخطيئات ، فنهاه عن ذلك ، فنهره وضربه ، فذهب فأخبر أكابر الحارة ، فلم يلتفتوا إليه لأنهم فوق ذلك بالانغماس ، فذهب إلى جامع الدقاق ، وصلى الصبح مع الإمام ، وصلى على نفسه صلاة الموت ، وصعد المنارة ونادى : يا أمة الإسلام ، الموت أهون ، ولا التعريص مع دولة هذه الأيام ، ثم ألقى نفسه إلى الأرض ، عفي الله عنه . وفي ثامن عشر من هذا الشهر رمضان ، وضع رجل يقال له المجرى ، طبنجة في بطنه وقتل نفسه ، فسألنا عن سبب ذلك ، فقيل لنا هذا رجل عليه دين ، فقتل نفسه من شدة كربه وقهره ، مع أنهم أخبرونا أنهم وجدوا عنده نحوا من خمسة أكياس قمح مخزونة ، فما سمحت نفسه أن يبيع شيئاً منها ويوفي دينه ، فخسر دينه ودنياه .

وفي يوم الثلاثاء في الخامس والعشرين من رمضان ، في هذه السنة ، أغلقت أهل الشام دكاكينها ، وقامت الأشراف على بيت فتحي أفندي الدفتردار . وسبب ذلك أن تابعا من أتباع فتحي أفندي ، يقال له العفصة ، شتم السيد علي أفندي النقيب ، وسحب عليه السلاح ، وعلى السيد علي أفندي بن الشيخ مراد الكسيح في جامع الأموي . فاجتمعت الأعيان ، وعملوا ديوان [كذا] ، وأخرجوا فتوى في قتله وإباحة دمه .

فوقع التفتيش عليه ، فتخبأ فى بيت مصطفى آغا بن خضري الشربجى فى الميدان ، وكان هذا لعفصة قوّس[1] السيد على أفندى المرادى، وهو داخل إلى داره فلم تصبه ، فانزعجت البلدة ، واجتمعت الأكابر والأغاوات والقبجية[2] والبلطجية وأمين الصرة ، عند القاضى فى المحكمة ، وعملوا عرض [كذا] فى فتحى أفندى الدفتردار، بأنه من أعظم المفسدين هو وأتباعه ، وأرادوا يرسلوه إلى الدولة العلية ، ولكن انظروا مجيء حضرة أسعد باشا من الدورة ليختمه ، وثانى يوم بطلت همتهم ، وكان كلامهم كما قيل : كلام الليل يمحوه النهار .

وفى ليلة الجمعة ثامن والعشرين [١١ ب] من رمضان ، وجد فى جامع الأموى، عند باب الكلاّسة ، رجل شحاذ مذبوح ، وعلى صدره فلوس مبدورة ، وما ظهر غريمه ، وقيل ظنوا أنهم ذهب ، فذبحوه لذلك ،فلما وجدوهم فلوسا[3] بدروهم عليه بعد قتله .

وفى يوم الخميس رابع شوال ، قدم أسعد باشا من الدورة .
وفى تاسع شوال توفى على آغا بن الترجمان ، وكان رجلا ثناؤه بين

---

(١) أى أطلق الرصاص ، فى تعبير أهل الشام .

(٢) المفرد قابجى أو قبجى ، تعريف للكلمة التركية قبوجى ، ومعناها بوّاب أو حارس باب السلطان . ويلاحظ أن هذه الوظائف خرجت عن مدلولاتها الأصلية وأصبحت مجرد ألقاب ، وفى الغالب كان رسول السلطان يدعى قابجى أو قبجى باشى .

(٣) أى نحاساً .

الناس جميلا . وكان قبل يومين ، عمل أسعد باشا ديوان [كذا] وجمع فيه الأكابر والأعيان ، وسعّروا الحنطة والخبز ، فجعلوا غرارة الحنطة بخمسة وعشرين قرشا ، ورطل الخبز بخمسة مصارى . وهذا أمر التسعير لا يستقيم على الخصوص فى الشام .

وفى يوم الاثنين ، خامس عشر شوال ، رحل أسعد باشا أميرا للحاج بالمحمل الشريف ، متوجها إلى مكة المشرفة ، ونهار السبت فى عشرين شوال رحل الحاج الشريف . وكان الفصل فصل الشتاء ، والسماء صاحية ، وكان غلاء وبعض الطاعون . وبعد سفر الباشا بقى رطل الخبز بخمسة مصارى . ولكن صارت غرارة القمح بثلاثين قرشا . ثم ضجت العامة ، ورجموا القاضى ، وما أفاد شىء .

قال المؤرخ (البديرى) : وفى ذلك اليوم أفادنا أستاذنا شيخ قُرّاء الشام ، الشيخ إبراهيم الحافظ ، ومن قال فى حقه أستاذ الشام الشيخ عبد الغنى النابلسى : من أراد أن يسمع القرآن كما أنزل ، فليسمعه من فم الشيخ إبراهيم النابلسى ، (أفادنا) بقراءة هذا الدعاء المبارك ، وخاصيته لهجوم المخاوف فى السفر والحضر ، وهو هذا الدعاء :

« بسم الله الرحمن الرحيم . لقد جاءكم رسول من أنفسكم »

« عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم . »

« بسم الله الخالق ، الطائل الأكبر ، حرز لكل خائف ، »

« لا طاقة لمخلوق ، مع الله عز وجلّ ، اللهم إنى فى حماك »
« وتحت لوائك ، فارحم حماك وانشر علينا لواءك »
« واكشف عنا بلاءك الخارج من أرضك ، والنازل من »
« سمائك ، مطشين[1] ، فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو »
« عليه توكلت وهو رب العرش العظيم . »

وفى نهار الثلاثاء ، الثالث والعشرين من شوال ، توفى الشيخ العالم الفقيه الواعظ الشيخ أحمد الخطيب . الواعظ والإمام فى جامع الدقاق فى محلة القبيبات[2] قبلى دمشق [١٢ ا] الشام ، وهى الميدان التحتانى عند باب الله[3] . قال المؤرخ : وتلك المحلة بها مولدى ، ومسقط رأسى وبها منزلنا ، وبعد وفاة والدنا انتقلنا منها إلى محلة التعديل . وكان الشيخ أحمد المذكور رجلا فاضلا ، فقد أحيا تلك المحلة بالعلوم والدين ، وانتفع به كثير من المسلمين .

وفى اليوم الثالث والعشرين من شوال من هـذه السنة ، قدم

---

(١) كذا ، ولعلها كلمة سريانية مما يدخل أحياناً فى أدعيات الروحانيين والمتصوفة .

(٢) إحدى محلات دمشق القديمة ، تقع جنوبى ميدان الحصا فهى فى طريق الحجاج إلى الحجاز . وكانت فى الأصل قرية يسكنها زراع المناطق المجاورة ، والقبيبات هى القباب الصغيرة ، وقد ولد أحمد البديرى فى هذه المحلة .

(٣) أحد أبواب دمشق القديمة ، فى الطرف الجنوبى منها ، غير بعيد من مسجد القدم ، وهو نهاية طريق الميدان ، ومنه يخرج الحجاج متجهين إلى بيت الله الحرام .

سلخور[1] من جهة السلطان ، بتحصيل مال سليمان باشا[2] ، وقدره اثنا عشر ألف كيس ، ودخل الشام مثل شعلة النيران ، وأخرج حرم سليمان باشا من ديارهم إخراجا شنيعاً ، وصاروا يفتشونهم [كذا] ، واحدة واحدة ، مع التفتيش فى جيابهم وأعبابهم ، وختم على جميع مخادع الدار ، وأمر بالقبض على ابن عم[3] المرحوم سليمان باشا ، وهو السيد محمد ، وعلى جماعة أخرى معه ، وأمر بالترسيم[4] الشديد عليهم ، وسأل عن محمد اغا الديرى ، وكيل خرج سليمان باشا ، فأخبروه أنه ذهب مع أسعد باشا إلى الحج ، فأمر بجلبه ، فجاؤا به ، وأمر بالترسيم عليه .

قال المؤرخ البديرى : ثم أحضر السلخور القاضى والأعيان ، واستجاب حرم سليمان الباشا ، وأحضر الجلاد وآلة العذاب ،

---

(١) سلخور تحريف لسلاحشور ، وكان يطلق على رسول السلطان .

(٢) تتفق مع رواية البديرى عن ضبط أموال سليمان باشا روايات أكثر مؤرخى تلك الحقبة من تاريخ الشام . أما الصباغ ، صاحب سيرة ظاهر العمر ، فيذكر (ص ٦٥) أن عثمان باشا ، كتخدا سليمان باشا ، هو الذى ضبط مال سيده ، فنال ثقة الدولة ، فجعلته خلفاً له ولقب بعثمان باشا الوكيل . وواضح أن عثمان باشا كان وكيلا لأسعد باشا المعظم الذى خلف عمه فى ولاية دمشق ، وأن عثمان قام بضبط أموال أسعد باشا ، ولهذا لقب بالصادق ، وتولى ولاية الشام فى سنة ١١٧٣ .

[انظر البديرى فى حوادث سنة ١١٧٣ والأمير حيدر الشهابى ج ١ ص ٥٥]

(٣) فى النسخة التيمورية أنه (ابن) الباشا ، وهو خطأ

(٤) أى التحفظ عليهم .

وشدد على الحريم بالطلب ، وأن يعلموه عن المال أين مخبأ ، فلما رأوا التشديد خافوا من العذاب وأقروا له عن بعض مخابىء تحت الأرض ، فأرسل خلف المعمارية الذين عمروا السرايا ، وكانوا نصارى ، وكان المعلم نصرانياً يقال له ابن سياج ، فأمر القبجى بتعذيبهم ، وقطع رؤسهم وأيديهم ، فلما تحققوا عذابهم قالوا : نحن ندلك على كل ماعمل ثم أنهم حفروا له تحت الدرج ، فبان عن سرداب ، فرفعوا عنه التراب ، ونزلوا فى درج ، فظهر مكان واسع وفيه صندوق مقفول وعليه غالات وقفول ، فأخرجوه وفتحوه ، فرأوه ملآن من الدراهم والريالات . ثم أخرجهم النصرانى إلى مخدع ، فحفر فى دوائره ، فإنه فيه سبع برانى ، مملوءة من الذهب المحبوب السلطانى ، فلما رأى الحاضرن ذلك الحال زاغت منهم الأبصار ، ثم عدوه وضبطوه ، فوجدوه ثمانمائة كيس وخمسين كيسا . فلما بلغ الناس ماخرج عنده من هذا المال ، وكان فى أيام شدة الغلاء ، مع سوء الحال ، لهجوا بالذم والنكال ، وقالوا قد جوّع النساء والرجال والبهائم والأطفال حتى جمع هذا المال من [١٢ ب] أصحاب العيال ، ولم يراقب الله ذا الجلال .

وقبلا جاء قبجى لضبط مال سليمان باشا ، فضبط ألفين وخمسين كيسا ، فلم يره بشىء [كذا] . وقد كان فتحى أفندي الدفتردار اشترى غالب متاعه والأغلال ، فكان عنده من القمح ما بلغ ثمنه

خمسة وعشرين كيساً . وكانت الغرارة بخمسة وعشرين غرشا ، والكيس بخمسمائة غرش ، فانظر كم غرارة بخمسة وعشرين كيسا ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . وسيأتى الكلام على بطش الله ، وغضبه بالدفترى المذكور ، لأن الله تعالى يمهل ولا يهمل . ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون .

وفى اليوم الرابع والعشرين ، وهو يوم السبت من شهر ذى القعدة ، توفى الشيخ محمد المكتبى ، هو وابنه ، فى الطاعون المشتد فى هذه الأوقات . وكان إماما فى الجامع القلعى ، وشيخ كتاب فى محلة الخراطين ، فتوفى هو فى أول النهار ، وابنه فى آخره . وكان مبدأ هذا الطاعون أول الخريف ، فى أواخر الصيف ، واستمر حتى دخل الشتاء وزاد كثيراً ، وقد قيل بدخول السنة الجديدة يذهب .

وفى أوائل ذى الحجة ، طلع نجم له ذنب ، من جهة الغرب ، ويستمر إلى بعد العشاء بقليل ، واستقام إلى أن دخلت السنة الجديدة .

سنة ١١٥٧

وكان دخولها غرة محرم[١] الحرام يوم السبت سنة سبع وخمسين ومائة وألف ، ١١٥٧ ، فبقى النجم الذى له ذنب ، يطلع من جهة الغرب ، ثم صار يطلع من جهة الشرق ، وذنبه إلى الغرب .

---

(١) يوافق ١٥ فبراير (شباط) ١٧٤٤

وفى تلك الأيام قتل نفسه شيخ التكية . وفى تلك الأيام كثرت بنات الخطا ، ويتبهرجن بالليل والنهار ، فخرج ليـــلة قاضى الشام بعد العصر إلى الصالحية . فصادف امرأة من بنات الخطا ، تسمى سلمون ، وهى تعربد فى الطريق ، وهى سكرى ومكشوفة الوجه ، وبيدها سكين . فصاح جماعة القاضى عليها ، أن ميلى عن الطريق ، هذا القاضى مقبل ، فضحكت وصاحت وهجمت على القاضى بالسكين ، فأبعدوها [كذا] عنه أعوانه . ثم جمع القاضى الوالى والمتسلم ، وذكر لهم ماوقع له مع هذه العاهرة ، فقالوا له هذه من بنات الخطا واسمها سلمون ، وافتتن بها غالب الناس . حتى صار ينسب إليها كل حاجة أو متاع ، فيقولون هذا المتاع سلمونى ، وهذا الثوب سلمونى . فأخرج المفتى فتوى بقتلها ، وإهدار دمها تسكيناً للفتنة ، ففتشوا عليها وقتلوها . (١٣ ا) وأرسلوا منادياً ينادى فى البلد ، أن كل من رأى بنتاً من بنات الخطا والهوى ، فليقتلها ودمها مهدور ، فسافر [عدد] منهن وانزوى البقية . ومع ذلك فالطاعون مخيم فى الشام وضواحيها ، مع الغلاء ووقوف الأسعار .

وفى نهار الأربعاء تاسع عشر محرم من هذه السنة ، ورد من الدولة العلية خط شريف إلى القبجى ، الذى جاء لضبط مال سليمان باشا ، بأن يجمع أعيان البلد ويقرأ عليهم الفرمان ، ومضمونه بأن يفتش ويفحص على مخلفات الباشا المذكور ، وأن يعذب الرجال والنساء

بلا معارض ، حتى يقرّوا بالمال . فأجابوا بالسمع والطاعة . فأول من أتى به ، ابن عم الباشا السيد محمد وهدده ، فحلف بالطلاق ، أن ما عنده علم وقيل ضربه ، فأقرّ على مكان ، وقال احفروا هنا ، فحفروا فى دار الباشا حول الوجاق . فبان عن أربع زلع ذهب ، فيهم ستة عشر ألف ذهب . ثم ضربوا الطواشى ، فأقرّ بأنه مودع عند رجل ، يقال له الحاج حسن الطرابلسى ، بخلاة ملآنة ريالات . فسارت إليه الأعيان ، وأتوا به وبالمال ، فأخرجوه فوجدوا داخل الخلاة بين المال جوهرة ليس لها قيمة . ورأوا المال ناقصا عن ماقال الطواشى ، فأمر القبجى بحبس الذى خرج من عنده المال ، وحبس أولاده ومن يلوذ به . وأمر بحضور نساء الباشا وحريمه . وقد ذكرنا أولا أنه أخرجهم [كذا] من الدار عنفاً وتركهم تحت الترسيم ، والآن امر بإحضارهم فأحضروهم ، وصار يقررهم فأنكروا وجحدوا ، فأمر بحبسهم ، فحبسوا فى باب البريد[1] وشدد عليهم . وكان لسليمان باشا سرية مقدمة على جميع محاظيه تسمى زهرا ، كأنها البدر فى أفق السماء . وكان قد تركها القبجى عند سليمان بيك وكيل سليمان باشا على أملاكه تحت الترسيم . فلما جاءه الفرمان بعقوبة الرجال والنساء أمر بإحضارها ، وسألها عن المال ، فأنكرت وادعت أنها مارأت شيئا ولم تعرف شيئا ، فأمر بضربها ، فضربت على وجهها ويديها وأجنابها ، حتى عدمت صوابها

(١) أحد أبواب مدينة دمشق القديمة ، ولا يزال اسمه يطلق على الطريق المؤدى إلى المكتبة الظاهرية ابتداءً من المسكيّة .

فلم تقرّ بشيء ، [١٣ ب] وهى تحلف أن ليس لها علم ولا خبر ولا أطلعها [سيدها سليمان باشا] على أمر ، فتركها تحت الترسيم ، لأنه جبار لئيم وشيطان رجيم ليس له شفقة على الحريم ، عذّبه الله بنار الجحيم ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم . ثم بعد ذلك جمع القبجى جميع حريم الباشا الجوار [ى] والأحرار جملة واحدة ، وأخذ جميع ما معهم [كذا] وما عندهم من ذهب وفضة ومتاع وحلى وألبسة وجميع ما تقتنيه النساء ، وذلك بعد العذاب والإهانة والضرب الشديد . قاتله الله بجلود لا دباغ لها وعذبه بنار الخلود .

ثم إن سليمان باشا كانت له زوجة هى بنت الشيخ ياسين القادرى ، لما رأت ما حل بصحيباتها من الإهانة سألها القبجى عن مال زوجها الباشا ، وهددها بالعذاب ، فخافت وأعطت له شكلا من الذهب يساوى عشرة أكياس ، وأعطته تمسكات ، وهى سندات كانت على بعض التجار بنحو مائة وخمسين كيسا . وكان جميع ذلك المال إرثا عن أبيها الشيخ ياسين القادرى ، رحمه الله وقدّس سره .

وكل هذا الحال وأسعد باشا العظم فى الحج . ولما جاء أسعد باشا من الحج عمل ديوانا ، وحضر القبجى وأخرج خطاً شريفاً بأن أمره مفوض يفعل ما يشاء من تعذيب وقتل وحبس ، ولا أحد

يعترضه . وقد ظن الناس أن أسعد باشا يقوم ويقعد لذلك ، فخرج الأمر بخلاف ذلك ، وقام ولم يحرك ساكنا . وسيأتى قريباً أخذ ثأر سليمان من فتحى أفندى الدفتردار .

ثم بعد مدة جاء فرمان بالعفو نامه ، وجمعوا محمد آغا بن الديرى والسيد محمد بن عم سليمان باشا والسيد سليمان ، فباعوا القمح والأملاك وما بقى من الأمتعة والزردخانة[1] إلى أسعد باشا بأربعمائة كيس .

وفى نهار الخميس خامس ، جمادى الأولى ، سافر الى إصطنبول القبجى المذكور . وقد ظنت الناس أن أسعد باشا ابن أخى سليمان باشا يفعل أمراً فى القبجى وفى فتحى الدفتردار فلم يقع منه شئ وسيأتى تدبيره فى تدمير الدفتردار قريباً .

وفى آخر جمادى الثانية جاء خبر من الدولة العلية فى طلب فتحى أفندى الدفتردار ، فسار صحبة القبجى الذى جاء فى طلبه .

وفى خامس يوم رجب تعصبت أعيان الشام ، وعملوا عرضاً فى فتحى أفنـــدى [١٤ ا] بأنه من المفسدين ، وما تم [الأمر] معهم لاختلاف كلمتهم .

---

(١) الزردخانة المكان الذى يحفظ فيه السلاح ، ويقصد بها هنا السلاح نفسه .

وفى ليلة الثالثة والعشرين من رجب بعد العشاء انشقت السماء ونزل منها آفة عظيمة ، واشتهر ذلك بين الناس. قال المؤرخ : ولم أرها بعينى .

وفى ثامن يوم من شعبان دخل قاضى الشام محمد أفندى زاد ، وكان رجلا عاقلاً ، إلا أنه ما عنده سياسة ولا تدبير .

وفى اليوم الرابع عشر من شهر رمضان بهذه السنة جاء فتحى أفندى الدفتردار من اصطنبول ودخل الشام بفرح وسرور ، ولم ينله أدنى ضيم . وسبب ذلك ما بذل فى الإصطنبول من المال الذى به تميل قلوب الرجال. وكان محسوباً على القظلار[1] وجماعة من رؤساء الدولة كبار . وقيل إنه دخل إصطنبول سراً وفرق المال سراً وجهراً ، وكان قد طلبه السلطان ، فزيّنوا رجلا بزيه ، وأدخلوه على الملك ، فقرعه بالكلام وبما وقع منه ، وما أرسلت أهل الشام من الشكايات عليه ، فكان كلما قال له حضرة الملك محمود خان كلاماً يشير له برأسه أن نعم ، وكان قد أمره بذلك من أدخله ، فحالا أمر بقتله فقتل ، وهو يظن أنه فتحى أفندى الدفتردار ، ثم أمروا فتحى أن يلحق بالشام ليلا . وفى آخر ذى الحجة بطلت المعلوس[2] الذى (كذا) كانت ضرب الشام .

---

(١) تحريف لوظيفة « قزلر أغاسى » أى الأغا الذى يشرف على حريم السلطان وكان عبداً خصياً ، وله نفوذ قوى فى بلاط السلطان .

(٢) عملة من نحاس . انظر فيما سبق ص ٣٥ ، ٥١ .

سنة ١١٥٨

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين ومائة وألف نهار الثلاثاء[١] . وقد تفاقم الأمر من تعدى الزرباوات[٢] وهم الأشقياء ، فاستطالوا فى سب الدين وظلم الناس وغير ذلك . وحاكم الشام حضرة أسعد باشا لا يحرك ساكناً ، ولم يفعل شيئاً ، حتى صاروا يسمونه سعدية قاضين[٣]، نائمة مع النائمين ، ونرى الأشقياء للعرض والمال مستحلين[٤]. لكن البلد من الحركات ساكنة ومن ظلم الحكام آمنة .

وفى خمسة عشر من جمادى الثانية توفى الشيخ الفاضل معتقد أهل

---

(١) يوافق ٣ فبراير (شباط) ١٧٤٥ .

(٢) انظر فيما سبق ص ٥ ، ١٨ ، ٣٠ .

(٣) قادين وهى السيدة ، وفى النسخة التيمورية : سعدية خاتم .

(٤) أشار إلى هذا المعنى القارى [ص ٧٩] فقال عن أسعد باشا فى أول حكمه : « وما تعرض لأحد بظلم ولا قتل أحداً . فلما نظر أوجاق الانكشارية هذا الفعل احتقروه وطمعوا فيه » . وفى ذلك يقول المرادى [ج ٣ ص ٢٨٧] : « لأن الشقى منهم كان إذ ذاك يجيء إلى حبس السرايا ويخرج من أراد من المحبوسين من غير إذن أحد علنا وقهراً ، وإذا مر الوزير بهم وهم جالسون لايلتفتون إليه ولا يقومون له من مجالسهم . بل يتكلمون فى حقه بما لا يليق بمسمع منه ، فيحتمل مكارههم ولا يسعه إلا السكوت، واستمر أمرهم على ذلك إلى أن كتب فى شأنهم الدولة العلية ، فورد الأمر بقتلهم وإبادتهم . فأخفاه الوزير مدة ، ثم بعد ذلك أظهره وشرع فى قتلهم وإبادتهم ؛ وأعطاه الله النصر ، وفرجت عن أهالى دمشق الشدائد وأزاح الله هذه الظلمات بمصابيح النصر والفتوحات . »

الشام على الإطلاق الشيخ يوسف الطباخ الخلوتى . قال المؤرخ : ومما منّ الله به علىّ أن حلقت رأسه واغتنمت دعاءه ، رحمه الله ورضى عنه .

وفى نهار الاثنين الحادى والعشرين من جمادى الثانية من هذه السنة قامت العامة من قلة الخبز وغلو الأسعار وهجموا على السرايا ، رافعين أصواتهم بالبكاء والتضرع ، قائلين ما يحل من الله قلة الشفقة على العباد الذين تضرروا بالغلاء ، وأنت حاكم الشام ومسئول عند الله عنا ومن هذه الأحوال . فقال لهم أسعد باشا : [١٤ ب] اذهبوا إلى المحكمة ، واشكوا حالكم إلى القاضى . فاقبلوا نحو المحكمة ، واصطرخوا فيها يشكون حالهم وما أصابهم وما هو واقع بهم . فخرجت جماعة القاضى بالعصى وطردوهم ، وكان ذلك بأمر نائبه ، فهجمت العامة ورجموهم بالحجارة ، فأمر القاضى أعوانه أن يضربوا بالبارود فضربوهم ، فقتلوا منهم رجلا شريفاً وجرحوا منهم جماعة ، فغارت العامة عليهم ، وساعدهم بعض الانكشارية ، فهزموا القاضى وقتلوا باش جوقدار وبعض أعوانه ، ونهبوا المحكمة وحرقوا بابها ، وسكرّت الناس البلد ، فركب بعض الأغارات وردّ الناس . وأما القاضى فقد هرب من فوق الأسطحة هو ونائبه وجماعته ، فأخذه بعض الأكابر وصار يأخذ بخاطره ، لخلف القاضى لا يسكن هذا الشهر إلا بالقلعة . ثم جمعوا مال القاضى ومتاعه والذى نقص منه فرضوه على خزينة الوجاق[1] وعلى

---

(١) يقصد أوجاق الانكشارية .

بعض الأكابر والأعيـان ، وأرضوا القاضى وصالحـوه وإلى المحـكمة ردّوه .

وفى نهار الثامن والعشرين من جمادى الثانية توفى الشيخ الزاهد صاحب الأحوال والكرامات الشيخ أحمد النحلاوى الأحمدى ، ودفن بزاويته القاطن بها جوار ستى خاتون شاه أخت الملك العادل السلطان نور الدين الشهير بزقاق المحـكمة .

ثم فى هذه الاوقات زاد غلوّ الأسعار وقلت الامطار وعظمت أمور السفهة والاشرار ، حتى صار رطل الجبن بنصف قرش والبيضة بمصرية وأوقية السيرج بنصف الثلث ، ومد الشعير بنصف قرش ، ومد الحمص بنصف قرش ، ومد العدس بنصف قرش ، وغرارة القمح بخمسة وأربعين قرشا ، بعد ما كانت بخمسة وعشرين غرشا ، وأوقية الطحينة بأربعة مصارى ، والدبس كل ثلاثة أرطال بقرش ، ورطل العسل بقرش وربع ، وكل شىء نهض ثمنه فوق العادة ، حتى صار مدّ الملح بنصف قرش[1] .

وفى تلك الأيام هلك مصطفى آغا ابن القبانى كيخية الانكشارية بمرض أعيا الأطباء برؤه ، وكان من الذين يدخرون القوت ويتمنون الغلاء لخلق الله ، فعجل الله العذاب والعقاب ، لقد بلغنى عنه أنه لما أرادوا دفنه حفروا له قبراً فوجدوا فيه ثعبانا عظيماً ، فحفروا غيره فوجدوا كذلك ، حتى حفروا عدة قبور وهم يجدون الثعبان قلت : وقد سبق

(١) فى النسخة التيمورية : قرش وربع .

ذلك فيما سلف لبعض الظلمة . وقد وجدوا فى تركته من السمسم ماية غرارة ، على أن فى البلد كلها لم [١١٥] يوجد مدّ سمسم ، ووجدوا من القمح شيئاً كثيراً ، وقد طلب منه أن يبيع غرارة القمح بخمسة وأربعين قرشاً فلم يقبل ، وحلف لا يبيعها إلا بخمسين ، فهلك ولم يبع شيئاً ، فبيعت فى تركته ، ورحم الله عباده بموته ، لأنه أرحم الراحمين .

سنة ١١٥٩

ثم دخلت سنة تسع وخمسين ومائة وألف ، وكان أوّلها يوم الأحد[١] . وقد دخل قاضيها مصطفى أفندى . وقدامه أعوانه حاملين البندق والسلاح ، حتى وصل إلى المحكمة ، وهذا لم يقع لغيره ، ثم جلس فى المحكمة لا يحرّك ساكناً ، وفّقه الله .

وكان الحاكم فى الشام والوالى بها حضرة الوزير الخطير أسعد باشا ابن العظم ، أيّده الله وأعزّ كلمته . وكان غائبا فى الحاج ، والمتسلم والكيخية موسى[٢] . ولكن الغلاء قائم على قدم وساق ، مع الكرب والخوف والشقاق .

---

(١) يوافق ٢٤ يناير (كانون ثان) ١٧٤٦

(٢) هو الكتخدا موسى أغا ، وقد عين بعد ذلك واليا على صيدا [الصباغ ص ٧٦] .

وفى ثالث صفر دخل الحاج دمشق نهار الخميس صحبة أميره المعظم والوزير المفخم حضرة الحاج أسعد باشا العظم ، فهو والحجاج على غاية من الصحة والسلامة . ثم بعد ذلك أرسل يطلب الدالاتية[1] طالباً حثيثاً ، فلما رأت الانكشارية [ذلك] ضاقت عليهم الأرض ، وقالوا كأقوالهم السابقة[2] فى قلة أدبهم : الست سعدية تريد أن تغدر بنا ، وهذا الأمر لايخوفنا . ثم زادوا بحمل السلاح ونهب المال وسبى العرض وسبّ الدين، وغير ذلك من القبائح . ولما زادوا عتوّاً وفتكاً، ولم يراقبوا حضرة الحق جل جلاله ، أرسل الله تعالى من غضبه ريحاً شديدة على الشام ، ما رؤى مثلها فى سالف الأيام . فقلعت الأشجار من أصولها وأرمت غالب الجدران ، حتى ظنت الناس أن القيامة قد قامت .

وفى يوم الاثنين ثانى عشرين صفر من هذه السنة المذكورة بينما الناس قبل الظهر فى أشغالهم، وإذا بضجة عظيمة وضرب بارود ، فقيل ما الخبر ، قيل ملكت الدالاتية القلعة ، فسكرّت البلد وزاد الذعر فى كل أحد ، ولما بلغ الخبر للانكشارية قاموا على قدم وساق . وقالوا : أخذت ما القلعة يا شباب ، واجتمعوا فى باب الجابية[3] بالسلاح الكامل

(١) انظر فيما سبق ص ١٩ — ٢٠ ، ٣١ — ٣٢ ، ٤٧ .
(٢) انظر فيما سبق ص ٦٢
(٣) أحد أبواب مدينة دمشق القديمة . وينسب إلى قرية الجابية ، لأن الخارج إليها كان يخرج منه . صلاح المنجد : دمشق القديمة ص ٥٣ .

ينظرون القتال . ولما وصل الخبر لحضرة أسعد باشا فرح واستبشر ونادى : اطلبوا سوق ساروجا (١) وجدّوا فى الطلب. وأمرهم أن يتركوا جهة القبلة . وكان ذلك منه حيلة وخدعة . ثم نادى فى عسكره نداء شاع فى البلد بأن مراد [ى] أحمد بن القلطقجى وعبد الله [١٥ ب] بن حمزة ومن لهم من الأتباع ، وكانا من رؤساء وأمراء سوق ساروجة . هذا والجنك (٢) يلعب بسوق ساروجة، وكأنه لم يكن حاكم بالشام إلا هم ، فأراد الله تدميرهم . ثم أمر حضرة الباشا أن يوجهوا المدافع على سوق ساروجا ، فوجّهوها عليهم وأمر بضربها بالكلل فضربت ، فما كان بأقل من حصة يسيرة حتى احترقت الدور وانهدمت البيوت ، واحترق بيت ابن القلطقجى وعدم عن آخره ، ونهبت العساكر كل ما فيه . ثم سرى النهب فى بقية الدور ، فنهبوا وقتلوا ومثلوا وبدعوا ، وذهب الصالح والطالح ، حتى صارت محلة سوق ساروجا قاعاً صفصفا . وأما ابن القلطقجى فإنه فر هارباً بعد ما بذل من الشجاعة هو وجماعته الغاية القصوى . ثم أمر حضرة الباشا أن تدار المدافع على جهة الميدان فوجّهوها ، وكان رأس المفسدين بها مصطفى أغا بن خضرى جربجى ، حتى سمى نفسه سلطان الشام . وعنده زمرة من الأشقياء يتقوّى بهم ، وبها أيضاً أولاد الدرزى أحمد أغا وخليل أغا ، ولهم بها دولة وصولة .

---

(١) أى إطلاق الرصاص .

(٢) هى ضاحية نشأت فى شمالى مدينة دمشق على طريق الصالحية وبيروت واختصت على الغالب بسكنى الضباط والجنود . [سوقاجيه ص ٤١] .

فحين بلغ هؤلاء المفسدين بأن حضرة أسعد باشا وجّه عليهم المدافع بالعساكر أوقع الله الرعب فى قلوبهم ، وركنوا للهرب والفرار ، وطلبوا البرارى والقفار[1] . وبانهزامهم وهربهم تقطعت قلوب بقية مَن كان من الشجعان من أهل الميدان ، فمنهم من هرب ولحق بساداتهم . ومنهم من قبر فى المغاير[2] والقبور ، ومنهم من غطس فى النهور . ولما وصلت الميدان المدافع لم يجدوا فيهامن يدافع ، فأول ما اشتغلت العساكر بهدم دار ابن خضرى ، بعد ما نهبوا جميع ما فيها من المتاع وغيره ، وكذلك فعلوا بدار ابن حمزة وبغيرها من الدور ، حتى نهبوا نحواً من خمسمائة دار ، وبعد ذلك اشتغلوا بهدم الدور التى نهبوها .

وأرسل حضرة أسعد باشا ، أسعده الله وقوّاه ، خبراً إلى مشايخ الحارات بها وأمرهم بأن يقبضوا على بقية الأشقياء الموجودين ، وإن لم

---

(١) هرب أحمد أغا القلطقجى وبعض أعوانه إلى جبل لبنان ولجأوا إلى الدروز محتمين ببنى يزبك وتقوّوا بهم ، فأخذوا يقطعون الطريق إلى دمشق ويغيرون على أطرافها . فأرسل أسعد باشا إلى الأمير ملحم الشهابى طالباً إخراجهم من بلاده ، ولكن بنى يزبك رفضوا ، فشنّ الأمير الحرب على بيوتهم . ونزح آل تلحوق ومعهم القلطقجى إلى سهل البقاع . ثم تصالح الباشا والانكشارية وأذن لرؤسائهم فى العودة إلى دمشق ، وكذلك تصالح الأمير ملحم مع المشايخ من بنى تلحوق وعادوا إلى بلادهم . [الأمير حيــدر ج ١ ص ٣٧] . وانظر فيما بعد ص ٦٩ من هذا الكتاب .

(٢) جمع صاحب الكتاب مغارة على مغاير .

يفعلوا يلزمهم بغرامة أموال عظيمة . فصاروا يتتبعون الأشقياء واحداً بعد واحد ، ويقولون لحضرة الباشا : هذا الشقى فلان الفلانى ، وهذا الآغا الفلانى ، وهذا الشربجى الفلانى . وحضرة الباشا يأمر بضرب أعناقهم أمام باب السرايا وترك جسومهم [١١٦ ا] تأكل منها الكلاب مدة طويلة ، حتى صاروا عبرة لمن اعتبر . فسكنت بعد ذلك الشام ، وصارت كقدح لبن ، وصارت الناس فى أمن وأمان ، وسترت الأعراض . فملك الباشا البلد بنحو أربعمائة من العسكر الدالاتية . وقد أمنت البرية ، فكان ذلك بهمته القوية ، بعد ما كانت تقول كبراء الميدان وأعوانهم : لو جاءنا عشر باشاوات ومعهم السلطان ما حسبنا لهم حساب ، ولشرطنا ذقنهم بالطبنجيات . فانظر الآن ، فقد صاروا أذل من الذباب ، وطعماً لأخس الكلاب .

وأما أولاد ابن الدرزى فإنهم هربوا والتجأوا إلى عرب ابن كليب هم وأتباعهم ، وأما ابن حمزة وأتباعه [فإنهم فروا نحو طبريا ، التجأوا بالظاهر عمر ، وأولاد الماطقجى وأتباعهم فهربوا][1] إلى جبل الدروز ، والذى منهم وقع جعلوا جلده رقع ، وكان أعظم مصيبة وخذلان لبيت حسنى

(١) العبارات الواقعة بين قوسين ساقطة من النسخة الظاهرية

تركمان[1] ، قتل منهم خمسة رجال : حمزة بيك ومحمد آغا وحسن آغا وخليل آغا وسايسهم . وكانوا من المفسدين الظالمين المؤذين ، مهتكين للحريم ، سبابين للدين ، عدا حمزة بيك فإنه كان بخلاف ذلك ، فقد ذهب غلطاً وهدرا .

وقد زينت البلد ، والمدافع تضرب صباحاً ومساء مدة شهرين ، والنوبة مع الألعاب الدارية . وكفى الله المؤمنين القتال ، وقطع دابر القوم الذين ظلموا . والحمد لله رب العالمين .

قال المؤرخ البديري : وقلت فى وصفهم من المواليا :

أين الزلاقة[2] التى كانت شبيه السيف

جزمات لا يشلحوها[3] بالشتا والصيف

(١) كان حسن تركمان من رؤساء الأجناد وكبراء أوجاق الانكشارية بدمشق ، وهو دمشقى الأصل من حىّ الميدان ، وقد صار كتخدا الأوجاق ، واستكثر من أهله وأتباعه فى الأوجاق ، « حتى كانوا — فيما يقول المرادى — يقاربون ربع العسكر » ، ثم نكبوا فى عهد أسعد باشا العظم ، وأصبحت البقية الباقية منهم « من آحاد الناس » . [المرادى ج ٢ ص ٦٣] .

(٢) الزلاقة فى عرف الشاميين هى العتو والتظاهر بالرجولة [من تعليق ناسخ المخطوطة الظاهرية] .

(٣) أى أحذية لا يخلعونها فى الشتاء ولا فى الصيف .

إن شاف واحد صديقه لا يقله[1] كيف
ديك الزلاقة مضت يا حيفها يا حيف

وفى آخر ربيع الثانى أرسل حضرة أسعد باشا العظم عسكراً عظيماً إلى مدينة بعلبك لقتل واليها الأمير حسين[2]. فلم يجدوا له أثراً ، فدخلت الأعوان ونهبوا وسلبوا وفعلوا ما فعلوا ، ثم أتوا بثمانية رجال من أعيان بعلبك ، ومن جملتهم مفتيها لدمشق الشام، فشنق مفتيها المذكور ، وضربت أعناق الباقين .

وفى تلك الأيام أرسل حضرة أسعد باشا جملة من العساكر إلى العرب ، فجاءوا برءوس من العرب وجمال وأغنام وسلب وغير ذلك . وقد أرهب حضرة أسعد باشا المذكور الكبار والصغار ، وعظم صيته حتى فى البرارى والقفار ، وصاروا يضيفون لاسمه الحاج ، ويقولون : الحاج أسعد باشا .

وفى هذه الأيام جاء من الدولة العلية قبجى ومعه من حضرة

(١) أى لا يقول له .

(٢) ردّد الأمير حيدر الشهابى فى تاريخه (ج ١ ص ٣٤ — ٣٨.) ذكر القتال بين أسعد باشا العظم والأمير ملحم الشهابى أمير الدروز ، وكان معه الأمير «حسين» ابن الحرفوش صاحب بعلبك ، ولعله الأمير حسين الذى ذكره البديرى هنا . وقد أشاد الأمير حيدر بانتصار الأمير ملحم على القوات التى وجهها الباشا إلى البقاع .

السلطان هدية ملوكية لحضرة الحاج أسعد باشا . وهى كرك عظيم مفتخر وسيف ملوكى وخلع وتشاريف . وذلك لم يسبق لغيره من الوزراء والحكام ، إلا إلى الوزير الأعظم صاحب الختم[١] ، إذا كان فى سفر حرب ، وصار على يده فتوح بلدان ، فسبحان المعطى المانح[٢] .

وكانت (الدولة) منذ أمد غير بعيد قد رفعت أرط القبقول من الشام[٣] ، ولم تر لفات برمة[٤] . فأرسل حضرة أسعد باشا حفظه الله يطلب من الدولة أرطا ، فأرسلوا له أرطة أون طقوز[٥] ، ودخلت بموكب عظيم ، سرت أناساً وأكمدت أناساً .

وأرادت بعض الأشقياء أن تقيم رؤسها ، فأخبروا حضرة الباشا بذلك ، فأرسل يقول للآغا : كل من أدخله من أولاد الشام[٦] من غير جنسك لا يرجع اللوم إلا على نفسك . فانتظم الحال ، وقويت

(١) حامل ختم السلطان وهو الصدر الأعظم .

(٢) أشار إلى ذلك الأمير حيدر الشهابى فى تاريخه (ج ١ ص ٣٥) فقال : « فأنعمت عليه الدولة العلية بطوق ، أى علامة الرضا وأن لم يبق ينجر عليه سلاح ولا يقتل » . ولكن ذلك لم يحل دون قتله ومصادرة أمواله بعد ذلك .

(٣) انظر فيما سبق ص٥ ، ١٣ ، ٢٠ .

(٤) كان للجند من القبوقول لباس رأس خاص ، وهو عمائم (لفات) تبرم .

(٥) الأرطة التاسعة عشرة .

(٦) يريد أسعد باشا بذلك أن يتفادى ما حدث لأوجاق الأنكشارية من دخول (أولاد الشام) من رجال الحرف فى الأوجاق وتسلطهم عليه ، حتى دعى أوجاق اليرلية (أى المحلية أو البلدية) ، بل يبقى الأوجاق (القبوقول) تركياً خالصاً .

دولة القبقول فى دمشق الشام ، وبرموا اللفّات ، ورجعت دولتهم أحسن مما كانت .

وفى جمادى الأولى من هذه السنة وصل الجراد للشام ، وكان حولها له سنين مخيم ، فنزل على بساتينها . فأكل حتى لم يبق ولم يذر ، فأرسل حضرة الباشا رجلين من أهل الخبرة يأتونه بماء السمرمر (١) . ثم إن هذه

(١) السمرمر نوع من الطير كان الناس يعتقدون أنه يفتك بالجراد ، فكانوا يحرصون على الإتيان به إذا نزل الجراد بأرضهم ، ولكنه ـ فى اعتقادهم ـ لا يأتى إلا تابعا نوعا خاصا من الماء يجلب خصيصا من عين بين إصفهان وشيراز . فإذا نزل الجراد بأرض جلب إليها من تلك العين ماء ، بحيث أن حامل المـــاء لا يضعه على الأرض ولا يلتفت وراءه ، فيبقى طير السمرمر على رأس حامل ذلك الماء كالسحابة السوداء إلى أن يصل إلى الأرض التى بها الجراد ، فتقع الطيور عليه وتقتله . وقيل من شرطه أن يكون حامل الماء من أهل الصلاح ، ولا يمرّ به تحت سقف ، فإن فعل بطل مفعوله . [المرادى ج ٣ ص ٢١٤ — ٢١٥ ، الغزى : ج ٣ ص ٢٣٠ ، ٢٦١ — ٢٦٤] .

ويبدو أن ماء السمرمر لم يفد فى مكافحة الجراد ، فلجأ القوم إلى « مراسلات » يكتبونها له ويعلقونها ، « فلم يحصل ـ فيما ينقله المرادى ـ ضرر على الزرع ، وظهر من ذلك تأثير عجيب فى دفع مضراته » . وفى هذه « المراسلات » يُعلن الجراد المغير بالحضور إلى « مجلس الشرع الشريف بدمشق » لسماع الحكم عليه بالرحيل ! . ثم بطل اعتقاد الناس فى ماء السمرمر وفى الأدعية والمراسلات ، ولجأوا فى مكافحته إلى جمعه ودفنه أو إحراقه . ولكن اعتقادهم فى طير السمرمر نفسه ظل قائما إلى زمن متأخر ، ففى سنة ١٨١٦ أغارت أسراب الجراد على بلاد الشام وأهلكت الزرع « حتى أرسل الله له السمرمر ، ففقس فى أرض وادى التيم وغير أماكن ، ثم لحق الجراد بعد طيرانه فاختفى من جميع عرب بستان (عربستان = البلاد العربية) وأراح الله العالم منه » . [الأمير حيدر الشهابى ج ٣ ص ٦٣١] . وقد أشار الرحالة فولنى إلى مقاومة الجراد بطير السمرمر (ص ١٨٥ من مجموعة مؤلفاته)

السنة كانت كثيرة الأمطار والخيرات والفواكه والنبات . ومع ذلك فأهل الشام فى شدّة عظيمة من الغلاء ، ونهض الأسعار فى جميع البضائع . وكان حضرة أسعد باشا حفظه الله عمل ديواناً ، وأرسل خلف بائعى القمح ، وطلب منهم إحضار القمح وهدّدهم ، فحلفوا له بأنه ما عندهم شيء ولا يوجد . فقال لهم أنا عندى قمح كثير فى حماة[1] ، فاطلبوه . فأرسلوا يطالبون جميع ما يوجد من القمح خاصة حضرة الباشا وغيره ، فجاءهم من حماة أحمال قمح بغير حساب ، وباعوه فى الشام على السعر الواقع . ومع ذلك فرطل الخبز بخمسة مصارى ، وقد طالت هذه الشدّة .

وفى نهار الأحد بعد العصر خامس عشر جمادى الثانية من هذه السنة ضربت مدافع ، فسألت الناس عن الخبر ، فقيل إن سعد الدين باشا أخا أسعد باشا جاءته رتبة وزارة ، وجاءه طوخ[2] . فرعت أكابر

---

(١) حيث ضياع الباشا وأهـــله من بنى العظم ، وكان أسعد باشا حاكماً بحماة قبل أن ينتقل إلى دمشق .

(٢) الطوخ [أو الطوغ] جزء من شعر الحصان من ذيله أو معرفته ، يرفع على الراية علامة التكريم . وكانت الباشوية من ثلاث رتب : باشوية بطوخ ، ثم باشوية بطوخين ، وأرفع منهما الباشوية بثلاثة أطواخ ، وهى رتبة الوزارة أو الولاية . أما السلطان فترفع أمام موكبه سبعة أطواخ . ويرجع هذا التقليد إلى عصور الأتراك الأولى ، عندما كانت حياة الرجل منهم مرتبطة بحصانه .

الشام لأجل (تهنئة) أخاه [كذا] أسعد باشا . وكان أسبقهم لتهنئة الباشا فتحى [١٧ ا] أفندى دفتردار الشام . فلما رآه الباشا قام ودخل لدهليز الخزنة ، فتبعه وجلس عنده ، فأخرج أسعد باشا صورة عرض وأراه إياه ، فأخذه فتحى أفنـــدى وقرأه ، وإذا فيه الأمر بقتله . وقال له حضرة الباشا ماتقول فى هذا . فقال سمعاً وطاعة . لكن أنا فى جيرتك خذ من المال ما أردت وأطلقنى . فقال له الباشا : ويلك ياخائن ، أنا لم أنس ما فعلت فى نساء عمى[1] . ثم أمر برفع شاشه وقطع رأسه ، فوضع فى رقبته حبل ، وسحب إلى خارج السرايا وقطع رأسه ، وأرسل للدولة . ثم أمر الباشا أن تطاف بجثته فى سائر شوارع الشام وطرقها وأزقتها ثلاثة أيام ، ففعل به ذلك ، وطيف به عرياناً مكشوف البدن وتركوه للكلاب ، ثم دفنت جثته بتربة الشيخ رسلان وأمر الباشا بالإحاطة على داره وعلى ماله والقبض على أعوانه ، فألقوا القبض على خزنداره عثمان وعلى ولده فأمر بحبسهما ، ثم أتوا بأكبر أعوانه — وكان يلقب بالعفصا[2] فقطع رأسه حالا . وزادوا على أعوانه بالتفتيش ، فقتل بعض أعوانه وخدامه ، ثم ضبط الوزير تركته وأموال أتباعه جميعاً للدولة

---

(١) انظر فيما سبق ص ١٧ ، ٤٥ ، ٤٩ — ٥١ ، ٥٥ ، ٦١ [٩٩] ص ٤٥ ، ٤٧ ، ٥٠ — ٥٢ ، ٥٤ — ٥٨

(٢) انظر فيما سبق ص ٥٠ ، ٥١ .

العلية ، فبلغت شيئاً كثيراً . وتفرّق الباقون أيدى سبا ، كأن لم يكونوا وانقضت دولته كأنها طيف خيال .

قال المؤرخ [البديرى] : ذلك بما كسبت يداه ، فقد كان ظلوماً غشوماً بغيضاً لأهل الشام ، يريد لهم الجور والظلم ، لايراعى الكبار ولا الصغار ، إلا ناس من الأشرار ؛ وهم من حزب الشيطان ، قد اتخذهم عدة لكل عدوان . وتحقيق أمره وخبر قصة البطش به ألخصها ، وأنا الفقير مهذب هذا التاريخ ومحرر هذه الورقات ، فأقول : ذكر المرادى[1] فى آخر ترجمة فتحى الدفترى المذكور ما ملخصه : كان المترجم يراجع فى الأمور حتى من الوزراء والصدور ، طالت دولته وعظمت عليه من الله نعمته ، واشتهر صيته وعلا قدره ونشر ذكره ، لكنه كان يتصدى للاستطالة فى أقواله وأفعاله ، وأتباعه متشاهرون بالفساد والفسوق وشرب الخمور وهتك الحرمات ، وهو أيضاً متجاهر بالمظالم ، لا يبالى من دعوة مظلوم ، ولا يتجنب الأذى والتعدى ، ونسب إلى شرب الخمر أيضاً وغير ذلك . فلذلك كانت أقرانه وغيرهم يريدون وقوعه فى المهالك ، ولما توفى [١٧ب] الوزير سليمان باشا العظم والى دمشق الشام وأمير الحاج ، وجاء من قبل الدولة الأمر بضبط أمواله ومتروكاته ، نسب المترجم إلى

---

(١) سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر ج ٣ ص ٢٧٩ وما بعدها .

أمور . وفى خلال ذلك تولى دمشق حاكما وأميراً للحاج ابن أخيه الوزير أسعد باشا العظم الذى كان حاكماً [فى حماة][1] ، فأكد للمترجم فعله المنسوب إليه حين وفاة عمه ، ولم يره إلا ما يسره . وكان المترجم منتمياً إلى أوجاق اليرلية[2] . وكان الأوجاق فى ذلك الحين قواه قائمة وجيوشه بالفساد متلاطمة ، وهم عصبة وجموع يذل لهم أكبر قرم[3] بالمذلة والخضوع ، قد أبادوا أهل العرض وانتهكوا الحرمات وأباحوا المحرمات ، ولم يزالوا فى ازدياد حتى عمّ فسادهم البلاد والعباد . وكانت رؤساؤهم زمرة ضالة وفئة متمردة وصاحب الترجمة فتحى أيدى يوليهم مكرماته ويمنحهم إحسانه وإنعاماته ، وهم لبابه وفود ، قد اتخذوه ركناً وسنداً ، وأرباب العقول فى دمشق فى هم وكدر وخوف وحذر ، كل منهم متحير فى أمره ومتخوف من هذا الحال وعواقب شره . وأمير الحاج فتئذ والى دمشق أسعد باشا المذكور ناظر لهذه الفعال ، متحير من تلك الأحوال ؛ لأن الشقى منهم كان يجىء إلى حبس السرايا ويخرج من أراد من المحبوسين من غير إذن أحد علناً

---

(١) الكلمتان المحصورتان بين قوسين ساقطتان من النسخة الظاهرية .

(٢) أشرنا إلى دخول أهل الشام من أرباب الحرف فى أوجاق الانكشارية فسيطروا عليه ، حتى أصبح يعرف بأوجاق اليرلية أى الجند المحلية أو البلدية ، وقد أصبحوا أشبه ما يكونون بالعصابات . يلتف كل منهم حول زعيم ، وعظم فسادهم ، وقد أورد البديرى طائفة من أفعالهم ، ونوّه بفتك أسعد باشا بعدد من رؤوسهم وهرب الباقين .

(٣) أى الرجل صاحب الشأن .

وقهراً . وإذا مرّ الوزير المذكور بهم وهم جالسون لا يلتفتون إليه ولا يقومون له من مجالسهم عند مروره بهم ، بل يتكلمون فى حقه بما لا يليق بسمع منه ، فيتحمل مكارههم ولا يسعه إلا السكوت . واستمرّ أمرهم على ذلك ، إلى أن كتب فى حقهم للدولة العلية ، فورد الأمر بقتلهم وإبادتهم، فأخفاه الوزير مدة ،ثم بعد ذلك أظهره ،وشرع فى قتلهم وإبادتهم ، وأعطاه الله تعالى النصر ، وفرجت عن دمشق الشدائد . ثم بعد أشهر قليلة كتب الوزير المذكور إلى الدولة العلية بخصوص صاحب الترجمة وما هو عليه ، وأرسل الأوراق التى فى حقه مع على بيك كول[١] أحمد باشا ، وكان ذلك بتدبير خليل أفندى الصديق[٢] وأعيان دمشق . ثم صادف أن صاحب الدولة كان حسن باشا[٣]، وكان يبغض المترجم فتحى لكونه لما جاء قريب حسن باشا المذكور وهو أحمد أغا آغات[٤]. أوجاق الينكجرية طرده ، وصار أخيراً وزيراً ، فأدخل للسلطان أحواله ،وعرفه طبق مكاتبة أسعد باشا

---

(١) كول بالتركية معناها مملوك .

(٢) مفتى الحنفية بدمشق [المرادى ج ٢ ص ٨٤] .

(٣) هو الصدر الأعظم حسن باشا ، ولى الصدارة فى سنة ١١٥٦ (١٧٤٣ م) وصرف عنها بعد ثلاث سنوات [دائرة المعارف الإسلامية ، الترجمة العربية ، ج ٧ ص ٣٨٨] .

(٤) أغا آغات أو جاق الأنكشارية كبير ضباطه .

[١٨ ا] . وكان أسعد باشا ضمن للدولة تركته بألف كيس[١] ، فجاء الخبر بقتله .

وكان قبل ذلك صار من أهل دمشق عَرض فى خصوصه،فلم يفد ، وكان هو بإسلامبول ، فأعطى العرض له ، ولما جاء لدمشق صار يخرجه ، وينتقم ممن اسمه مكتوب فيه . وكان السبب فى ذلك وجود آغت دار السعادة بشير أغا ، وكان المترجم منتميا إليه ، وكان للآغا المذكور نظر على المترجم وحماية ، فصادف الأمر بالمقدور أن بشير أغا توفى وحان القضاء وآن وقته ، فجاء الأمر بقتله ، فقتل شر قتلة على الوجه الذى قدمناه ، وبالتاريخ الذى ذكرناه .

وقد عمل البديرى صاحب الأصل فى واقعة فتحى الدفترى المذكور هذه المواليا ، فقال :

يا ما فعل فتحى لما صار دفتر دار
عزّه زمانه وسعده حول داره دار
دولاب عزه رقص يا ناس لما دار
لم يعتبر أن هذا الدهر بو[٢] غدّار

---

(١) اعتبر الأستاذان جب وبون Gibb & Bowen ; op. cit. II. p. 3. n هذا العمل من أسعد باشا المظم رشوة قدمها للسلطان ، حتى أذن له بقتل الدفتردار ومصادرة أملاكه .

(٢) أى [به] .

ومع ماله من سيئات كان له حسنات ونفع فى بعض الأوقات للأنام . فمن آثاره المدرسة التى فى القيمرية ، وأوقف جرايات وشوربة لطلبة العلم ، وعمّر رصيف درب الصالحية ، وعمّر الحمام فى ميدان الحصا المسمى باسمه ، والقهوة أيضاً . ومن أعظم آثاره تجديده لمنارتى تكية السليمانية التى فى المرجة ، وذلك بعد سقوطهما أيام الزلزلة ، فأعيدتا أحسن مما كانتا ، وله غير ذلك . غير أن سيئاته أكثر من حسناته . نسأله تعالى أن يتغمدنا بلطفه وعفوه ، ويجيرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة ، فإنه قريب مجيب آمين .

وفى تلك الأيام جاءوا بشيخ جيرود ، وأخبر أسعد باشا بأنه قتل شخصاً ، فسأله الباشا فأجابه ، وقال إنه قد قتل أبى فقتلته ، فأمر بقتله ، فقتل حالا . وفى يوم الأحد ثالث عشر رجب من السنة المذكورة توفى محمد آغا ابن الديرى فى داء الدوسنطارية ، وقد كان مدركا لأعمال (أسعد باشا وأعمال أبيه إسماعيل باشا وعمه سليمان باشا ، وكان وكيلا [١٨ ب] للخرج)[1] ، لكن عليه مدار كل الأعمال ، وصاحب الكلمة النافذة عندهم ، حتى قيل إنه صاحب كل حركة وقعت بالشام ، وإنه مرتكب للفواحش من شرب خمر وغيره مع إيذائه للرعايا . وكان أيام الفتن يمشى قدام الدلاتية يساب

(١) العبارات بين القوسين ساقطة من النسخة الظاهرية فى هـذا الموضع ثم جاءت فى موضع آخر فلا محل لها .

وينهب ويخرب بيوت الانكشارية ، وقد أتى بأحجار بيوتهم وأخشابهم وعمّر بها دارا ، فما تمت العمارة حتى هلك مع الهالكين . وضبط الباشا ماله ونواله ، وذهب مع الذاهبين .

وثانى يوم موته قتل الباشا عثمان آغا خزندار فتحى أفندى الدفتردار كما قدّمنا ، وقتل معه أحمد آغا الشربجى خزندار فتحى الثانى ، وضبط مالهما .

وبهذا اليوم ، وهو يوم الاثنين رابع عشر رجب ، جاءوا بماء السمرمر[١] ، وطلعت لملاقاته المشايخ وأهل الطرق بالأعلام والمزاهر وطبول الباز ، ودخلوا بموكب عظيم بكت فيه خلق كثير ، وعلقوه بمنارة الشيخ الأكبر[٢] فى الصالحية ، وفى منارة تكية المرجة[٣] ، وفى منارات الجامع الأموى ، وأبقوا فى السرايا قِرَب من ماء السمرمر[٤] ، وذكروا أن مرادهم أن يعلّقوهم فى أراضى حوران .

هذا والغلاء قائم على قدم وساق ، لم يقع مثله فى قديم الزمان . فرطل الخبز وصل إلى سبع مصارى ، والوسط بستة ، والردى الدون بخمسة مصارى ، ورطل الكعك بخمسة عشر مصرية ، ورطل

---

(١) انظر فيما سبق ص ٧٣ .
(٢) يقصد جامع الشيخ محيي الدين بن عربى
(٣) تكية السليمانية .
(٤) فى النسخة التيمورية : وألقوا فى السرايا من ماء السمرمر ، وعبارة الظاهرية أضبط .

الرز بعشرة مصارى، وأوقية السمن بخمسة مصارى فى وقت جلبه ، وأوقية الطحينة بخمسة مصارى ، وأوقية السيرج بخمسة مصارى ، وأوقية القريشة[1] بثلاث مصارى ، وكذلك الجبن والدبس الرطل بثمانية عشر مصرية ، ورطل العسل بقرش ونصف ، ومدّ الملح وصل ثمنه للعشرين مصرية ، ومدّ الحمص بثلاث أرباع المصرية ، وكذلك العدس . وأغرب من ذلك مع كثرة الفاكهة رطل التين الطارى بأربعة مصارى ، والكوسا كل ثلاثة بمصرية ، والباذنجان الرطل بثمانية مصارى ، وكل يقطينة[2] بأربعة مصارى ، ورطل اللحم بنصف قرش والبطيخة بنصف ربع ريال، إن كانت صفرا [ء] أو خضرا [ء] ، والخيار الرطل بمصريتين . وقد دام هذا الأمر سبع أو ثمان سنين ، لكن فى هذا العام قد زاد الحدّ ، والحكام لم يفتشوا على الرعية ، وهذا مع قلة البيع والشراء والكساد وكثرة الديون على العباد ، وظلم بعضهم البعض ، وقد ضاقت على العباد فسيح الأرض . والحكم لله .

وفى يوم الأحد الحادى والعشرين من شهر رجب فى هذه السنة تسع وخمسين ومائة [١١٩] وألف جَمعَ حضرة أسعد باشا العظم أكابر الشام وأعيانها فى المحكمة ، ووقف جميع أملاكه على

(١) نوع من الجبن لا يزال أهل الشام يصنعونه ويتفننون فى صناعته .
(٢) اليقطين هو ما يسمى فى مصر بالقرع العسلى .

أولاده ، ثم على أولاد أولاد أولاده على حسب ما اشترط فى الوقفية ، وفرّق على أولاد عمه ما كان لهم ، وقد كان ضبط مال محمد آغا ابن الديرى وعمل حسابه على عقله ، فظهر لحضرة الباشا أنه قد تبقّى له مع ابن الديرى المذكور اثناعشر كيسا . ثم جاءت الأصناف (١) وأخبرت حضرة الباشا بأن لهم متبقى فى ذمة ابن الديرى من أيام آبيك إسماعيل باشا وعمك سليمان باشا ، [و] فى أيام دولتك اثنا عشر ألف قرش ولجوا فى طلبها . فقال: الحقوه وخذوهم منه ، فأنا باقى لى معه اثنا عشر كيس ذهب ، فليس لكم فائدة فى هذا الطلب ، فكل منهم ترك ماله عند الله وذهب .

وفى ليلة الجمعة لخمسة وعشرين من شهر رجب خرج أسعد باشا إلى الدورة من هذه السنة . وفى ليلة الثلاثاء التاسعة والعشرين من شهر رجب من هذه السنة توفى مصطفى أفندى زاده قاضى الشام ، وصار ولده نائباً عنه بمكانه .

---

(١) الأصناف جمع (صنف) بمعنى طائفة من طوائف الحرف ، وتنتظم المشتغلين بالحرفة والقلفوات والإشراقات (أى الصبيان) تحت زعامة شيخ الطائفة ، وتنظم الطائفة الشئون المتصلة بالحرفة والمشتغلين بها ، ومن ذلك الترقى فى سلك الحرفة وتحديد الأسعار ومستوى العمل والعلاقة بين الطائفة والحكومة . وكانت كل طائفة تربط نفسها بولىّ معين أو طريقة صوفية خاصة وتساهم فى إحياء حفلاتها الدينية . وقد عظم نفوذ الأصناف عندما اندمجت فى الانكشارية ، حتى أصبح هذا الأوجاق لا يكاد ينتظم — فى القرن الثامن عشر — إلا أهل الحرف ، وقد وصف الغزى (ج ٣ ص ٣٥٠) تسلط الانكشارية على الحرف والصنائع ، ومنها الجزارة ، حتى « كان الرجل لا يقدر أن يطبخ فى بيته إلا نوع الطعام الذى يأمره به لحامه » . انظر أيضا : Gibb and Bowen , vol 1. part 1. p. 281 & seq.

وفى نهار الجمعة فى الثانى[1] والعشرين من شهر شعبان من هذه السنة قدم محمد آغا بن فروخ[2] بمنصب دفترية الشام، مكان فتحى أفندى الفلاقنسى ، وأقام فى داره المشهورة بهم .

وفى خلال هذه الأيام زاد الهمّ على الناس ، واشتد بهم وقوف الحال مع شدة الغلاء ، والخبز بستة مصارى كما قدمنا ، حتى صار رأس الكرنب الذى قدر النارنجة بمصريتين ، والباقى على هذا المنوال . فالأمر لله الملك المتعال .

وفى خلال هذه الأيام من هذه السنة جاء مقرر طرابلس الشام إلى حضرة سعد الدين باشا ، وكان مع أخيه فى الدورة ، فرجع مع أخيه إلى دمشق ، وأقام قليلا ، وسار طالباً منصبه ، وفّقه الله .

وفى هذه السنة كان ثبوت رمضان ليلة الاثنين ، والعيد الأربعاء والصوم تمام .

---

(١) الثامن — فى النسخة التيمورية .

(٢) بنو فروخ أسرة نابهة تولى كثير من أفرادها إمارة الحاج فى القرن السابع عشر ، قبل أن تضاف إلى والى دمشق . وكان آخر من تولى هذا المنصب منهم عساف باشا وقد توفى سنة ١٠٨١ (١٦٧٠ — ١٦٧١ م) . وقد تولى محمد آغا بن فروخ دفترية دمشق بعد مصرع فتحى أفندى وظل بالمنصب ثلاثين سنة متوالية . وقد نوّه المرادى (ج ٤ ص٣٨) بحسن خلقه واستقامته ، حتى إنه بعد أن أمضى تلك السنوات الطويلة فى منصبه طلب إعفاءه منه ومحاسبته ، فأرسلت الدولة أحد الروزنامجية « فعملت له الدولة الحساب على مراده » ، وقد توفى سنة ١١٩٠ (١٧٧٦م) .

وفى نهار الجمعة بعد الصلاة فى سبعة عشر شوال من هذه السنة خرج حضرة والى الشام وأمير الحاج أسعد باشا العظم قاصدا الحج الشريف ، والحاج خرج يوم عشرين . ولمـــا سافر حضرة الباشا ترك المتسلم بها وهو موسى كيخية مكانه فى الشام . فجاءه الخبر بأن الزرباوات — وهم الأشقياء المطرودون[1] — مرادهم بأن يأتوا إلى الشام على حين غفلة من أهله ، ويقتلوا جماعة من الذين تسببوا فى طردهم ، فاضطرب [١٩ ب] المتسلم المذكور ، وأرسل استجلب عبد الله الترك آغة الدالاتية المطرود وقوى شوكته وكثر جماعته . وصار محمود آغا آغة (الدالاتية)[2] التفكجية[3] يدور ويطوف ليلا خارج دمشق ، والدالاتية تحوم حول البلد ، وقد أقلقوا الخلق وزاد النكد ، ولا زال هذا الحال مدة غيبة (الباشا و)[4] الحاج .

سنة ١١٦٠

ثم دخلت سنة ستين ومائة وألف ، وكان غرة محرمها[5] نهار الخميس . وفى نهار الاثنين خامس محرم الحرام من هذه السنة الموافق

(١) انظر فيما سبق ص ٥ ، ١٨ ، ٣٠ ، ٦٢ .
(٢) هذه الكلمة ساقطة من النسخة الظاهرية .
(٣) تفكجية تحريف عربى للكلمة التركية « تفنكجيان » ومفرده تفنكجى وهو الجندى المسلح بالبندقية ، وكان لهم أوجاق خاص .
(٤) ساقطة من النسخة الظاهرية .
(٥) يوافق ١٣ يناير (كانون ثان) ١٧٤٧

لأول كانون الثانى[1] زادت المياه بسبب سيل عظيم ، ودخوله للشام كان نصف الليل ، (فحصل طوفان لم يسمع له نظير من قديم الزمان)[2] ، هجم الماء من نصف الليل إلى الشام ، وأغرق جميع ما كان فى طريقه من الدكاكين ، وأتلف أموالاً كثيرة لا تعدّ ولا تحصى ، حتى صار المرجة كالبحر ، ومع ذلك الماء يخطف الطير ، وله خرير ودوىّ وهدير . وقد غطت هذه الزيادة حجر تاريخ القلعة ، ومرّت فى الأسواق والدور ، وأخرجت شيئاً غير محصور . وقد صارت تحت القلعة وفى المناخ بالارتفاع طول قامة الإنسان .

قال المؤرخ البديرى : وقد دخلت إلى قهوة المناخلية بعد انصراف الماء فوجدت الماء فى أعلا مساطبها أعلا من ذراع ، وقد شاب من هولها الكبير والصغير . وقد غرق بها أناس غير محصورين ، مع ما أتلفت من البهائم والأموال . وقد أضرّت بجميع ما مرّت عليه وانهدمت أماكن كثيرة لا تحصى وتركتها (بلاقع)[3] . نسأله تعالى اللطف فى المقدور آمين .

وفى خامس صفر كان قدوم الحاج الشريف ، وقد أخبرت الحجاج بأن هذه السنة من أجمل السنين وأحسنها ، وجميعهم شاكرون

---

(١) ٥ من المحرم ١١٦٠ يوافق ١٧ يناير (كانون ثان) ١٧٤٧ لا أوله .

(٢) العبارة بين القوسين ساقطة من النسخة التيمورية .

(٣) هذه الكلمة ساقطة من النسخة التيمورية أيضاً .

وداعون لحضرة أسعد باشا بالدوام ، من كثرة ما حصل لهم فى الطريق من الراحة والخير والإنعام من حضرة الباشا لعموم الحجاج ، فجزاه الله أحسن الجزاء آمين .

وقدم مع أسعد باشا من الحجاز فى هذه السنة باكير باشا والى جدة ، وأقام فى دار فتحى أفندى المتقدم نحو شهرين فى الشام ، ثم سار قاصداً حماة ، ولم يعلم ما سبب مجيئه . وعاد أيضاً مع الركب الشامى شيخ الإسلام وأقام مدة فى الشام ، وسار طالباً إسلامبول . وكان رجلا كبير السن وقورا ، ما حرّك ساكناً فى الشام مدة إقامته .

وبعد قدوم الحج قدمت خزنة مصر[1] إلى الشام ، وقد تأخرت عن ميعادها . وقد شدّد الطلب حضرة أسعد باشا بعد مجيئه من الحج على [١٢٠] الزرب الأشقيـــاء ، فقبضوا على أمين ابن الحديد[2] وعلى عبده بن حمزة عنبر ، فأمر بقتلهما فقتلا شر قتلة . وقد زادت الدالاتية الاعتداء والجور ، وخربوا البلاد والقرى ، فكثرت الشكاية منهم إلى والى الشام أسعد باشا ، فكتب للدولة عليهم فى شأنهم ، فجاءه مرسوم بإبادتهم ، فأمر منادياً أن ينادى كل من أقام من الدالاتية فى الشام أكثر من ثلاثة أيام من أهل الفساد

(١) انظر فيما سبق ص ٢٤

(٢) الحداد — فى النسخة التيمورية .

والعناد فدمه مهدور ، ثم بعد أيام ظهرت الدالانية ولم تتم القضية ، والحكم لله عالم الخفيّة .

وفى يوم الأربعاء جاء خبر بأن عرب عنزة نهبت عرب الرشا ، وأن الأكراد الذين كانوا مع عرب عنزة أخذوا جميع مانهبوه وسلبوه من مال وجمال وغنم ونساء . وكانت الغنم كثيرة لا يحصى عددها إلا الله ، وأن الواقعة كانت مهولة ، وأنه قتل من الفريقين خلق كثير . والمساعد للعرب حضرة أسعد باشا (على ما قيل)[1]. فجاءوا بالأغنام إلى الشام . وقد كان أهل الشام فى غلاء اللحم وأكل الذرة والشعير لهم سنين ، فبيع رطل اللحم فى هذه السنة بسبعة مصارى وثمانية إلى العشرة ، مع علم الناس أنه سلب حرام ، فمنهم من ترك أكله وهم أقل من القليـــل ، والباقى وهم عموم الناس لم يبالوا . فإنا لله وإنا إليه راجعون .

قال المؤرخ البديرى رحمه الله : وكان الجراد مفرزا من العام الماضى فى الشام وأراضيها ، فلما جاء فصل الربيع صار يظهر شيئاً فشيئاً إلى أن ظهر مظهرا شنيعاً ، وبدأ يزحف مثل النمل والذر ، فبدأ يأكل الزرع ويتلف النبات ، فوقعت الناس فى كرب عظيم . فنبّه حضرة أسعد

---

(١) ساقطة من النسخة التيمورية .

باشا حفظه الله على الفلاحين عموماً بأن تجمعه وتأتى به . وقد فرض على الأراضى الخمس[1] كل أرض قنطارين ، وكذلك القرى والضياع ، كل ضيعة شيئاً معلوماً يجمعونه . فجئ به أحمالا وأمر به أن يدفن ، فدفن منه بعض فى مغارة عند مقبرة البرامكة وردم عليه ، ثم صاروا يحفرون حفـــاير فى قبور النصارى واليهود ويضعونه فيها . ثم لم يزل يكثر وينتشر ، فأمر حضرة أسعد باشا أثابه الله بأن تعاد الفريضة على كل قرية من قرى دمشق ، مائتا قنطار ، وأن من لم يأت بالمطلوب فعليه جزاء كذا ، وأمر أيضاً حفظه الله بعض المأمورين أن تضبط عليهم ، وأن يضعوه فى جبل الصالحية فى آبار ومغاير .

قال المؤرخ [البديرى] : وبلغنى أنه فى ثلاثة أيام وضعوا فى الصالحية (ألف وسبعمائة قنطار [٢٠ ب] من الجراد ، عدا ما وضع فى المغاير والآبار فى غير الصالحية)[2].

وفى يوم الاثنين سلخ ربيع الثانى من هذه السنة جاء خبر إلى دمشق الشام بأن الطير المسمى بالسمرمر قد جاء ومرّ على قرية

(١) الأراضى نوعان : الأراضى العشر وهى التى يجبى منها العشر [أى ١٠ ٪ من غلتها] وهى التى لا يبذل فى زراعتها مال أو جهد كبير ، والأراضى الخمس وهى التى يحتاج إرواؤها إلى جهد كاستخدام الروافع أو السدود ، ويجبى منها ٥ ٪ فقط من غلتها .

(٢) ما بين القوسين ساقط من النسخة التيمورية .

عدرا وضمير، وأتلف من الجراد شيئاً كثيراً . ففرحت أهل البلاد سيما أهل الشام . فخرجت أهل الصالحية ومعهم المشايخ والتغالبة[1] والنساء والرجال والأطفال بالبكاء والعويل والتضرع إلى الله تعالى بدفع هذا البلاء ورفع الغلاء، ثم زينت أهل دمشق فرحا بوصول السمرمر أحسن زينة .

وفى هذه الأيام شاع خبر بدمشق بأن فى الشام امرأة يقال لها السماوية ، تمسك الأولاد بالاحتيال والرجال أيضاً ، لأجل أن تخرج السم منهم . فخافت الناس وكثر الفزع ، وصارت الناس توصى بعضهم بعضا منها . وبعد مدة أيام وقعت ضجة بين الناس ، فقيل ما الخبر ، قالوا قبضوا على السماوية ، وإذا هى امرأة عجوز قبضت عليها العامة ، وخلفها الأولاد والرجال كالجراد ، وهم يضربونها ضرباً وجيعاً ، وذهبوا بها لعند القاضى ، فسألها عن حالها ومن أين أنت . فقالت : والله ياسيدى أنا امرأة فقيرة الحال ولى أولاد وعيال ، وهذا القول عنى زور وبهتان . قال فأمر القاضى بتفتيشها وتفتيش بيتها ، ففتشوها فإذا معها لعب يلعب بها الأولاد والأطفال ، وفى جيبتها طواقى كبار وصغار ، ثم ذهبوا وفتشوا بيتها ، فلم يجدوا فيه غير متاع عتيق وقطعة من الحصير ، ثم شهد جيرانها بأنها امرأة فقيرة الحال ، ولها زمان

---

(١) التغالبة جماعة ممن يحضرون الاحتفالات الدينية ويدقون الطبول ويهللون.

قاطنة فى هذا المكان، ولم نعلم لها سوء حال، ثم أطلقوها فذهبت لحال سبيلها.

ثم فى تلك الأيام كثر الجراد وأضرّ بالعباد، وكأن الناس لم يجمعوا منه شىء [كذا]، وهذا كله مع ازدياد الفجور والفسق والغرور والغلاء والشرور. فخرج الشيخ إبراهيم الجباوى[1] ومعه الجماعة بالأعلام والطبول،وقصدوا زيارة السيدة زينب، واستغاثوا عندها بكشف البلاء عن العباد، ورجعوا آخر النهار، ثم داروا حول مدينة دمشق، ومرّوا أمام باب السرايا وعملوا دوسة[2].وصار حال

---

(١) هو شيخ الطائفة السعدية أو بنى سعد الدين أو الجباوية بدمشق. وهم قوم من المتصوفة، اشتهرت طريقتهم فى بعض البلاد العربية والعثمانية، وينتسبون إلى صاحبها سعد الدين الجباوى، نسبة إلى جبا [بين حوران ودمشق] وكان فى صدر شبابه شقيا قاطعا للطريق ثم صلح حاله وتصوف وأنشأ بدمشق الطريقة التى عرفت باسمه ومات سنة ٧٠٠ هـ أو ٧٣٦ هـ وكانت لهم زاوية بمحلة القبيبات بدمشق وكانوا يعدّون فرعا من الطريقة الرفاعية. ومنهم من كان يأكل الأفاعى حية. وقد اعتادوا إقامة (الدوسة) فى الاحتفالات بالموالد أو عند اشتداد الكرب طلبا لرفع البلاء عن الناس. [دائرة المعارف الاسلامية. الترجمة العربية مجلد ١١ ص ٤٢٠ - ٤٢٢ . مادة «السعدية» كتبها مرجليوث والمحبى: خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر ج ١ ص ٣٢، ج ٢ ص ٢٠٨]. وكان الشيخ إبراهيم الجباوى من أكابرهم، عرفت عنه كرامات كثيرة وكثر أتباعه ومريدوه، وجمع ثروة كبيرة إذ كان متوليا نظارة المسجد الأموى، وكان موضع احترام الحكام والأعيان. وكان الناس يتبركون به ويخرجون لزيارته فى زاويته بالقبيبات.

(٢) الدوسة احتفال كان يقيمه رجال الطريقة السعدية فى مولد النبى وبعض الأولياء، فكان عدد من رجال هذه الطريقة ينبطحون أرضاً على وجوههم ثم يمرّ =

عظيم وبكاء (شديد)[1] ، وشعلت قناديل الرجال أصحاب [كذا] ، وهم يدعون بهلاك الجراد ورفع البلاء . وبعد يومين جاءت أهل الميدان بطبول وأعلام وحال وصريخ ، وقصدوا جامع المصلى بالدعاء برفع الجراد وهـــلاكه[2] . ويقولون : يامن له المراد فى كل ما أراد ، بالمصطفى الحبيب فرّج عن البلاد [١٢١ ا] فلم يفد ذلك . وكيف يفيد ذلك وأكثر النساء قد باحت ، وبنات الهوى وهم [كذا] الخاطئات دائرات ليلا ونهاراً بالأزقة والأسواق ، ومعهم الدالاتية والفسّاق ،

= شيخ الطريقة فوقهم ممتطيا جواده يقوده اثنان من أتباعه ، فيدوسهم واحدا بعد آخر ولا يصيب أحدا بضر ، وهذه كرامة من كرامات الطريقة وشيخها . [دائرة المعارف الاسلامية ، الترجمة العربيـــة ، المجلد ٩ مادة (دوسة) كتبها مـكدونالد D. B. Macdonald] وقد وصف الرحالة لين الاحتفال بالدوسة الذى أقامه رجال الطريقة السعدية بالقاهرة فى يوم الاحتفال بمولد النبي ورسم شـكلا له .
Lane : An Account of the Manners & Customs of the Modern Egyptians. 1860. p.p. 451—454.

وقد أبطلت الدوسة فى مصر فى سنة ١٨٨١ بقرار من الحـكومة استنادا إلى فتوى أصدرها مفتى الديار المصرية فى ذلك الوقت . وكتب الشيخ محمد عبده فى الوقائع المصرية مثنياً على قرار الحـكومة لإلغاء «هذه العادة المخالفة لأحكام الشريعة ونواميس الطبيعة الانسانية» . [العدد ١٠٣٨ فى ١٦ ربيع الآخر ١٢٩٨ ، العدد ١٠٧٨ فى ٤ جمادى الأول ١٢٩٨ (٣ ابريل ١٨٨١) انظر : تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده للسيد محمد رشيد رضا ج ٢ ص ١٣٦ — ١٤٢ .

وواضح من رواية البديرى هنا أن الدوسة كانت تقام أيضا كلما اشتد الـكرب بالناس ، كما حدث فى تلك السنة من هجوم الجراد وانتشار الفسق واشتداد الغلاء .

(١) هذه الـكلمة ساقطة من النسخة الظاهرية .

(٢) جاءت هذه العبارة فى النسخة التيمورية : برفع البلا وهلاك الجراد

ولا أحد يتكلم بقيل وقال ، ولا أمر بمعروف ولا نهى عن المنكر ، والصالح فى همّ وكرب ، والفاجر الطالح منقلب فى لذيذ النعم ، اللهم فرّج آمين .

وفى يوم الخميس ثامن جمادى الأولى من هذه السنة أمر حضرة أسعد باشا على الانكشارية [فى] الشام والزعماء والسباهية وكل قرية عشرة أنفار بالمسير إلى جبل الدروز[1] ، وأمر أن تعمّر فى البقاع أفران لأجل خبيز الخبز . وبلغنا أنه جاءه فرمان بأن يكون معه باشة صيدا وباشة طرابلس لمساعدته ، وأمر المتاولة بأن تساعده على حربهم . وكان الزمن فى شهر أيار[2] ، والزروع فى الأرض باقية ، ما حصد منها شئ ، فخافت الخلق من تلك الأحوال ، والغلاء واقع بالشام ، ورطل الخبز من سبعة إلى ثمان مصارى .

وفى ليلة الخميس خامس عشر جمادى الأولى من هذه السنة قتل أسعد باشا العظم السيد صالح بن إبراهيم بيك السوقية . فسألنا عن السبب ، فقيل إن أباه اشتكى للباشا أن ولده صالح تكلم مع أبيه بكلام فاحش ، وأراد أن يتوّسه[3] ، فأرسل حضرة الباشا وأمر

---

(١) ذكر الأمير حيدر الشهابى فى تاريخه نبأ الحرب بين أسعد باشا والدروز بقيادة الأمير ملحم الشهابى فى وقائع سنتى ١١٦١ و١١٦٢ (١٧٤٨ و١٧٤٩) ، وجعل سببها تارة حنق أسعد باشا للصداقة التى قامت بين الأمير ملحم وسعد الدين باشا أخى أسعد باشا (ج ١ ص ٣٦) كما جعل سببها فى مكان آخر انكسار بعض المال السلطانى المرتب على الأمير ملحم [ص ٣٧] ونوّه الأمير حيدر بهزيمة أسعد باشا وجند الشام [ص ٣٨] .

(٢) شهر مايو . (٣) أى يقتله .

أن يؤتى بولده مهانا ، وعند المساء أمر بخنقه فخنق ورمى ، والأمر لله .

وفى يوم الجمعة بعد الصلاة برز حضرة أسعد باشا إلى المرجة وأمر بأن تعرض عليه عسكر الشام من الأنكشارية والزعماء ، ثم رحل ، وبعد ثلاث أيام من رحيله تبعته أوجاقات الشام . ولما وصل إلى البقاع خرّب بعض قرى للدروز وحرق ونهب وقتل ، ثم أغار هناك على عرب يقال لهم الفريخات ، وهاوشوه[1] مدة أيام ، ثم نجوا بطرشهم[2] والعيال ، وتركوا الخيام والمال ، وذلك بعد ماقتلوا جماعة من عسكر الباشا وجرحوا . وبلغنا أنهم كانوا طائعين . وأرسل يطرح بقرهم على الضيع والأصناف ، وعمل عملاً يؤدى إلى الخلاف ، ثم نزل فى البقاع وأمر بحصد زرع الدروز ، فحصدوا مغل[3] البقاع . والغلاء متزايد ، والجراد فى أرض الشام زايد ، لكن الله ملجمه رحمة بخلقه .

وفى يوم الخميس ثامن جمادى الثانية قبل قدوم مربعانية الصيف[4] بخمسة أيام صار رعد وبرق مخوف ، وأرمت السماء بمطر كأفواه القرب ، وقبل ذلك بأيام صار رعد كثير من غير مطر . فهذه الأحوال عبرة لمن اعتبر .

---

(١) أى ناوشوه . (٢) الطرش هى الأغنام فى اصطلاح اللبنانيين .
(٣) أى زروع البقاع . (٤) أنظر فيما سبق ص ٤٠

وقد بلغني من حضرة [٢١ ب] أسعد باشا حينما كان بجبل الدروز أنه جاءته شكاية من أهل قتيل سني على رجل درزي، أنه كان مشاركاً لرجل تركماني على نحو خمسمائة رأس غنم، وأن الدرزيّ اغتال شريكه التركماني فقتله، فأمر حضرة الباشا أن يفتش على الدرزيّ، فقبض عليه وأمر بقتله، فقتل، واستلب الغنم التي عنده وأرسلها إلى الشام، وبيعت طرحاً على لحامة[1] الشام، كل رأس بثمانية غروش، والذين اشتكوا ما أعطاهم درهماً ولا ديناراً، ولله الأمر.

وفي هذه الأيام ورد إلى دمشق الشام ثلاثة يهود من مدينة حلب، ولهم مهارة في ضرب الآلات بأحسن النغمات، فصاروا يشتغلون في قهاوي الشام، ويسمعهم الخاص والعام.

وفي منتصف جمادى الثانية بلغني أن بعض عسكر أسعد باشا — قيل هم المغاربة — تحرش بالدروز، وذلك حينما كان الباشا وعساكره مخيمين ببلادهم، وأطلقوا عليهم الرصاص، ووقعت المناوشة بالقتال، نهض حضرة الباشا على قدميه، وكان جالساً على الغداء، وأخذ بيده رمح [كذا] وقيل تدرّع[2]، وطاب أمام عسكره القتال، وأخذ بين يديه أنكشارية الشام، وكان عليهم محمد آغا بن

---

(١) اللحامة هم القصابون في اصطلاح أهل الشام.

(٢) أي لبس الدرع.

عبدالله (آغا[١]) كش أغلى . فصاح الآغا على جماعته وطلب الغارة وحده ، وتبعه الباشا وبقية العسكر ، (وجرّوا المدافع)[٢] وجدّوا الغارة طالبين فم الجبل ، والرصاص منهم وعليهم مثل المطر ، فكان أول من انهزم عسكر الدالاتية أهل الكبر والجبزوتية[٣] . ولم يصب أحد ولله الحمد من عسكر أوجاق الشام سوى رجل من أنكشارية بعلبك . ثم إن حضرة أسعد باشا عنّف عسكر الدالاتية بعد غضب منه شديد ، وقال لهم : تبًّا لكم من أعوان ، ولمن اتخذكم من أنصار ، تأخذون العلايف والمال وتهربون من الحرب والقتال ، والمتطوعون يقاتلون لله ورسوله ، ويتسابقون للحرب ، مع ما قد فعلت معهم من الفعال من قتل وسلب وخراب ديار[٤] ، ولكن سوف أعرف لهم هذا الأمر وأزيل عنهم الشرّ والقهر . ثم إنه دعا أوجاق الشام وأوعدهم بالإحسان والإكرام . ثم بقي [كذا] الحرب فى اشتعال بقية ذلك النهار ، ثم أخذ

---

(١) هذه الكلمة ساقطة من النسخة الظاهرية .

(٢) هذه العبارة ساقطة من النسخة الظاهرية .

(٣) فى هذه الواقعة تأييد لما ذكره الأمير حيدر أحمد الشهابى ونقلناه [حاشية ١ ص ٩٣] عن هزيمة أسعد باشا وجنده أمام الدروز .

(٤) يشير الباشا إلى أنكشارية الشام وما كان منه من قتالهم وتشتيت زعمائهم مستعيناً بالدالاتية عليهم ، والآن انهزم الدالاتية أمام الدروز ، بينما صمد الانكشارية فى القتال ، لهذا دعاهم الباشا إليه ووعدهم « بالإحسان والإكرام » .

حضرة الباشا المدافع إلى الجبل[1] ، وحلف الأيمان المعظمة أنه لا يرجع عن الجبل ، حتى يرمى كل من فيه بالهلاك والتلف ، ويجعلهم [١٢٢] أحاديث . ثم كتب إلى حمص وحماة والمعرّة والشام بأن يجردوا له الرجال الأجلاد ، وطلب من كل قرية خمسة عشر نفرا ، وعمل على أهلها كل واحد أجرته نصف غرش ، وأرسل فرض عليهم بعض أنفار ، وأكثر عليهم من فرائض الأموال . وشددّ الأمر على الناس حتى ضيّق منهم الأنفاس ، وزاد عن القياس . وكان قد قتل من أهل الجبل أربعة أنفار من كبارهم مع من قتل ذلك النهار ، ومع ذلك فقد طلبوا الصلح ووزنوا له المال ، فأبى إلا القتل والسلب . وكان قبل الواقعة بأيام أمر حضرة الباشا بأن تحصد الغلال التى للدروز وغيرهم وأمر بضبطه ، وكلما جمعوا شيئا نهبوه ، وقد كانت بركات كثيرة ، لأن إقبال هذا العام شيء كثير ماسمع بمثله ، وغالبه اندرس تحت الأقدام . وكان رطل الخبز بدمشق بستة مصارى . فلما جاء القمح الجديد باعوه بخمسة مصارى ، وبعد يومين نادوا على الرطل بثلاثة مصارى . وقالوا : يارعية قد أنعم عليكم رب البرية ، رطل الخبز بثلاثة مصارى . وثانى يوم اشتغل البرطيل والرشوة للمتسلم موسى كيخية وغيره من أهل الظلم ، فحالا سمعوا مناديا ينادى لا أحد يبيع رطل الخبز بأقل من

---

(١) جبل الدروز ، أو جبل لبنان .

أربعة مصارى . وقيـــل كان ذلك من شيخ الطحّانة ، وكان يلقّب بالتخان ، عامله الله بما يستحقه آمين . وكانت الحركة المتقدمة التى أزعجت الباشا سببها من الله ، والجزاء من جنسها العمل ، لأنه حضرة الباشا قد أخذ بيد التخان المذكور ، وهو شيخ الطحانة ، وقد أمره الباشا أن يبيع قمحه[1] على سعر الغرارة بخمسة وثلاثين قرشاً . ثم بعد مسير الباشا وهو يوم الحركة كان قد نزل سعر القمح ، فصار ثمن الغرارة خمسة وعشرين غرشا ، فلم يقدر أحد أن يبيع بهذا السعر إلا خفية .وقدضاق الأمر على الفقراء والمساكين . وكان كل من تحرك من العامة ربطوه بحبل طويل ، وجرّوه إما إلى العذاب وإما إلى القتل وسلب المال والعرض. والأمر لله العلى الكبير .

قال المؤرخ [البديرى] : وقد بلغنى عن أسعد باشا وهو نازل إلى جبل الدروز بلغه بأن ضيعة من ضيع البقاع إلى الدروز ، فأمر عسكره بنهبها وسلبها ، فلما وصلوا إليهم تلقتهم أهلها بالبشر والفرح والسكون ، وهم عمّا يراد بهم غافلون ، ثم [٢٢ ب] أنزلوهم وذبحوا لهم وضيفوهم ، فنزلوا وأكلوا واكتفوا ، ثم قاموا وجردوا عليهم السيوف ، فصاحوا عليهم لاتفعلوا أنتم أصدقاؤنا ونعم الضيوف . فلم يسمعوا بل قتلوا منهم جماعة وجرحوا ، فطلبوا الهزيمة حالا وفروا

(١) أى قمح الباشا الذى سبقت الإشارة إلى أنه جلبه من ضياعه بحماة ليباع فى دمشق .

من وجوههم، فنهبوا متاعهم ومصاغهم وأموالهم. ثم طلبوا النساء فانهزمن من بين أيديهم ، ودخلوا بعض البساتين هناك ، وكانوا يزيدون على ثلاثمائة امرأة وبنات أبكار ، فهجم عليهم [كذا] ذلك العسكر ، ومسك كل واحد منهم واحدة ، وهم يصطرخون بالبكاء والعويل ، فلم يجدن مساعدا حتى فعلوا بهن المنكر . وهذا نقله لى من اطلع على حقيقة هذا الخبر . وحرقوا القرية بعد ما نهبوا جميع ما فيها ، وترك أهلها بالويل والتنكيل . وحسبنا الله ونعم الوكيل . وكان ذلك قبل الوقعة ، وقيل هى سبب الفتنة .

ولما جمع حضرة أسعد باشا الجموع وملأت البرارى والربوع ، فكان من جملة من قدم لعند الباشا محمد باشا باشة صيدا ، وكان رجلا كبير السنّ ، قد جرّب الدهر وأهله . فتلقاه أسعد باشا بالعز والإكرام وشكى إليه ما فعلته الفرقة الدرزية من الغدر والقتال ، وسأله المعونة على هذا الحال . فلامه محمد باشا على ذلك ، وأمره بالكف عن قتالهم ، وقال له : هذا أمر يعود علينا وعليك بالتلف ، ولا ترضى الدولة به لأنهم [أى رجال الدولة] يريدون العمار للبلاد ويكرهون الجور والفساد ، قادرون على إرسال عشر وزر [اء] بيوم واحد ، ولا يقدرون أن يعمروا فى عشر سنين قرية إذا خربت من هذه القرايا ، ولأجل خاطرى أيضاً صالحهم ، وخذ ما لك عليهم من [المال] المعلوم واترك أولاهم ، وكان أولاد أمرائهم قد حبسهم أسعد

باشا فى القلعة ، ولهم أكثر من سنتين ، وهم صغار غير بالغين . ثم شدد عليه بذلك[١] . فأجابه لذلك حضرة أسعد باشا ، لكن ظاهرا لا باطنا ، لأن مقصود الباشا المذكور تدميرهم عن بكرة أبيهم ، وهذا من قبيل المستحيل .

فقال له حضرة أسعد باشا : أنت إذن دبر هذا الأمر برأيك . فقال : دعنا نشرط عليهم ما تريد من الشروط . فحلف له أنه لا يشرط عليهم شرطاً ولا يأخذ مالا ولا يفعل معهم شيئا . ثم ودع محمد باشا باشة صيدا بعد ما عظمه واحترمه ، [٢٣ ا] وأضمر خلاف ما أظهره .

وبلغنى أنه بالوقت أرســـل خبراً إلى الدولة العلية يطلب لأخيه مصطفى بيك الوزاوة بصيدا ، حتى يفعل بالجبل ما أراد[٢] ،

(١) أشار المؤرخ اللبنانى الأمير حيدر الشهابى إلى توسط باشا صيدا « مصطفى باشا القواس بين الأمير ملحم الشهابى زعيم الدروز وأسعد باشا العظم . أما عن أسر أبناء الأمراء الشهابيين بقلعة دمشق فلم يذكر المؤرخ اللبنانى إلا حجز الأمير على بن الأمير ملحم لدى والى صيدا ثم عودته على أثر دفع أبيه المال الذى اتفق عليه [ج ١ ص ٤١ — ٤٢] أما الشدياق فقد أشار إلى القتال بين سليمان باشا ثم أسعد باشا العظم وبين الأمير ملحم الشهابى ، وقال إن ملحم كان قد وضع أخاه رهينة عند سليمان باشا فى دمشق ، وقال إن الحقد قد بلغ من أسعد باشا العظم على الأمير ملحم أنه إذا جاءه منه كتاب وضع يده على اسمه حتى لا يراه . [أخبار الأعيان فى جبل لبنان ص ٣٦٩ — ٣٧١]

(٢) كان باشا الشام [دمشق] يهمه أن يكون على باشوية صيدا رجل يوافق سياسته ، فان إدارة جبل الدروز [لبنان] كانت تابعة لنظم باشا صيدا ، وقد أنشئت هذه الباشوية خصيصاً للإشراف على شئون الجبل فى سنة ١٦٦٠ ، على أن =

ويشفى منهم الفؤاد . وقيل إن باشة صيدا أرسل يطلب من أهل الجبل إلى أسعد باشا جملة من المال ، فحلفوا له أن لا يعطوه ولا عقال ، ولكن إذا أرسل أولادنا أرسلنا له أربعين كيسا ، الذى [كذا] هى علينا معتادة ، وإلا دعه يفعل ما أراد ، فوالله إن حرّك ساكنا لنهدمنّ عليه البلاد ، فنحن ما الذى فعلنا حتى يقابلنا بهذه الأمور ، أما كفاه أنه أهرق دماءنا وأباح ما لنا ونساءنا ، وقد أعدم لنا أكثر من مائتى كيسا من الحنطة والحبوب .

هذا وأسعد باشا قد فرّق ما جمع ، وعيونه من غيظه تدمع ، وبقيت الأمور تحت الأوهام . وقد عادت الأوجاقات السباهية والانكشارية إلى الشام ، ولم تنتظم الأمور والأحوال ، والحكم لله الملك المتعال .

وفى شهر رجب من هذه السنة ، وهى سنة ستين ومائة وألف وقع حرب بين بنى صخر وعرب عنزة فى بلاد حوران بسبب استيلاء أغنام بعض القبايل . وفى هذا الشهر أيضا وصل خبر إلى دمشق بأن

= باشا الشام كان له أيضا إشراف على الجبل والدروز ، بحكم أن أمراءهم [من بنى شهاب] كانوا يحكمون أحيانا بعض الجهات الداخلية فى باشوية الشام كسهل البقاع ، وقد كان ولا يزال أهم مصدر لتموين لبنان بالقمح ، وكان الأمراء يدفعون لباشا الشام مبلغا من المال كل سنة مقابل حكمهم هذه المنطقة ؛ وقد ذكر البديرى هنا أنه أربعون كيسا

الدروز نزلوا من الجبل ونهبوا (وسلبوا)[1] ، وحرقوا ثمانية عشر قرية من بلاد البقاع ، وحاصروا بعلبك وضيقوا عليها الحصار .

وفى يوم الأربعاء ثامن رجب ورد من صيدا عبد الله باشا ابن الكبرلى ، وكان مجيئه من جهة إسلامبول ، وشاع عنه أنه يريد الحج ونزل بدار أبو شنب .

وفى يوم الاثنين من هذا الشهر توفى الشيخ عبد الرحيم بن الاسطنبولية رحمه الله . وبهذا النهار ضربت مدافع ، فسألت عن السبب ، فقيل : إن صيدا جاءت إلى موسى كيخية متسلم دمشق من قبل أسعد باشا . وكان هذا الرجل أولا كيخية عند إسماعيل باشا ابن العظم . وجاء مع القبجى فرمان بأن تشدّ الرحال لقتال الدّروز ، وأن يضيقوا عليهم وأن يدمروهم عن بكرة أبيهم .

وفى يوم الاثنين سابع شعبان من هذه السنة أمر حضرة أسعد باشا الدالاتية والأطلية[2] بأن تركب وتغير على أرض البقاع ومن فيها من الدروز ، فيقتلوا ويأسروا وينهبوا ويفعلوا ما أرادوا . ثم بلغنى أنهم أغاروا على جماعة من الدروز وهم على حين غفلة ، فقتلوا منهم ومن مشايخهم ، وقبضوا على الباقين منهم ، ونهبوا الأموال

---

(١) هذه الكلمة ساقطة من النسخة الظاهرية .

(٢) لعلها [الأرطلية] أى الجند المنتمون إلى أرط ، وقد عاد البديرى [فى أواخر حوادث سنة ١١٦٦] فذكر [الأرطلية] .

والدواب والغنم [٢٣ ب] والنساء والأولاد ، وجاءوا برؤسهم إلى دمشق . فكان يوم مجيئهم يوماً تقشعر منه الجلود مع الجلال . فنسأله تعالى أن يصلح الأحوال ، ويرحم أهل الشام ويرخص لهم الأسعار .

وفي يوم الخميس عاشر شعبان عمل الشيخ إبراهيم الجباوي متولي جامع الاموي فرح عرس إلى ابن ابنه ، وأمر أن تزين الأسواق بالقناديل والشمع ، وأمر أن تشعل منائر الجامع الأموي فشعلت ، وهذا شيء ما سمعناه أنه [سبق][1] لغيره .

وفي ليلة السبت مات الشيخ الولي معتقد أهل الشام الشيخ عمران بن الشيخ إبراهيم إمام دار السعادة . كان رحمه الله من أرباب الأحوال ، وكان له ستة أصابع في يده اليمنى ،وكان يكتب خطاً حسناً بيده اليسرى ويقلد كل خط ، وكان حسن الصوت بقراءة القرآن . ودفن بباب الصغير بجوار سيدنا بلال رضي الله عنه .

وفي هذا العام جاءنا الخبر بوفاة أحمد باشا بن حسن باشا والي بغداد[2] .وقيل إن سبب موته أن الدولة أرسلت له فروة مسمومة،فلبسها

---

(١) هذه الكلمة ساقطة في النسخة الظاهرية .

(٢) تولى أحمد باشا باشوية بغداد عقب وفاة أبيه في سنة ١٧٢٣ وقد تجددت في عهده الحرب مع إيران ، وقد أكثر من المماليك ، حتى أصبح لهم سلطان قوي ، وخلفوه في ولاية بغداد ، حتى كانت نهاية آخر الباشوات منهم وهو داود باشا سنة ١٨٣١ .

فدب السم فى بدنه ، فمات رحمه الله . كان رحمه الله شجاعا مقداما مدبرا الأمور أطاعته العباد ودانت له البلاد ، وقد دفع عن بغداد كل جبار ولقد قصده طهماسب الخارجى[١] ومعه عسكر جرار ، وحاصر بغداد أشهراً فلم يقدر على فتحها فرجع ذليلا صاغراً ، وطلب بلاد الهند والتتر ، فسلط عليه ولده فقتله ودمره ، وتولى ولده مكانه ، ولم يخرج على الدولة وكان اسمه دبوس . ولما توفى أحمد باشا والى بغداد أرسلت الدولة إلى بغداد والياً كور محمد باشا[٢] ، وكان صدراً أسبق . فلما استقر ببغداد ، طلبت منه الانكشارية العلايف أى المعاشات . فقال لهم علايفكم عندى . قالوا لا ، فقد كان أحمد باشا الذى كان قبلك يعطينا إياها من ماله ، ولما تأتى له من الدولة يأخذها . قال لهم : أنا لا أفعل . قالوا لا بد من ذلك وشددوا عليه بالكلام ، وكانوا مثل البحر الزخار . فقال إن كان ولا بد من ذلك فأرسلوا الى من أكابركم من كل بلك ثلاثة رجال ، حتى يستلموا المال ففعلوا ، ولما حصلوا عنده أمر بقتلهم ورمى جثثهم . فلما رأوا إلى ذلك أسرعوا إلى القلعة ورموا عليه بالمدافع والبارود ، حتى هدموا سرايته ، وقتلوا آغة جماعته . فخرج الباشا من سرداب تحت الأرض ينفذ من خارج البلد وفرّ هاربا إلى بلاد العجم . ثم كاتبت أهل بغداد إلى الدولة العلية بأن

(١) هو نادر شاه إيران ، وقد دعاه الخارجى لأنه من الشيعة .

(٢) الصحيح أن الباشا الذى خلف أحمد باشا والى بغداد وثار عليه الإنكشارية هو الحاج أحمد باشا الذى كان واليا على ديار بكر ، وكان صدراً أعظم .

يرسلوا واليا لبغداد عليهم سمّوه لها ، كان عند مخدومه أحمد باشا المتقدم ، وكان فيه [١٢٤ ا] استعداد تام ، فأرسلوه لهم ، وقد رضوا به[١] .

وفى سابع وعشرين من شعبان قدم أسعد باشا من الدورة ، وكان دخوله قبيل المغرب ، وجاءت معه مغاربة كثيرة .

وفى هذه السنة صار ثبوت رمضان الأربعاء ، وضربت المدافع ليلتها فى الساعة الخامسة ، وبعض الأئمة صلى التراويح تلك الليلة . وقد صارت غرارة القمح بعشرين قرشاً ، والله يعيذنا على هذا الغلاء ، الذى هو رطل الخبز بخمسة مصارى ، والأرز بإحدى عشرة مصرية ، والباذنجان بأربع مصارى .

وفى ثامن رمضان جاء من إصطنبول شيخ الإسلام يقصد الحج إلى بيت الله الحرام ، وخرجت لملاقاته أعيان[٢] الشام ، ومكث اثنا عشر يوماً ، وتوفى لرحمة الله تعالى وصار قبره بالشام ، ودفن بباب الصغير قبلى سيدنا بلال، رضى الله تعالى عنه .

وفى يوم الثلاثاء الحادى والعشرين من شهر رمضان نبّه أسعد باشا

---

(١) هو سليمان باشا المعروف بأبى ليلة ، وقد ظل على ولاية بغداد اثنتى عشرة سنة وهو أول الباشوات من المماليك .

(٢) فى النسخة الظاهرية : أهل الشام .

بأن يكون الريال بقرشين إلا ثلث، وكان أولا بقرش ونصف وأربع مصاري . وكان عيد الفطر فى هذه السنة نهار الجمعة .

وفى يوم السبت سادس عشر شهر شوال خرج المحمل الشريف صحبة أمير الحاج أسعد باشا العظم حفظه الله ، وأقام نائباً عنه بدمشق متسلماً موسى كيخية المتقدم ذكره . وقد جاء خط شريف بعد خروج الباشا إلى الحج بإخراج أولاد الدروز من القلعة ، فأخرجهم المتسلم ، وصار فى الجبل فرح عظيم . ولو كان أسعد باشا فى الشام لما أخرجهم ، لأنه طالما جاءته أوامر بإخراجهم فلم يخرجهم . وفى هذه السنة المطر قليل والغلاء كثير ، وكان غالب قوت أهل الشام خبز الذرة والشعير ، والفقراء مالهم من دون الله معين ولا نصير .

سنة ١١٦١

ثم دخلت سنة إحدى وستين بعد المائة والألف ، وكان أولها محرم الثلاثاء[١] . وقد خربت القرى من جور الدالاتية ، ومن أعمالهم التى هى غير مرضية .

قال المؤرخ [البديرى] : وفى محرم توفى شيخنا ومحبنا الشيخ محمد المصرى الأزهرى الملقب بأبى السرور ، ودفن بمرج الدحداح

(١) يوافق ٢ يناير (كانون ثان) ١٧٤٨ .

قريباً من النهر بقبر مبلط بشاهدتين . كان رحمه الله تعالى عالماً فاضلاً ديناً . ومن مناقبه أنه ما اجتمع به أحد إلا وحصل له سرور وفرح ، ولو لم يتكلم ، وهذا أكبر دليل على صلاح طويته .

وفى نهار السبت سادس وعشرين محرم جاء جوقـدار الحج ، وبشّر بأن هذه السنة لا نظير لها فى الرخص والرخاء . وفى خامس صفر جاء كتّاب الحج وأخبر [٢٤ ب] أن الحج متأخر من كثرة الثلج والمطر . وفى ليلة الثلاثاء من صفر الخير دخل الحاج ليلا ، وثانى يوم (الأحد)[١] دخل أمير الحاج أسعد باشا وأخوه سعد الدين باشا أمير طرابلس الشام . وقد حصل للحجاج فى هذه السنة كل خير ، ولم يروا مكدراً سوى سيل جاءهم وهم فى بدر ، فأتلف وأغرق ، وفى محلة العلا نزل[٢] ثلج ومطر وبرد ، وصار للحج مشقة ، لكن بها لطف عظيم . وفى غيبة الحاج جاء تقرير إبقاء لأسعد باشا فى الشام .

وفى يوم الخميس سابع عشر صفر أجازنا الشيخ أحمد بأن نقرأ كل يوم عقب صلاة الصبح بعد الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ياعزيز سبعة وثمانين مرة ، وأخبر أن خواصها عظيم ، وأن يدعو [المرء] بعدها بما أحبّ ، فإنها تجاب دعوته .

---

(١) هذه الكلمة ساقطة من النسخة التيمورية .

(٢) العلا محلة على طريق الحاج الشامى ، جنوب دمشق ، ثم انشئت بها محطة لسكة حديد الحجاز .

وفى اثنين وعشرين صفر الخير وردت خزنة مصر إلى دمشق والغلاء مشتد فى دمشق ، حتى صار رطل اللحم بثلاثين مصرية ، ورطل الأرز باثنى عشر مصرية ، والخبز رطله بخمسة مصارى وبستة وبسبعة وكل من يبيع برأيه .

وفى آخر ربيع الأول من هذه السنة نادى حاكم الشام أسعد باشا على الفلوس كل تسعـــة بمصرية ، والمصارى الفضة كل ستة وثلاثين بقرش[1] .

وفى يوم الأحد ثانى ربيع الثانى قتل محمد آغا بن الزرخلى ، وهو كاتب العربى فى طرابلس ، وكان مع سعد الدين باشا حاكم طرابلس فى الجردة ، فلما رجع ووصل إلى الشام أمر أسعد باشا أن يرفع للقلعة ، وبعد أيام أمر بقتله ، فقتل ، ولم يعلم ذنبه .

وفى نهار الثلاثاء آخر جمادى الثانية من هذه السنة وقعت فتنة بين الأشراف والقبقول[2] . وسبب ذلك أن رجلا شريفاً اشترى من

(١) واضح أن أسعد باشا بقراره هذا قد هبط بقيمة العملة ، فإن القرش كان ٤٠ مصرية (بارة) فجعله ٣٦ ، وكانت المصرية ١٠ فلوس فجعلها ٩ .

(٢) كان للأشراف (أو السادة) اعتبار كبير فى البلاد الإسلامية وكانوا يتمتعون فى الدولة العثمانية بامتيازات كثيرة ، حتى إن نقيب الأشراف فى الآستانة لا يتقدمه إلا شيخ الإسلام .

=

رجل شريف طبنجة وأراد أن يجربها، فأتى إلى الخندق ليجربها، فلما ضربها سمع صوتها آغة القبقول، وكان نائماً، فاستيقظ مرعوباً، وقال ائتونى بمن يضرب بهذه البارودة، فجاءت أعوانه وقبضت عليه وعلى جماعة كانوا معه، وأخذوهم إلى أغاتهم، فأمر أن يضرب كل واحد منهم ثلاثمائة سوط، فضربوا ضرباً وجيعاً وتركوا كالأموات، ثم وضعوا شاشاتهم فى لباسهم. فبلغ نقيب الأشراف ما فعل بهم؛ فأرسل وأتى بهم إلى داره، وفى اليوم الثانى قامت الأشراف على [٢٥ ا] قدم وساق، وهجمت على القبقول وتقاتلوا، فقتل من الأشراف ثلاثة[١]،

= وقد زخر تاريخ دمشق وحلب فى العصر العثمانى بأنباء النزاع بين الأشراف والجند، فقد كان الأشراف يعتزون بنسبهم الشريف، وكانوا يكونون طبقة لها احترامها، أما الجند فقد دأبوا على الفتنة وكانوا يهزأون بالأشراف، حتى أنهم فى حلب «كانوا يدخلون رأس الكلب فى بطيخة خضراء فارغة ويرسلونه فى الأسواق والشوارع ووراءه واحد منهم ينادى بقوله: تنحوا عن طريق السيد» (لأن السادة كانوا يلبسون عمائم خضراء) [الغزى ج ٣ ص ٣٥٠] وصارت القبقول تقول: (فى رواية البديرى) إن قتلة الشريف قيمتها أخشابة (أقچة) فضة وذكر جب وبون (Vol. 1. part. II. P. 93—94,101) أن الإنكشارية فى دمشق وحلب كان كثير منهم من أرباب الحرف وكانوا يكونون جزءاً من القوات العسكرية، وكانوا دائماً فى نزاع مع الإنكشارية المحلية. ولكن من الواضح — كما تدل على ذلك روايات ذلك العصر ومنها ما كتبه البديرى — أنهم كانوا يكونون جزءاً من الإنكشارية المحلية وكانوا فى نزاع مستمر مع انكشارية الدولة أو القبيقول.

(١) ثلاثمائة فى النسخة الظاهرية، وهو أمر غير معقول.

وجرح كثيرون وسكرت البلد كلها . وفى اليوم الثالث صار ديوان عند أسعد باشا حاكم الشام ، واجتمعت فيه الأعيان كالمفتى والنقيب والعلماء ، ثم انقضى الديوان ، وحكموا على القبقول بأن يعطوا دية الشهداء الأشراف لورثتهم . ثم أمر الباشا بأن تفتح الأسواق ويقصد الرزاق . وكان يوم الوقعة اثنان من الأشراف الأول يقال له السيد حسن شيخ شباب باب المصلى، والثانى السيد محمدبن الدهان من السنانية كان قد كرا بعصاهما وهجما على القبقول ، وردّوهم إلى القلعة خاسئين .

وبعد يومين وهو نهار السبت بعد العصر بينما كان السيد محمدبن الدهان ماراً فى القنوات ، وإذا بشخص من جماعة القبقول ضربه خبنجة ، فجاءت فى بطنه . فقامت الأشراف وأهل البلد ، وهجمت على أسعد باشا وأخبرته بالخبر ، فقال لهم : إن مات قتلت غريمه ، وإلا فأنا أدبره . فمات المضروب بعد الظهر ، فذهبت الأشراف إلى الباشا ، فأمر بإحضار الشهود لأجل الحكم على القاتل ، فذهبوا للشهود ، فلم يرض أن يشهد أحد على القاتل ، وقالوا من يشهد ليقتل ، ويكون خصمه نحواً من خمسة آلاف بطل شقى . وحاصله ما أثبتوا الدعوى ، وتركوا دم الأشراف يروح هدراً . والأمر لله العلىّ الكبير .

وهؤلاء القبقول قد جاء فيهم أمر سلطانى وخط شريف بإبطالهم من الشام ، وأن من استخدمهم أو ردّهم ملعون بن ملعون[1] . فالحاكم

(١) انظر ماسبق عن إخراج القبوقول من الشام فى عهد ولاية عثمان باشا المحصل ، ثم إعادتهم فى عهد أسعد باشا ليستعين بهم على الإنكشارية المحلية .

وقتئذ تيقّن أن البلد لا تصلح إلا بهم ، فأقرهم وأبقاهم . وبعدها صارت تقول القبقول : إن قتلة الشريف قيمتها أخشاية فضة(١) . والحكم لله والغيرة لله ولرسوله .

وفى (ثانى)(٢) يوم جمعه عمل أسعد باشا ديواناً ، وجمع فيه علماء الشام وأعيانها ، وقال لهم : أنا الليلة مسافر على الدورة ، فتسلموا البلد ولا تتركوا أحداً يتعدى على أحد . فقالوا يا أفندينا نحن أناس منا علماء ومنا فقراء ومنا ما ...ون ، وصنعتنا مطالعة الكتب وقراءتها . فقال لهم : هذا إقراركم ، وكيف وأنتم الأعيان ، فقالوا : حاشا لله إنما أعيان الشام القبقول(٣) . فقال لهم : هذا إقراركم ، وقد تحققتم بأن أعيانها والمحافظون لها القبقول . فعند ذلك أرسل [٢٥ ب] خلف رؤساء القبقول وسلّم البلد لهم . وكان ذلك منه دهاء . ثم سافر وترك الناس تتقلب فى فرش القهر والكدر .

وقد كان رجل من الأشراف من جملة من كان أيام فتنتهم قد فتح

---

(١) أخشاية تحريف للكلمة التركية أقجة وهى عملة فضية صغيرة ، وكانت حتى أواخر القرن السابع عشر العملة التركية الشائعة التى تستخدم فى الحسابات الرسمية، وقد هبطت قيمتها كثيراً، فسكت عملة فضية جديدة منها البارة وكانت تساوى ٤ ثم ٣ أقجات [Gibb and Bowen , II. p.51 — 54.] .

(٢) هذه الكلمة ساقطة من النسخة التيمورية .

(٣) هذه العبارات فيها بعض الاضطراب فى النسختين الظاهرية والتيمورية .

دكانه بعد أن هدأت الأمور ، فبينما هو يفتح دكانه إذ قبضت عليه جماعة من القبقول ورفعوه إلى القلعة . بعد أن شدّوا وثاقه وثقلوه بالقيود ، حتى كأنه من اليهود أو من قوم عاد وثمود ، ثم فتشوا على غيره ليقرنوه ، فهربت غالب الأشراف . فانظروا يامسلمين إلى هذا الإنصاف ، وقولوا ياخفيّ الألطاف نجنا مما نخاف .

وفى تلك الأيام ازداد الفساد وظلمت العباد وكثرت بنات الهوى فى الأسواق فى الليل والنهار . ومما اتفق فى حكم أسعد باشا فى هذه الأيام أن واحدة من بنات الهوى عشقت غلاما من الأتراك . فمرض ، فنذرت على نفسها إن عوفى من مرضه لتقرأن له مولدا عند الشيخ أرسلان . وبعد أيام عوفى من مرضه ، فجمعت شلكات البلد وهن المومسات ، ومشين فى أسواق الشام ، وهن حاملات الشموع والقناديل والمباخر ، وهن يغنين ويصفقن بالكفوف ويدققن بالدفوف ، والناس وقوف صفوف تتفرج عليهن ، وهن مكشوفات الوجوه سادلات الشعور ، وما ثم ناكر لهذا المتنكر ، والصالحون يرفعون أصواتهم ويقولون الله أكبر .

ومما وقع فى شهر رجب المبارك من هذه السنة أن رجلاً زوّج ابنه وعمل وليمة عرس ، وعند المساء أخذ العريس بعراضة[1] وشمع

---

(١) العراضة هى الموكب أو الزفة .

وطبول ، فخرجت عليهم أعوان المتسلم موسى كيخية ، وكان رأس[1] أعوان الحاكم محمود بشة البغدادى ، وكان مدعوّا فى الوليمة ، فلما توسّطوا السوق بالعراضة كان أول من بطش بهم ، فتهاربت الخلق كلهم فهذا طار قاووقه ، وهذا ترك بابوجه ، والآخر أخذت جبته . وفى ثانى يوم أمر الحاكم بالقبض على أبى الغلام ورفعه للقلعة ، وقد طلب منه مالاً عظيماً ، والأمر لله العلى الكبير .

وفى هذه الأيام ذُبح رجل فى فراشه بقرية زبدين . وفى يوم السبت سابع عشر رجب ذُبح رجل شريف فى حارة باب السّلام فى داره وما وجد عنده أحد . وكان قبل ذلك بأيام ضرب عمٌّ هذا القتيل رجل فى الدرويشية بطبنجة فى رقبته، فذبحته ومات لوقته . قال المؤرخ : وقد رأيته بعينى وهو مرمى فى [١٢٦] الطريق ، ولم يثبتوا على القاتل شيئا .

وفى نهار الثلاثاء تاسع عشر رجب دخل مغربى إلى بعض البساتين يريد فسادا ، فكلّمه صاحب البستان فى الحسنى ، فسبّه المغربى وشتمه شتما بليغا ، وكان صاحب البستان شجاعا ، فقام إلى المغربى وخاصله عدته وكتّفه ، ثم خاف من غائلة هذا الأمر ، فحل كتافه ، وأعطاه عدّته واعتذر إليه ، فما كان من المغربىّ إلا أن غلب عليه لؤمه ، فأخذ بارودته وضربه رصاصاً فقتله حالا : فجاء أخو صاحب

(١) فى النسخة التيمورية : رئيس .

البستان فضرب المغربى بطبنجة جاءت فى يده. فأراد المغربى الهرب، فوقع الصياح من الرجال والنساء، فجاء غلام فضرب المغربى بنبوت فرماه إلى الأرض، فكتفوه وإلى الحاكم أخذوه، فأقرّ لدى الحاكم بالقتل، وفى ثانى يوم خنقوه.

وفى يوم الخميس الحادى والعشرين من رجب ضرب مغربى حماته فقتلها. وبعد ثلاثة أيام قتل نصرانيا فى الشاغور. وهذا المغربى بوّاب مصطفى بيك بن العظم، أخو أسعد باشا باشة الشام. (وفى التاسع والعشرين من رجب هذه السنة كسفت الشمس حتى أظلمت الشام)[1]، ورأت الناس النجوم كما تراها فى الليل، ومكثت مكسوفة إحدى وعشرين درجـــة، وصلت الناس [صلاة] الكسوف فى الجامع الأموى. (وكان الإمام بالناس الشيخ أحمد المنينى أحد خطباء الجامع الأموى)[2]. وبلغنى أنه فى وقت الكسوف شعل قنديل جارنا الولى صاحب الكرامات الشيخ عزّ الدين أبو حمرة، ومقامه بجامعه المعروف به فى باب السريجة[3].

وفى تلك الأيام غارت العرب على جمال كثيرة فى قرية القدم، وأخذت ولم يرجع منها شىء. كما وأنه فى هذه الأيام غارت الدروز على قرية الزبدانى وغيرها، وأخذوا منها كثيراً من المواشى والأمتعة وغير ذلك.

---

(١) العبارات بين القوسين ساقطة من النسخة الظاهرية.

(٢) العبارات بين القوسين ساقطة من النسخة الظاهرية

(٣) انظر فيما سبق ص ٤١.

وفى ليلة الجمعة رابع عشر من شعبان من هذه السنة خسف القمر خسوفاً بليغاً ، حتى لم يظهر منه شىء ، وكان ذلك فى الساعة السابعة من الليل .

وفى يوم الثلاثاء خامس والعشرين من شهر شعبان قدم إلى دمشق السيد أبو بكر منلاخنكار قاصداً الحج إلى بيت الله الحرام ، وهو من أول من قدم من الحجاج البعيدين. وفى ليلة الاثنين عشرة[1] شهر رمضان المبارك قدم حضرة والى الشام [٢٦ ب] وحاكمها الوزير الخطير أسعد باشا العظم من الدورة ، وهو فى غاية الصحة ولم يحصل منه ولا أدنى مكدر . وفى يوم الحادى والعشرين من شهر رمضان قتل رجل فى سوق ساروجا ، وقبضوا على قاتله . وفى يوم الاثنين ثالث والعشرين من شهر رمضان وجد رجل مشنوق فى قصر السرايا فى حارة السياج الذى فيها إقميم[2] حمام الملكة ، وبقى معلقاً قبيل العصر ، ولم يعلم قاتله . فأمر الباشا بدفنه ، وذهب هدراً . وفى الخامس والعشرين وجد قتيل فى تربة باب الصغير عند قبر يزيد ، ولم يعلم قاتله . وفى هذه السنة صمنا رمضان ثلاثين يوماً ، وكان عيد الفطر الثلاثاء .

وفى يوم الأربعاء سادس عشر شوال جاء الحج الحلبى ، وثانى

(١) فى النسخة التيمورية : غرة

(٢) المكان الذى يحتوى على القمامة التى تستعمل وقوداً للحمام .

يوم سابع عشر خرج موكب المحمل الشريف صحبة أميره وأمير الشام الحاج أسعد باشا ، وفى تاسع عشر تبعه الركب الشامى .

وفى ليلة الاثنين قبل نصف الليل أقبل أحمد بشه بن القلطقجى وحاشيته وعبدالله بن حمزه وجماعته وكل خليل وعنبر بشه وأحمد بشه دقاق وعمهم جماعة من الدروز الذين كانوا هاربين ، ومعهم ستين رجلا من الدروز من جماعة ابن تلحوق[1] . ونزلوا فى حارة الميدان ، وحرقوا بوابة بيت القبانى ، ودخلوا داره بالتراويد والشوباش[2] ، ونهبوا كل ما فيه من أمتعة وغيرها ، ولم يروا أحداً من الرجال ، ولم يقربوا الحريم ، ونهبوا حاصلين حنطة وشعير ، ونهبوا دار الحاج إسماعيل بن زعيتر ، وكان

---

(١) مرّ بنا فيما سبق (ص ٦٨) التجاء القلطقجى وجماعته عند بنى تلحوق ، وهم من شيوخ دروز لبنان . وابن تلحوق الذى ذكره البديرى هنا هو الشيخ شاهين بن الشيخ محمد تلحوق . وقد أشار إلى هذه الفتنة روفائيل كرامة فى تاريخه الذى نشره المطران باسيليوس قطان باسم « مصادر تاريخية لحوادث لبنان وسورية ١٧٤٥ — ١٨٠٠ » ص ١١ ، والأمير حيدر الشهابى ج ١ ص ٣٩ — ٤٠ . وكان أول من شيّخ بنى تلحوق الأمير حيدر الشهابى ، شيخهم على الغرب الأعلى وخاطب زعيمهم بالأخ العزيز ، لأنهم أعانوه فى معركة عين دارا (سنة ١٧١١) وبهم وبسواهم من القيسية انتصر على اليمنية . انظر فى نسب بنى تلحوق وأخبارهم : الشدياق أخبار الأعيان فى جبل لبنان . طبعة سنة ١٩٥٤ ج ١ ص ١٩٤ — ١٩٩ .

(٢) يقصد بالصياح والهتاف . وكلمة شوباش مما يستعمل فى سورية ومصر فى الأفراح . أما التراويد فقد تكون تحريفاً للكلمة (تراديد) ويقصد بها أنه أثناء مظاهرات الفرح والابتهاج يقول أحد الأشخاص مقطعاً فيردده جمهور المتظاهرين . وقد تكون من الأوراد جمع ورد .

شيخ الجمّالة . ولم يقربوا الحريم، وكان صاحب الدار فى الحج . ونهبوا دار عبد الفتاح آغا باش شاويش ، لأنه كان عليهم أكبر عوانى ، وبعد هروبهم كان يؤذى أهلهم ، ثم قبضوا على ولده ، وقالوا : إن لم تعلمنا بأبيك قتلناك ، وإن دللتنا عليه فلك الأمان ، فمن خوفه أخرجه لهم وهو مخبأ فى قايط ، فقتلوه وقتلوا معه رجلا من حاشية السرايا كان ماراً عليهم وهم يقتلوه .

ولما بلغ موسى كيخية متسلم الشام فعلهم أرسل خلف الوالى والمفتى والقاضى ، وأمرهم أن يأخذوا معهم الصنجق ، ونادوا عليهم خوارج ، ومن كان يحبّ الله ورسوله والسلطان يخرج [٢٧ ا] لمقاتلتهم . فخرج المتسلم موسى كيخية ومعه القبقول والدالاتية والتفكجية ، ولما قربوا من سوق السويقة نادوا عليهم وطلبوهم ، وكانوا نازلين فى قهوة الميدان ، ثم لما وصلوا إلى باب المصلى هجموا عليهم من كافة أقطار الميدان ، وقتلوا منهم جماعة وجرحوا كثيرين ، وقرّسوا فرس المتسلم وفرس المفتى ورجعوا خائبين ، وثانى يوم سار إليهم الشيخ إبراهيم الجباوى[1] نفعنا الله به، فتلقوه وقبلوا يديه : وقال لهم : يا أولادى ما مرادكم ؟ قالوا : يخرج لنا محابيس الدروز[2] وجئنا لأجلهم . فقال

---

(١) انظر فيما سبق ص ٩١.

(٢) سبق للمؤلف أن ذكر فى حوادث سنة ١١٦٠ أن متسلم الشام أطلق سراح الأسرى من الدروز أثناء غيبة الباشا فى الحج .

لهم : غدا أردّ لكم الجواب . فأقاموا ذلك النهار بلا قتال . وثانى يوم جاء إليهم الشيخ إبراهيم ، وقال لهم : يا أولادى ، اصبروا حتى يأتى الباشا أو نرسل له حتى نرى جوابه .

قال [البديرى] : وقد جاء صبيحة ذلك اليوم رجل من الأتراك ومعه نفر من الدالاتية ، وقد كانوا فى صيدا ، فأرسل حضرة أسعد باشا يطلبهم ليخدموا عند متسلمه فى الشام . وهؤلاء كانوا أول من ضرب بالسيف ، ونهب وسلب فى حركة الزرب فى الشام ، وكان قائدهم يسمى عبد الله الترك[1] .

ويوم الأربعاء صارت مقتلة عظيمة ، ذهب فيها نحو من خمسين قتيلا ، كانوا من جماعة المتسلم والقبقول ، وواحد من الدروز خرج وقتل فلاحين . وصارت أهل الشام تبيت وتصبح فى أشأم حال . ثم أرسل المتسلم وأتى بخمسين خيّالا من بنى صخر ، وأرسل للقرى والفلاحين . حتى صار عنده عسكر عظيم .

وبتلك الأيام لم تبطل طول الليـــل والنهار ضرب البندق والمدافع ، وفتحوا [كذا] عسكر الباشا دكاكين باب الجابية[2] ونهبوا وأكلوا وشربوا وهدموا المصاطب وعملوا متاريس . وفى يوم الخميس بكّروا للقتال ، وزحفوا إلى جهة السويقة ، ومعهم

---

(١) انظر فيما سبق ص ٨٥ .

(٢) انظر فيما سبق ص ٦٦ حاشية ٣ .

الفعلة والمعامرية[1] وحرقوا الدور والقصور، وبعد الظهر ضيّقوا على الزرب وهم الأشقياء، وحاصروهم وضربوا عليهم المدافع فولوا الأدبار. فتبعوهم وقطعوا أربع رءوس منهم، ومن جملتهم رأس موسى جربجى، وكان محسوباً من الزرب. وهو من جملة من هرب، وما قتل حتى حمل على عسكر المتسلم أربع مرات، والرصاص نازل [٢٧ ب] عليه مثل المطر فأصابته رصاصة، فوقع فقطعوا رأسه وجاءوا به إلى السرايا وأما كور عثمان فإنه كان يقاتل خلف المتاريس، بلا سلاح بل بالأحجار، حتى أصابته رصاصة دخلت من يمين رأسه وخرجت من الشمال. فوقع وحملوه أصحابه ورجعوا مكسورين خائبين. فهجمت العساكر على الميدان، ولم يبق فيها مكان إلا ودخلوه. وأذن لهم المتسلم بالنهب والسلب من السويقة إلى آخر الميدان، فنهبوا وقتلوا، فلم يبق دار ولا دكان إلا نهبوها وهدموها، فسلبوا الأموال وقتلوا الرجال وسبوا الحريم وفضحوا نساءهم، ودام ذلك إلى وقت العصر.

ثم جاءت جماعة من الزرب، ومعهم فرقة من الدروز وجماعة من أهل الميدان (فردّوهم عن بقيّة الميدان، ثم لما علمت هذه الجماعة الذين ردّوهم أنهم لا طاقة لهم بتلك الجموع فرّوا هاربين بالليل، ومعهم جماعة من أهل الميدان)[2]. ولما طلع النهار نادى الحاكم بالأمان. وأن تفتح

(١) لعلها: المعارية.

(٢) ما بين القوسين ساقط من النسخة الظاهرية.

الأسواق ولا أحد ينهب ، وكل من ينهب أو يأخذ شيئاً فروحه وماله يسلب . ثم طلع آغة القبقول على الميدان ، وخرجت الناس لتنظر ما جرى بها .

قال المؤرخ أحمد البديرى : وأنا سرت مع من سار ، فوجدناها قاعاً صفصفاً : والقتلى بها مطروحة والأبواب مكسرة والدكاكين مخربة وجدرانها متهدمة . والحاصل حالها حال تقشعر منه الأبدان وتشيب منه الأطفال . قال تعالى : وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ، ويعفو عن كثير .

وأصبح نهار الجمعة ، وأهل القبيبات وما بقى من دور الميدان وباب المصلى والسويقة ينقلون أمتعتهم وما بقى منها إلى داخل المدينة والقنوات وباب السريجة، ووقع الإرجاف والخوف والهمّ والغمّ فى دمشق الشام ، وقد خافت الأكابر والعوامّ ، حتى أصحاب الدكاكين صاروا ينقلون ما عندهم ويضعونها داخل البيوت . وكانت الدور التى انتهبت فى تلك الواقعة ألفا وتسعمائة دار . وأما الدكاكين فلا تحصى بالعدد ولا بالحساب . وصارت القبقول يأخذون الناس ويأتون بهم إلى الحاكم ويقولون له : هذا كان يقاتل[1] مع الزرب ، وهذا مع الدروز ، وهذا وهذا ، فيقتلهم المتسلم من غير شرع ولا إثبات . وصار كل منهم يقصد من

(١) هذه الكلمة ساقطة من النسخة الظاهرية .

أعدائه أخذ الثارات . وأما بيت القبانى فإنه وقع التنديه من المتسلم أن من أخذ منه شيئاً من العامة يأتى به ، فصارت العوام تأتى بكل ما أخذته من قمح ومتاع [١٢٨ ا] ودراهم ، حتى إنهم جاءوا بأكياس المال مختومة . قال المؤرخ : وهكذا تكون الحظوظ . وقد تشددت الأمور على أهل الشام وصاروا يسهرون بالليل والنهار ، والناس فى هم وغم وغلاء . وفى كل وقت يقولون جاءت الدروز ، فتهرب الناس وتخلى الدكاكين ، وفى كل وقت يصير فزعة وتسكير دكاكين ، حتى انتقلت غالب الدور التى كانت خارج المدينة إلى داخلها وإلى القلعة .

وفى يوم الخميس دخل سعد الدين باشا (أخو أسعد باشا)[١] العظم ، ومعه عسكر كالبحر الزخار ، وبلغه جميع ما صار ، فغضب على المتسلم ، وأضمر له التكدير .

وفى هذه الوقعة توفى الولى المجذوب الشيخ إبراهيم الملقب بالكيكى وكان رجلا مباركا ، وأبوه رجل من الصلحاء من محلة القبيبات . وكان فى غالب أوقاته يدق على يديه ويميل إلى ورائه وإلى قدامه ، وينادى بأعلا صوته : ولك[٢] كيكى ياغراص ، وتارة يبكى ويقول ، بدّى امرأة (حتى . . .)[٣] ويقول له الناس : أى شىء لك فى المرأة ،

---

(١) ما بين القوسين ساقط من النسخة الظاهرية .

(٢) (ولك) أو (لُك) كلمة عامية شامية ، يقصد بها الدعاء أو النداء .

(٣) كلمة قبيحة رفعناها ، والكلمتان ساقطتان من النسخة التيمورية .

فقال المرأة خبزة، وله وقائع وكرامات . ومن كراماته التى نقلوها عنه واشتهرت أنه رأى يوما من الأيام رجلا يبيع علب لبن ، فصاح على صاحب اللبن وقال بدّى علبة ، وصار يبكى ويدقّ بيديه ، فاجتمعت الناس وأخرجوا له علبة . فقال الشيخ وهو يبكى لا أريد إلا هذه ، وأشار إلى واحدة من علب اللبن ، فأخرجوها له، فأخذها بيده وأفرغها على الأرض ، وإذا قد نزل منها حية ، فتركها وذهب . وله كرامات غيرها كثيرة . وسبب موته أنه أصابه قوّاس فى رجله ، فصار يبكى وينادى يا أبى يا غواص ، قرصتنى زلقطة[1] ، ومات بعد أيام ، رحمه الله تعالى .

وفى يوم الثلاثاء سادس ذى الحجة أرسل موسى كيخية متسلم دمشق الشام بيرقين دالاتية ومعهم بعض من جماعتهم ، فجاءوا له باسماعيل آغا بن الشاويش بالجنزير ، وكان مقيماً فى بعض القرى صوباصيا[2] . ورفعه إلى القلعة . وكذلك جاءوا له بأخيه سليمان آغا ابن الحلى وبأحمد آغا ابن عساكر فأوقفوهم ، وذكر المتسلم أنهم كانوا مساعدين للدروز والزرب .

وفى يوم السبت كانت وقفة عيد الأضحى فى دمشق الشام ،

---

(١) نحلة برية لسمها شديد .

(٢) وجاءت فى النسخة التيمورية : شوباصيا . وكلتا هما تحريف « صوباشى » وهو رئيس لعدد من الجند فى القرى والأقاليم المحافظة على الأمن .

ذلك العام . وقد كانت سنة كثيرة الأهوال والآلام ، فقد صار فيها جدري كثير [٢٨ ب] حتى أفنى وأمات أولادا كثيرة فسبحان الباقي بعد فناء خلقه .

سنة ١١٦٢

ثم دخلت سنة اثنين وستين ومائة بعد الألف ، وكانت غرّة محرمها[1] يوم السبت . والمرجو من الله تبارك وتعالى أن تكون سنة مباركة علينا وعلى جميع إخواننا المسلمين . والآن الناس في شدّة وحصر زائد من كثرة الغلاء والشدائد . ولكن استبشرت الناس بالخير بكثرة الأمطار التي هطلت بأول هذا العام . وقد عمل لهذه السنة تاريخاً حسناً وفألاً مستحسناً أديب الشام الشيخ عبد الرحمن[2] ، وأدرجه ضمن هذين البيتين . فقال :

عام جديد نرتجي من ربنا فيه مزيد الخير والنعماء
فعساه يغنينا بواسع فضله إذ عمنا أرّخت عام فناء

وفي يوم الاثنين ثاني محرم هذه السنة توفي شيخنا محدث الديار الشامية ، بل خاتمة المحدثين ، من افتخرت به دمشق على سائر الدنيا

---

(١) يوافق ٢٢ ديسمبر (كانون أول) ١٧٤٨ .

(٢) هو أديب الشام وشاعرها في ذلك العصر عبد الرحمن البهلول انظر ترجمته ص ٩ حاشية رقم (١) .

الشيخ إسماعيل العجلونى[١] المدرس تحت قبة النسر بجامع بنى أمية . ولم يبق أحد من أهل الشام من كبير أو صغير إلا حضر جنازته . ودُفن بتربة الشيخ أرسلان، رضى الله عنه. وعوّض الإسلام خيراً .

وفى تلك الأيام توفى إبراهيم آغا آغة القبقول المنفصل عن منصبه أشهراً ، وكان ديّناً متواضعاً . ملازماً لصلاة الجماعة فى الجامع الأموى. رحمه الله تعالى .

وفى السابع والعشرين من المحرم أقبل جوقدار[٢] الحج ، وبعد ثلاثة أيام جاء كتّاب الحج[٣] . وفى ليلة الخميس دخل الحج الشريف خامس يوم من صفر الخير .

وفى ليلة الجمعة توفى الشاب اللطيف ذو القدر المنيف والأصل الشريف سلالة السادة السعدية[٤] والبضعة الصدّيقية الشيخ بكرى ابن الشيخ مصطفى بن سعد الدين ، لأن أباه من بيت سعد الدين، وأمه من بيت البكرى ، رحمه الله وعوّضه الجنة آمين .

---

(١) فى النسخة التيمورية : العجلانى . وهو أحد أعلام العلماء الدمشقيين وخاصة فى الفقه والحديث ، ظل يشغل وظيفة التدريس بالجامع الأموى إحدى وأربعين سنة ، وكان يقرض الشعر وأكثره فى مدح القضاة والمفتين ، وقد ترجم له المرادى وذكر طائفة من كتبه [سلك الدرر ج ١ ص ٢٥٩ — ٢٧٢] .

(٢) انظر ص ٦ حاشية رقم (١) .

(٣) انظر ص ٧ حاشية رقم (١) .

(٤) انظر ص ٩١ حاشية رقم (١) .

وفى أوائل شهر صفر وقع بيت فى حارة العقيبة على جماعة قتل منهم سبعة ، ونجا رجل وزوجته ، واسمه سعيد بن الشاكوش . وفى عاشر ربيع الأول صار برد شديد مؤلم ، وصار يباع الفحم على الفروش[1] ، يحملونه على رءوسهم ، كل رطل بخمسة مصارى ، ويدوروا به فى الأسواق والحارات ، وكان ذلك قبل دخول الحسوم بأيام . واستمر إلى أن دخلت الحسوم .

وفى سابع عشر ربيع الأول قدم جوقدارية[2] من إصطنبول . ودخلوا على [٢٩ ا] أمير الحاج ووالى الشام الحاج أسعد باشا العظم ، وأظهر أنه جاءته بشارة من الجناب العالى ، فأمر بعمل أعمال نارية التى تسمى شنك . فتراكضت القبقول والعسكر لنحو السرايا ، فظنت أهل دمشق أن حادثة وقعت ، فسكَّرت البلد ، فأخبروا الباشا بذلك ، فقال : اضربوا مدافعاً واعملوا شنكاً آخر ، ففعلوا . فهدأت الناس ، وفتحت دكاكينهم . وفى تلك الأيام سكر بعض الأتراك من القبقول وجرح ثلاثة أشخاص من أهل البلد ، وبعد أيام ماتوا من أثر جراحاتهم ، ولم تقام لهم دعوة .

وقد كثر الغلاء وزاد البلاء ، فالخبز رطله بست مصارى

---

(١) جمع فرش ، ويطلق فى الشام على الوعاء الخشبى الذى تباع فوقه بعض الأشياء ، وهو قريب مما يسمى فى مصر بالطبلية .

(٢) فى النسخة الظاهرية : جوقدار .

وهو الدون، والوسط بثمانية مصارى ،والمليح باثنا عشر (كذا) مصرية. وأوقية السمن بسبع مصارى ، وأوقية الزيت بمصريتين ، واللحم رطله بست وثلاثين مصرية . وبنات الهوى دائرات بالليل والنهار ، والناس فى كرب عظيم .

وفى شهر ربيع الأول وصـــل خبر لدمشق بأنه صار فى طرابلس الشام غرقة أعظم من التى صارت بدمشق المتقدم ذكرها . وذلك بأن نهر طرابلس زاد كثيراً وطاف على أهلها حتى أغرق أكثر من خمسمائة إنسان، ما عدا الدوابّ والأنعام والأموال ، نعوذ بالله من غضب الجبّار . وفى تلك الأيام أغارت أعوان الظاهر عمر شيخ طبرية على جمال سائرة من الشام ، ونهبوا أهلها وأخذوا مالها . وسبب ذلك أن فى بلاده وأرضه عرب وتركمان ، وكان قد أمر أسعد باشا أن يغيروا عليهم،فغاروا عليهم ونهبوهم ، وأخذوا مالهم وأغنامهم،وقتلوا منهم جماعة، فأتوا بأغنامهم،ففرقها الباشا على القرى ولحّامة الشام.والذى كان يساوى قرش طرحه غصباً بخمسة قروش وهكذا. وفى هذا الشهر صار رطل الخبز من ثمانية مصارى إلى اثنى عشر مصرية ، والمعروك[1] بسبعة عشر مصرية ، ورطل الثوم بأربعة وعشرين مصرية ، وغرارة القمح باثنين وخمسين قرشاً ، وغرارة الذرة بثمانية وأربعين ، والبيض كل اثنتين بمصرية ، ورطل الأرز بخمسة عشر

---

(١) المعروك كعك يعجن فى السمن ويمنون فى الشام صنعه . وبخاصة فى شهر رمضان .

مصرية ، ورطل الفحم بستة مصارى . وكل شئ زاد عن حدّه ، والحكم لله فى عبده .

وفى شهر ربيع الثانى قتل أسعد باشا ثلاثة أنفار من المتاولة ، وقتل البطحيش [٢٩ ب] من جماعة الزرب الأشقياء الفارّين أيام الوقعة .

وفى يوم الاثنين رابع جمادى الثانية من هذه السنة دخل قاضى الشام السيد محمد أفندى بشمقجى زاده . قال المؤرخ (البديرى) : وبلغنى أن حامد أفندى بن العمادى مفتى دمشق الشام كان قد خزّن القمح مثل الأكابر والأعيان الذين لا يخافون الرحيم الرحمن ، وأن الكيّالة جاءوا إليه وقالوا : نبيع الحنطة كل غرارة بخمسين قرشاً ، فقال لهم : مهلا فلعل الثمن يزيد . فإذا كان مفتى المسلمين ما عنده شفقة على خلق الله فلا تعتب على غيره .

وفى هذه الأيام عملوا ديوان (كذا) ، وأخبروا أسعد باشا بكثرة المنكرات واجتماع النساء بنات الهوى فى الأزقة والأسواق ، وأنهم ينامون على الدكاكين وفى الأفران والقهاوى . وقال(١) : دعنا نعمل لهم طريقا إما بترحيلهم أو بوضعهم بمكان لا يتجاوزونه ، أو نتبصر فى أمرهم . فقال : إنى لا أفعل شيئا من هذه الأحوال ، ولا أدعهم

(١) صحتها : وقالوا .

يدعون عليّ فى الليل والنهار ، ثم انفضّ المجلس ، ولم يحصل (من) اجتماعهم فائدة .

وفى تلك الأيام زاد الغلاء فى بلاد الشام ، فبلغنا أن رطل الخبز فى طرابلس بعشرة مصارى ، وفى غزة والرملة بخمسة وعشرين مصرية ، وفى الشام ليس واقف على سعر ، وقد زاد الغلاء[١] والبلاء والقهر .

قال المؤرخ [البديرى] : وفى هذه الأيام اشترى أسعد باشا والى دمشق الشام أملاكا كثيرة من دور وبساتين وطواحين وغير ذلك ، وهذا قبل بنائه لداره وقيساريته . وفى ثامن جمادى الثانية من هذه السنة نزل الشعير الجديد ، فباعوا خبز شعير رطله بأربع مصارى (والأبيض بستة)[٢] . ثم ثانى يوم خرج المنادى بأن يباع الخبز الحنطة بأربع مصارى والأبيض بستة مصارى . ولم تحصل للفقراء نتيجة ، فكل يوم بسعر جديد ، والله يفعل مايريد .

وفى يوم الخميس ثانى عشر جمادى الأولى توفى العالم الفاضل الشيخ عبد الوهاب الدالاتى رحمه الله .

---

(١) هذه الكلمة ساقطة من النسخة الظاهرية .

(٢) هذه العبارة ساقطة من النسخة الظاهرية .

وفى يوم الأربعاء حادى عشر جمادى الثانية نزل القمح الجديد ، وبيعت غرارة القمح بخمسة وأربعين قرشا ، وكانت قبل نزوله باثنين وخمسين ، فصاحت العامّة واستغاثت ، ونهبوا بعض الأفران ، ثم صاروا ينادوا فى الأسواق رطل الخبز بثلاثة مصارى وبأربعة مصارى ، فباعت أهل [١٣٠] دمشق جميعاً بذلك الثمن ، وفرحت أهل البلد كثيراً ، فزيّنت البلد . وكان حضرة الوالى أسعد باشا فى جنينة أبيه فى مسجد الأقصاب قد عمل سيرانا[1] ومعه أكابر الشام ، فلما بلغه هذا الخبر غضب غضباً شديداً ، وأمر الحاج محمود تفكجى باشى أن يأخذ أعوانه الفسّاق ويدور فى البلد والأسواق ، وأن ينبه على الخبازين أن لا يبيعوا رطل الخبز إلا بستة مصارى والأسود بأربعة ، وكل من خالف يأكل علقة ، والحذر ثم الحذر . فرجعوا للمنهج الأول ، واسودّ الخبز وتغيّر ، والله أكبر وأغير . وفى سادس عشر من جمادى الأولى صارت غرارة القمح بستة وعشرين غرشاً ، فبيع رطل الخبز بثلاثة مصارى ، وبدت نزول الشدّة بإذن الله تعالى .

وفى تلك الأيام وصل خبر إلى دمشق بأن عبد الله آغا بن حمزة وكمال خليل ، وهما من رؤوس الزرباوات المنهزمين من دمشق قبض عليهم الظاهر عمر حاكم قلعة طبرية ، وقطع رؤسهم وأرسلهم

(١) السيران — فى تعبير أهل الشام — النزهة فى الخلاء .

إلى صيدا ، وحاكم صيدا أرسلهم إلى الدولة ، وأرسل يطلب فرمان شريف [كذا] بأن أسعد باشا حاكم الشام لا يمرّ فى سفره بالدورة على أرض طبرية .

وفى يوم الاثنين غرة رجب الفرد من هذه السنة نادى أسعد باشا حاكم الشام وأن[١] كل من شرب بها شنق وصلب ، ثم أمر برفعها ، فرفعت من سائر قهاوى الشام وأسواقها . قال المؤرخ [البديرى] : وقد صار شربها فى الشام من أعظم المصائب ، فصار يشربها الرجال والنساء حتى البنات ، جزاه الله خيرا .

وفى ثالث رجب نادت الخبّازة والسوقية بأن رطل الخبز بأربع مصارى والخاص بخمسة مصارى ، والذى خلط ذرة أو شعيرا بمصريتين ؛ فمن كثرة فرح أهل الشام سيما الفقراء صاروا يبكون وينتحبون سرورا ، حيث فرّج الله عنهم . وقد زُينت غالب أسواق الشام . وفى ذلك اليوم بيعت غرارة القمح الجيد والشعير بثمانية قروش ، وفرج الله عن عباده بمنّه وكرمه .

وفى يوم الجمعة ثانى شعبان المبارك دخل خليل آغا وأحمد آغا أولاد ابن الدرزى ، وواجهوا متسلم دمشق ، فتلقاهم أحسن ملتقى

(١) يبدو أن المخطوط فى نسختيه تنقصه هنا عبارة نرجح أنها تتضمن منع الوالى شرب القهوة أو الدخان .

وكان معهم بيردى[1] من أسعد باشا ، حيث واجهوه بواسطة الشيخ إبراهيم السعدى الجباوى ، نفعنا الله به وبأجداده ، وكانوا هاربين عند العرب ، فأعطاهم الأمان ، لما طالع أن ليس لهم ذنب [٣٠ ب] بتلك الأعمال .

وكانت هلة رمضان هذه السنة ، وقبل رمضان بيومين خرج قاضى الشام السيد محمد أفندى بشمقجى زاده ، خرج إلى الصالحية مع حريمه ، ثم رجع فى وقت العصر من الصالحية وحريمه معه ، وهو شاهر السلاح بيده طبنجة ، وفى رجله الواحد بابوجة والثانية حافية بلا بابوج ، وقد جرح من جماعته شخصا . ولم يزل على هذه الحالة حتى وصل إلى المحكمة ، ثم تبين أنه كان سكرانا . . قال المؤرخ : قد فحصت عن سبب نزول القاضى بهذه الكيفية ، فتبين الأمر بخلاف ما ذكرنا من كونه كان سكرانا ، وإنما هو من حدّة مزاج وقع منه . والسبب فى ذلك أنه كانت له سرية ، وكان مغرما بها ، حتى طلق زوجته لأجلها ، فأرادت زوجته أن تنكد عيشته ، فيوماً من الأيام جاء بعض ضيوف لجاريته التى يحبها ، فأرادت أن تضع أمام الضيوف طعام ودجاج [كذا] وغيره من الذى هيأه القاضى للغذاء فى الصالحية ، فمنعتها زوجة القاضى ، وكانت غير سخية ، فلما جاء القاضى عرفته جاريته بذلك ، وأنها لم تضع أمام ضيوفى طعاما ولا غيره ، ثم صارت

---

(١) وصحتها (يوورولدى) بمعنى الأمر السامى .

تبكي ، وكان القاضي يحبها فوق العادة ، فقام على زوجته فطلقها ، لما قيل إن ذلك كان سبب طلاقها ، وقام على خدامه فجرد عليهم السلاح ، وأمر الحريم بالنزول ، وطلب هو المركوب ، فأبطئوا ، ثم وجد فردة فنزل بها إلى الجسر ، ثم ركب ونزل للمحكمة على تلك الحالة ، فأظهرت أعداؤه أنه سكر والأمر بخلافه . ثم ما كفى زوجته التي طلقها هذا الفعل ، حتى اشتكت عليه إلى الدولة العلية ، فجاء الأمر بفرمان عزله وبنفيه الى جزيرة قبرص وبضبط ماله جميعه لزوجته ، فباعوا جميع متروكاته ، وأخذوا جميع ما عنده من المال ، فبلغ ثمانية أكياس ، فأعطوهم إلى زوجته المطلقة . وكان ذلك بأمر من الدولة ، ثم تأسفت عليه غالب الناس ، غير الذين لهم أغراض : لما كان عليه القاضي المذكور من الاستقامة والقناعة والتواضع والسخاء الكثير ، حتى إنه في شهر رمضان كان يأكل قنطار من السمن ومن الأرز مثل ذلك ، ومن اللحم كذلك ، حتى إنه على الأقل يوجد عنده في رمضان نحو ثلاثين ما عدا الفقراء . ولما كان لا يأكل الرشوة ولا يميل في دعوى مالت أهل الشام عليه مع زوجته ، حتى سعوا بعزله كما هي عادتهم قديما .

وفي يوم الأحد منتصف شوال جاءت [١٣١] خزنة مصر إلى الشام . ويوم الاثنين سادس عشر شوال خرج المحمل الشريف بأميره الحاج أسعد باشا بن إسماعيل باشا العظم ، وقد كانت هذه هي الحجة

السابقة لحضرة أسعد باشا المذكور . وقد كان أبوه إسماعيل باشا[1] حج ستة . وهذه الحجة بهذه السنة هي السابعة لأسعد باشا . وثاني يوم خروج المحمل شنق المتسلم اثنان [كذا] من الأشقياء اللصوص ، لهم وقوعات كثيرة ، ثبت أخيرا أنهما نزلا داراً ليلا ، فسرقا جميع ما فيها من غالي الثمن ، واسم أحدهما شيخ التكية .

وبعد خروج الحاج الشامي بأربعة أيام خرج السيد يونس شريك أسعد باشا بقافلة عظيمة ومعه جماعة كثيرة ، ولحقوا الباشا والحاج إلى المزيريب .

وفي هذه السنة جدَّد أسعد باشا في مدرسة أبيه إسماعيل باشا التي في سوق الخياطين الحجرات الفوقانية ، وجعل في قبليها جامعاً وخطبة ، ورتَّب أجزاء [من القرآن] وشوربة وزيتاً وغير ذلك . جزاه الله خيرا .

وفي تاسع ذي القعدة سافر القاضي المتقدم ذكره لصيدا ، يريد قبرص بنية النفي لها ، وخرجت بعض الأكابر لتوديعه . وفي خامس عشر ذي القعدة جرَّسوا ثلاثة أشخاص ودوَّروهم في كل البلد مسخمين الوجوه راكبين على حمير بالمقلوب . فسألنا عن السبب ، فقيل إنهم

---

(١) إسماعيل باشا العظم هو أول ولاة دمشق من آل العظم ، تولى عليها سنة ١١٣٧ وبقي بها ست سنوات .

يُسكّون الفلوس الرملية[١] ، وهى غش . فكان أحدهم كردى والثانى داغستانى .

وفى ذلك اليوم أمر الحاكم بأن يخرجوا بنات الهوى ، وهم الشلكات ، من البلد إلى خارج البلد ، وأظهر نه يريد أن ينفيهن إلى بلاد أخرى ، ونبّه على مشايخ الحارات أن من وجد فى حارته ذو شبهة لا يلومن إلا نفسه ، ثم نادى منادى إن النساء لا يسبلن على وجوهن مناديل ، إلا حرم الباشا ونساء موسى كيخية . ثم شرع أعوان الحاكم بالتفتيش وشددوا ، فانفرجت بعض الكربة ، ثم ما بقى هذا التشديد غير جملة أيام ، إلا وقد رأينا البنات المذكورات يمشين كعادتهن فى الأزقة والأسواق وأزيد ، ورجعن إلى البلد ، ورتب الحاكم عليهن (فى كل شهر على كل واحدة عشرة غروش وجعل عليهم) شوباصيا[٢] ، بل قطع من النـــاس وسابه والله المستعان .

وفى يوم الثلاثاء دخل سعد الدين باشا أخو أسعد باشا بن العظم إلى الشام بموكب عظيم ، (لأنه سر دار الجردة وأميرها [٣١ ب] وقد سار بها فى السنة الماضية)[٣] .

---

(١) هى الفلوس المزيفة التى سُكت بطريقة الصب فى قوالب رملية ، وذلك لأن الفلوس الصحيحة كانت تضرب ضرباً ضمن قالبين من فولاذ فى معامل السكة التابعة للدولة

(٢) العبارة بين القوسين ساقطة من النسخة الظاهرية . انظر عن الصوباشى ص ١٢٢ حاشية رقم ٢ .

(٣) العبارة بين القوسين ساقطة من النسخة التيمورية .

سنة ١١٦٣

ثم دخلت سنة ثلاث وستين ومائة وألف ، وكان غرّة محرمها[١] يوم الخميس . والبرد كثير والغلاء باق لم يزل . وظل الخبز بخمسة مصارى ، ورطل الأرز باثنى عشر مصرية ، ورطل اللحم بأربعة وعشرين مصرية ، ورطل الفحم بثلاثة مصارى ، ورطل الدبس بثمان مصارى ، وأوقية السمن بخمسة مصارى . والجليد الذى صار فى هذه السنة ما سمعنا بمثله . نسأله تعالى اللطف .

وفى منتصف محرم من هذه السنة توفى العالم العامل الشيخ محمد الديرى[٢] وكان يدرس بالجامع الاموى رحمه الله تعالى . وبعده بيومين توفى الشيخ العالم الزاهد منلا[٣] عباس الكردى خليفة شيخه منلا إلياس الكردى[٤] ، وفى مكانه بجامع العداس رحمه الله ودفن بسفح جبل قاسيون . وفى ثامن وعشرين من المحرم توفى الشيخ عيسى إمام صلاة الأولى بجامع بنى أمية فى محراب السادة الشافعية .

(١) يوافق ١١ ديسمبر (كانون أول) سنة ١٧٤٩ .

(٢) ترجم له المرادى بإيجاز فى سلك الدرر ... ج ٤ ص ٣٠ .

(٣) كان يطلق على العالم من الأكراد لقب (منلا) .

(٤) اللا (أو المنلا) إلياس من كبار متصوفة الأكراد ، كان له صيت ذائع وآمن الناس بكراماته وهابه الحكام على تعففه منه، مات سنة ١١٣٨ بعد أن تجاوز المائة عام ، ورثاه الشيخ عبد الغنى النابلسى وكثير من أدباء عصره :
انظر : المرادى ج ١ ص ٢٧١ — ٢٧٣ ، للقار س ٦٢ .

كان رحمه الله رجلاً صالحاً حسن القراءة حسن الصوت ، يلبس دائماً ثيابا بيضا ، وعمامته من صوف أبيض. وكانت جنازته حافلة لم يتخلف عنها إلا القليل ، ودفن بتربة البرامكة قبلى المرجة ، رحمه الله .

وفى ذلك اليوم كسفت الشمس ، وبقيت مكسوفة نحو ثلاث ساعات ، وصلى الناس صلاة الكسوف بجامع الأموى .

وكان دخول الحاج الشريف تلك السنة نهار الأربعاء خامس صفر . وثانى يوم الخميس دخل أمير الحاج أسعد باشا بموكب المحمل الشريف . وهذه السنة السابعة من حجاته المتواليات . وقد ذكرت الحجاج أن هذه السنة من أيمن السنين وأحسنها وأرخصها ذهابا وإيابا . ودخـــل حضرة سعد الدين باشا مع أخيه أسعد باشا وهما فى غاية الصحة .

وفى خمسة وعشرين محرم شنق متسلم الشام موسى كيخية خمسة أنفار من الدروز الأشقياء . وفى تلك الأيام مات قاضى مكة ودفن بباب الصغير. ويوم الأحد ثالث وعشرين صفر توفى الوالى الزاهد الشيخ محمد بن عبد الهادى العمرى ، وصلوا عليه فى الأموى ، ودفن فى مرج الدحداح . وكانت جنازته غاصّة بالرجال والنساء ، رحمه الله. وفى الخامس والعشرين من صفر شنق الباشا ثلاثة رجال ، جاءوا بهم

أهل دوما[1] إلى الوالى أسعد باشا ، وأخبروه أنهم وجدوا معهم خرج [كذا] فيه متاع لقفطجى[2] السلطان ، فأمر بصلبهم . وفى يوم السبت سلخ [١٣٢ ا] صفر سافر سعد الدين باشا لمحل مأموريته التى هى طرابلس . وفى تلك الايام توفى الشيخ مصطفى الكردى الذى كان قاطناً بمدرسة سليمان باشا ابن العظم ، وكان فقيهاً فاضلاً ديّناً ، ودفن فى سفح قاسيون رحمه الله . وبهذه الأيام أيضا توفى نجيب أفندى السفرجلانى ، وكان من صدور أكابر دمشق ، وصار له مشهد عظيم ودفن بمقبرة باب الصغير . وتوفى أيضا بتلك الأيام فى أوائل ربيع الأول من هذه السنة توفى الشيخ الصالح العالم الشيخ مصطفى بن الشيخ شعيب من محلة باب السريجة ، وصار له مشهد عظيم بالاعلام ، وخرجت بجنازته جميع مشايخ الطرق ، ودفن بباب الصغير ، رحمه الله .

وفى تلك الأيام توفى أيضا الولى الزاهد ، من غلبت عليه الجذبة الإلهية ، السيد الشيخ مصطفى بن الشيخ مراد ، وكانت الدولة والقبول فى الشام وإسلامبول إلى ابن أخيه السيد على أفندى . وخرجت جميع الأعيان بجنازته ودفن بباب الصغير رحمه الله . وفى ليلة الاثنين توفى الولى الكامل ذو الكرامات الظاهرة والأحوال الباهرة ، من قد

---

(١) قرية فى ضواحى دمشق .

(٢) قد تكون تحريفا لكلمة قفطنجى أى حامل قفطان السلطان أو خلعته .

خلع العذار وتساوى عنده الليل والنهار ، وشرب من خمر شراب الجبار ،وأعطى درجة القبول عند الكبار والصغار الشيخ محمد جبرى ، وقد كان أحيانا يغيب وأحيانا يحضر ، وأحيانا يسكر ، وقد كان له جماعة وتلامذة ، وكان فى درجة الشيخ أحمد النحلاوى ، وقد كان يتردد عليه أيام حياته ، ولما توفى النحلاوى لازمه جماعة من فقراء الشيخ صاروا يدوروا معه ويباتوا معه أين ما بات . وكانت وفاته بباب السريجة ، وصار له مشهد عظيم .

وفى منتصف سعـــد الذابح[١] جاء الثلج يومان وليلتان بلا انقطاع ولم يعقبه مطر ، وبقى على الأساطيح وفى الأزقة أكثر من عشرين يوماً ؛ حتى صار رطل الفحم بنصف قرش وبثلث ؛ ورطل الخبز من أربعة مصارى إلى ثمانية ، وأوقية السمن بخمسة مصارى ؛ ورطل اللحم بثلاثين مصرية . والحاصل كل شئ غال ، والخلق فى تعب بال .

وفى تلك الأيام قتل قبقولى رجلا شريفاً بعد العشاء ، فاشتكت والدة القتيل للوزير أسعد باشا ولازمته ، فأمر بإحضاره فقبضوا عليه بعد ما هرب ، فأمر الوزير بخنقه ؛ فخنق بالقلعة .

---

(١) يقسمون — فى سورية — خمسينية الشتاء ، وهى الخمسون يوما التى تتلو مربعانية الشتاء إلى أربعة سعود ، كل منها مدته اثنا عشر يوما ونصف يوم ، وهى : سعد الذابح ، وسعد بلع ، وسعد السعود ، وسعد الخبايا .

وفى [٣٢ ب] تلك الأيام توفى الشاعر الأديب والفاضل اللبيب من لم ينسج فى زمنه شاعر على منواله الشيخ عبد الرحمن البهلول[١] رحمه الله تعالى ، ودفن بباب الصغير قبـــالة بيوت النحّانة[٢] من جهة الشاغور . وهذا البهلول صاحب القبول هو صاحب القصيدة التى مدح بها الأستاذ الشيخ عبد الغنى النابلسى المحتوية على أكثر من مائة تاريخ فى كل شطر منها تاريخ[٣]. ولما قدم القصيدة لأستاذه الممـــدوح ورأى حضرة الشيخ أنها فريدة فى بابها بهذا النسق المدهش العجيب قال له : لقد استخرنا الله تعالى ياشيخ عبد الرحمن وعملناك شيخ الأدب فى الشام .

ونهار الاثنين خامس عشر ربيع الأول وقع سقف السوق الضيق خلف الجامع الأموى الذى فيه القهوة . وكان وقوعه بعد صلاة الحنفى [٤] . وكان تحته جماعة مـات منهم أربعة أشخـاص وهشّم جماعة .

---

(١) انظر موجز ترجمته فى ص٩ الحاشية رقم [١] من هذا الكتاب نقلا عن ترجمته المطولة فى سلك الدرر للمرادى ج ٢ ص ٣١٠ — ٣١٧ .

(٢) لا يزال حى النحانة موجودا فى الشاغور .

(٣) تجد هذه القصيدة فى تاريخ الأمراء الشهابيين للأمير حيدر أحمد الشهابى ج ١ ص ٢٢ — ٢٨ وتتألف من مائة بيت وثمانية أبيات .

(٤) فى المسجد الأموى أربعة أئمة للصلاة يتوالون فى أداء كل فريضة ، والقصد هنا صلاة الإمام الحنفى .

قال المؤرخ أحمد البديرى : وفى يوم الخميس ثامن عشر ربيع الأول خرجنا إلى سيران بناحية الشرف المطل على المرجة مع بعض أحبابنا . وكان الوقت فى مبادئ خروج الزهر ، وجاسنا مطلين على المرجة والتكية السليمية ، وإذا بالنساء أكثر من الرجال جالسين على شفير النهر ، وهم على أكل وشرب ،وشرب قهوة وتتن[1] . كما تفعل الرجال ، وهذا شئ ما سمعنا بأنه وقع نظيره حتى شاهدناه ولا حول ولا قوة إلا بالله . قال المؤرخ : ثم لم نزل فى سرور وانبساط ، حتى أنشدت هذا الموالیا فقلت :

مضى لنا يوم مثله ماسبق ياخال

فى مرجة الشام ما تشوفون موضع خال

ملا خميس[2] . مضى ما صادفه أرزال

فى ثامن عشر ربيع الآخر راح البرد

يا هل الأدب أرخوه الضيق عنكم زال

---

(١) الطباق .

(٢) (مِلاّ) كلمة شامية عامية مركبة من [من إلاّ] إذا أراد أحدهم أن يبدى عجبه أو ازدراءه أحيانا من شىء لم يجد له مثيلا يقول : مِلا فكرة ، أو ملاّ سيران . والبديرى هنا يقصد أنه لم يجد خميسا كذلك الخميس الذى خرج فيه للنزهة ولم يصادف فيه أرذالا .

وفى ذلك اليوم وقع رجل معمارى من سطح سوق الخياطين ومات لوقته . وثانى يوم الجمعة تاسع عشر ربيع الآخر مرّ الشيخ محمد بن جقيجقه فى العمارة وحامل بيده قرنبيط إذ سقط على الأرض بلا روح ، وحمل لداره ميتاً ، رحمه الله .

وفى تلك الأيام أخذ أسعد باشا دار معاوية رضى الله عنه[١] ، وأخذ ما حولها من الخانات والدور والدكاكين وهدمهم (كذا) وشرع [١٣٣ ا] فى عمارة داره السرايا المشهورة[٢] التى هى قبلى الجامع الأموى ، وجدّ واجتهد فى عمارتها ليلا ونهارا ، وقطع لها من جملة الخشب ألف خشبة ، وذلك ما عدا الذى أرسلوه له أكابر البلد والأعيان من الأخشاب وغيرها ، ورسم على حمامات البلد أن لا يباع قصرمل لأحد ، بل يرسل لعمارة السرايا ، واشتغلت بها غالب معلمى البلد ونجاريها ، وكذلك الدهانين ، بل قل أن يوجد معلم متقن أو نجار أو دهان كذلك إلا والجميع مشتغلون بها ، وجلب لها البلاط من غالب بيوت المدينة ، أينما وجد بلاط أو رخام وغير ذلك ، مثل عواميد وفساقى يرسل فيقلعهم ويرسل القليل من ثمنهم .

---

(١) رحمه الله فى النسخة التيمورية .

(٢) انظر فى وصف تلك الدار التى افتن أسعد باشا فى تشييدها بحثا للدكتور صلاح المنجد فى مجلة الأديب عدد أيلول ١٩٤٦ ، Palais Azem : Ecochard de Damas . وقد نقل المرحوم الأستاذ محمد كرد على عن البديرى (وقد دعاه ابن بدير) وصفه للقصر . [انظر خطط الشام . الجزء الخامس ص ٣٠٤ — ٣٠٥] . ولا يزال هذا القصر من أبدع الآثار الإسلامية بدمشق .

وكان فى قرب تربة البرامكة قصر يقال له الزهرابية، قيل هو من عمارة الملك الظاهر وهو على ظهر بانياس[١] مطل على المرجة ، وكان مكان متنزه عظيم تهدم غالبه . وفى قربه مدفن وعليه قبة من حجر ورأس القبة مقلوع ، وفيه وهدة قيل إنه كان فى رأسها[٢] خبية قديماً فأخذت . قال المؤرخ : ومما بلغنى عن سبب أخذها أنه كان مكتوباً على باب جدار القبة هذا المواليا :

دارى زمانك وصحبك ثم داريها
وتجنب الناس عاليها وواطيها
وان سألوك عن عيوب الناس غطيها
العقل فى الراس قاضيها ووالها

وكان كل من يقرؤه يتخيل شيئاً ، إلى أن جاء صاحب النصيب ليلا وصعد إلى أعلا القبة وحفرها وأخذ ما فيها ، ولم تزل بلا رأس إلى زماننا هذا ، إلى أن أخبروا حضرة الوزير أسعد باشا العظم صاحب العمارة عن هذه القبة وعن المدفن الذى بجانبها ، وأن الأراذل والأشقياء يجتمعون عندها هناك ليلاً ونهاراً على فسق وفساد وغير ذلك ، فأمر بهدمها حالا ونقل حجارتها إلى داره .

---

(١) أحد أنهار دمشق السبعة .
(٢) وعاء عميق من فخار .

وفى تلك الأيام بلغ حضرة الوزير أسعد باشا أن فى دار ابن كيوان[١] طاحونة قديمة، يقال لها طاحون الرهبان، قد تهدمت ولم يبق منها سوى [نهر بانياس][٢] رسوم أسفلها، وأنها مركبة على بانياس، فحالاً أمر حضرة الباشا بقطع نهر بانياس [٣٣ ب] وأن يخرجوا جميع ما فيها من أعمدة وأحجار وينقلوهم إلى الدار. فاشتغلت الفعّالة والحجّارة والبساتنة، واستقاموا يقلعون الأحجار وينقلونها إلى دار الباشا اثنا عشر يوما، والنهر مقطوع عن أصحابه.

وفى يوم الخميس سادس وعشرين ربيع الثانى من هذه السنة عمل حسن أفندى السفرجلانى وليمة لحضرة أسعد باشا والى الشام بالصالحية فى قاعة ابن قرنق. وكانت ضيافة عظيمة، قيل تكلف عليه نحو إحدى عشر مائة غرش. فنظر حضرة الباشا إلى سروات شاهقات فى داره، فطلب من صاحبهم على أغا بن قرنق قطعهم لأجل عمارة داره، وعرض أسعد باشا صاحب العمارة عليه شيئاً من المال، فأبى أن يأخذ من ثمنهم شيئا، وقطع له ثلاث سروات ليس لهم نظير فى الشام ولا فى غيرها. ونقل من قرية بصرى أحجاراً وأعمدة من الرخام شيئاً كثيرا، وأخذ من مدرسة الملك الناصر

---

(١) وردت هكذا فى النسخة الظاهرية وفى النسخة التيمورية [وادى كيوان] ونرجح أنها [دار ابن كيوان] وكيوان كان من رؤساء الجند المشهورين فى دمشق فى القرن السابع عشر.

(٢) هذه زيادة فى النسخة الظاهرية ولا يستقيم المعنى بها.

التى فى الصالحية أعمدة غلاظاً جيء بهم محملين على عربات تجرّ بالبقر . وهدم سوق الزنوظية الذى فوق حارة العمارة ، وكان كله أقبية معقودة، فأمر بفكه ونقله إلى داره المشار إليها . ونقل إليها أيضاً أعمدة من جامع يلبغا ، وأنه مهما سمع ببلاط بديع أو أعمدة أو أحجار من أى محل كان يأتى بها شراء وغير شراء .

قال المؤرخ أحمد البديرى عفا الله عنه : وفى تلك الأيام قتل ابن خطاب الدالاتى فى سوق البزورية وقت[1] أذان العشاء ، جاء ضرب سلاح على رأسه : أخذ نصف رقبته مع رأسه ، فوقع قتيلا كأنه ما كان. هذا ووزير الشام مشغول فى عمارة داره، ولم يلتفت إلى رعاياه وأنصاره ويقول : ائتونى بحجارة المرمر والرخام والسرو ، وتفننوا بالبناء والنقوش والتحلية بالذهب والفضة . وجاب عواميد الرخام على العجلات والبقر من بصرى ، وخرب سوق مسجد الأقصاب، واستجلب جميع ما فيه من أحجار وأخشاب ، وكل ما سمع بقطعة أو تحفة من رخام أو قيشانى أو غيرها يرسل فيأتى بها إن رضى صاحبها أو أبى . وإذا أراد الفقير أن يعمر أو يرمّم لم يجد معمارياً ولا نجاراً ولا خشباً ولا مسماراً ولا تراباً ولا قصرمل ولا أحجار ، وهذا مع غلاء الأسعار وحلول الأكدار . وقد أخذ حضرة الباشا قدراً وافياً من

---

(١) جاء مكانها كلمة [محل] فى النسخة الظاهرية .

[١٣٤] ماء القنوات ، فما وصل إلى السرايا حتى تقطعت السبل ومياه غالب الجوامع والحمامات ، وبقى مدة مقطوعاً حتى عن غالب البيوت.

وفى تلك الأيام عمل على أفندى المرادى ضيافة لحضرة أسعد باشا فى قرية ببيلة فى طريق قبر الست ، وكانت ضيافة حافلة فى الغداء والعشاء .

وفى تلك الأيام أيضاً أمر حضرة الوزير أسعد باشا العظم متولى الجامع الأموى الشيخ إبراهيم الجباوى السعدى بأن يصلح أحوال الجامع المذكور ويتفقد مصالحه . فحالا باشروا بترميم المئذنة الغربية . وأزالوا ما فيها من الأحجار العاطلة . وأزالوا ما به من الحصر والطنافس العتق ، وفرشوه فرشاً جديداً بهمة حضرة الباشا .

وفى يوم الاثنين سادس جمادى الأولى خرج الحاج أسعد باشا وعمل سيراناً فى أرض الغوطة، ومعه أكابر دمشق وأعيانها .

وفى يوم الجمعة عاشر يوم من جمادى الأولى والناس فى صلاة الجمعة، ألقى رجل نفسه من قلعة دمشق إلى جهة قهوة المناخلية، فتكسرت يديه [كذا] ورجليه ، وسبب حبسه أنه اتهم بافتضاض بنت .

وفى تلك الأيام بشهر آذار الرومى ثار ريح شديد عاصف ما سمع بمثله ، تزلزلت فيه أقطار الشام ، حتى ظن الناس أن القيامة قد

قامت، وأعقبه برد ومطر شديد متراسل إلى آخر الليل وفى تلك الأيام جاء رجل من الأتراك إلى دمشق، ومعه صحن من نحاس يضعه على عود ويفتله عليه، ويحذفه إلى أعلا قامتين، ويتلقاه على العود وهو يفتل، وينقله من إصبع إلى أصبع وهو دائر يفتل، ويلمّ فلوساً من المتفرجين. ثم صارت أولاد الشام تفعل كفعله، فتعجب من ذلك وذكر أنه دار بلاداً كثيرة فى الدنيا، وما قدر أحد أن يفعل كفعله، ثم سافر ولم ير بعد. وأغرب من ذلك أنه جاء رجل أيضا من أبناء الترك قبل الذى ذكرناه[1] يصفق بأصابعه، يضرب بالواحـــدة على الأخرى، ويدق برجله على الأرض دقا محكماً، ويغنى بالتركى والعربى، فتجمّع عليه الخلق ويعطونه فلوسا. فصارت أولاد الشام الصغار تفعل كفعله وأحسن. وذكر أنه دار فى الدنيا مدناً كثيرة فلم يتعلم هذه الصنعة سوى أولاد دمشق، واندهش من ذكائهم[2].

وفى جمادى الآخرة قُتل رجل فى محلة العقيبة، فسألت عن السبب، فقيل إنه رجل [٣٤ ب] يشتغل بالفرن، فمضى إلى فرنه آخر الليل وسكّر باب داره وترك زوجته نائمة، فلما وصل إلى فرنه واستقر برهة، جاءه نذير، وأخبره أنه رأى رجالاً دخلوا داره، فجاء يعدو بالحال، فوجد السكرة، مفتوحة، فجسّ الباب فوجده مدربسا، فصاح على

(١) ذكره: فى النسخة الظاهرية.

(٢) بذكائهم: فى النسخة الظاهرية.

زوجته فأجابته ، فقال لها مَنْ عندك ، فصاحت : واعرضاه من يكون عندى ، فقال لها افتحى الباب ، فتعلّلت بعدم قدرتها على فتح الباب ، فصاح بشدة ، وإذا قد فتح الباب وخرج منه رجال ، فضربه أحدهم بطبنجة جاءت فى صدره فقتلته حالا ، فلما طلع النهار أخبروا حضرة وزير الشام أسعد باشا ، فأحضر المرأة بين يديه ، وسألها فأنكرت فأمر بحبسها ، فحبست وذهب دم زوجها هدرا .

وفى تلك الأيام أيضا جىء لحضرة الوزير أسعد باشا بامرأة قتلت زوجها ، فسألها عن السبب ، فقالت له إنه تزوج علىّ ، فلما كانت ليلتى نام وتركنى ، فقمت وقطعت ذكره ، وقلت لا لى ولا لها ، فمات من ذلك . فضحك حضرة الوزير ، ولم يفعل بها شيئاً سوى أنه أمر بحبسها .

وفى اليوم الحادى والعشرين من جمادى الثانية من هذه السنة ذهب والى الشام أسعد باشا الى الدورة ، ومتسلمه موسى آغا كيخية . فثانى يوم من ذهاب الباشا شنق متسلمه المذكور اثنين ، قيل إنهم متاولة كانا يقطعان الطريق ، ثم نادى أن لا أحد بعد صلاة العشاء يخرج لا بضوء ولا بلا ضوء . وهذا شىء ما سبق قط . ثم صار بنفسه يدور بالليل ، وكان من الجبابرة . وبهذه السنة ثبت أول رجب السبت وليلة نصف شعبان كانت ليلة الاثنين ، وأول رمضان كان الثلاثاء .

وفى سادس عشر رمضان دخل ركب الصرّة أمينى[١] ، ودخلت أيضا خزنة مصر إلى الشام . وفى الحادى والعشرين منه دخلت الباطجية . وفى ليلة الرابعة والعشرين بعد صلاة التراويح قتل كردى يقال له كرا مصطفى فى الحدرا[٢] ، ولم يُعلم غريمه ، فاتّهموا فيه رجلاً بغدادياً ، فتسلحت الأكراد ، ونزلت حتى وصلت إلى الدرويشية وباب الجابية لعلهم يصادفون أحدا من البغّادة ليقتلوه فلم يجدوا ، وكانت الخلائق فى الدرويشية صفوفاً وألوفاً ، فبهجوم الأكراد تفرقوا وهربوا ، ودخل الخوف والرعب فى قلوب الناس ، وإلى [٣٥ ا] الله المصير .

وبعد ثلاثة أيام حضر الباشا من الدورة[٣] ، وكان دخوله مع أذان المغرب .

وفى سلخ رمضان يوم الوقفة قتل الأكراد اثنين من البغّادة لأخذ ثأر القتيل الكردى الذى قدمنا ذكره ، فتسلحت البغادة والموصلية وساعدتهم التفكجية والقبقول ، وطلبوا خان الأكراد ، فرمى الأكراد عليهم طلقا من الرصاص ، فقتلوا جماعة وجرحوا ، فرجعوا على الأكراد ، ونهبوا بعض قهواتهم ، وأرادوا أن يعملوا جمهورية [كذا] ويقيموا فتنة فى البلد ، فنهاهم حضرة الوزير حفظه الله عن ذلك ،

(١) أى أمين الصرة ، وهو الذى يسافر بالأموال المخصصة للحرمين .

(٢) فى النسخة التيمورية : قره مصطفى فى الحداد .

(٣) هذه العبارة مضطربة فى النسخة الظاهرية .

بقيت الأمور مطوية . وكان عيد الفطر يوم الأربعاء ، وقد صمنا رمضان تماما ، بعد ما كنا صمناه أعواما ناقصا . وبعد أيام رحلت خزنة مصر إلى إصطنبول .

وفى سابع عشر شوال رحل أمير الحاج بالمحمل الشريف والموكب المنيف الحاج أسعد باشا العظم . وهذه السنة هى الثامنة من حجاته المتوالية . وثانى يوم جاء الحاج الحلبى . وفى الحادى والعشرين من شوال رحل الحاج الشامى والحلبى من الشام . وبعد خمسة أيام جاء حاج من العجم ، وتبع الحاج إلى المزيريب من جهة اللجاة ، ورحل الحاج من المزيريب يوم السابع والعشرين من شهر شوال .

وبعد رحيل الباشا نادى المتسلم على الفلوس الرملية[1] كل إحدى وعشرين فلساً بمصرية ، وأطلق البغدادى الذى اتهم بقتل القرا مصطفى الكردى ، وكانوا قد رفعوه للقلعة ، وبعد إطلاقه بأيام سكر وعربد وضرب حمّارين فقتلهما ، فاختبطت البلدة ، وأرسل المتسلم فى طلبه ، فهرب ولم يظهر له أثر ، ولا وقفوا له على خبر ، فقبضوا على مملوك له فخنقوه .

---

(١) مرّ بنا [ص ١٣٤] أن الفلوس الرملية كانت تعتبر عملة زائفة وقد عوقب مزيفوها ويبدو أن هذه العملة (المزيفة) قد انتشرت فى ذلك الوقت لدرجة أن الحكومة سعّرتها ، فجعلت ٢١ فلسا منها يساوى مصرية ، بينما ٩ من الفلوس (الصحيحة) تساوى مصرية . انظر فيما سبق ص ١٠٨ .

وقبل خروج حضرة أسعد باشا إلى الحاج الشريف بثلاثة أيام انتهت عمارة دار الباشا ، التى هى للحريم ، وفرشت بأحسن المفروشات ، ونقل حرمه إليها.

وفى تلك الأيام حصلت وقعة عظيمه بين الدروز والمتاولة ، ومع المتاولة أيضاً أولاد الضاهر عمر حاكم طبرية[١] ، وقُتل من الفريقين ، وحصروا قتلى الدروز ، فكانوا نحوا من تسعمائة قتيل ، وهى فتنة كبيرة[٢] . وفى يوم السبت خامس ذى القعدة[٣] ضربت مدافع فسألنا عن الخبر ، فقيل جاء من السلطنة مقرر إبقاء [٣٥ ب] أسعد باشا العظم والى الشام .

قال المؤرخ البديرى : وفى ليلة الأربعاء لعشرين مضت من شهر ذى القعدة من هذه السنة تُوفى الشيخ إسماعيل[٤] بن شيخنا

---

(١) كان أمير المتاولة وكبيرهم فى ذلك الوقت ناصيف النصار (من بيت على الصغير) وبلادهم بلاد بشارة بين الشوف وصفد . وكانت العلاقات فى أول الأمر عدائية بين المتاولة والشيخ ظاهر ، وبعد أن انتصر عليهم وانتزع منهم بعض بلادهم عقدت بينهم محالفة مشتركة موجهة ضد باشا الشام . [الصباغ ص ٣٩ — ٤١]

(٢) يرجع إلى تاريخ الأمير حيدر الشهابى ج ١ ص ٤١ إلا أنه أخطأ فذكر سليمان باشا مكان أسعد باشا .

(٣) فى النسخة الظاهرية : خامس عشر ذا القعدة .

(٤) ترجم له المرادى ترجمة مختصرة : سلك الدرر ج ١ ص ٢٥٦

وأستاذنا الشيخ عبد الغنى النابلسى ، مات عن ثلاثين ولدا من بنيه وأولاد بنيه ، وعمر سبعة وسبعين سنة ، لأن مولده سنة خمس وثمانين بعد الألف (ووالده الأستاذ مولده سنة خمسين بعد الألف ووفاته سنة ثلاث وأربعين ومائة بعد الألف)[1] فيكون عمر الأستاذ والده ثلاثا وتسعين سنة ، وكانت وفاته بالصالحية ودُفن بداره فيها. وأما ولده الشيخ إسماعيل هذا فكانت وفاته فى دارهم التى فى العنبرانية قبلى الجامع الأموى ، وحُمل نعشه للصالحية ، ودُفن فى دار أبيه بجانب ولده الشيخ طاهر ، رحمهم الله تعالى ونفعنا ببركاتهم أجمعين .

سنة ١١٦٤

ثم دخلت سنة أربعة وستين ومائة وألف . كانت هلّة المحرم[2] نهار الثلاثاء ، جعلها الله سنة خير وبركة علينا وعلى المسلمين .

وفى ستة وعشرين من المحرم جاء جوقدار الحج الشريف ، وبشّر عن الحج بكل خير من كثرة الرخص والمياه وغير ذلك ولله الحمد . غير أن الغلاء لم يفارق الشام ، فقد دخلت هذه السنة ورطل الخبز بخمسة وبستة مصارى . ورطل الأرز بعشرة مصارى ، ورطل اللحم بثمانية وعشرين مصرية ، ورطل الدبس بتسع مصارى ، وأوقية السمن بستة

(١) العبارة بين القوسين ساقطة من النسخة التيمورية .

(٢) توافق ٣٠ نوفبر (تشرين ثان) سنة ١٧٥٠ .

مصارى ، والعملة مغشوشة ، والفلوس غير منقوشة ، والنساء باحت والرجال ساحت ، والحدود طاحت ، والأكابر مشغولة ومروءة الرجال مغلولة ، إلى آخر ما قال المؤرخ .

وفى تلك الأيام جاءوا بأربع رءوس من العرب قطاع الطريق، أتى بهم عيسى بشه الحبش ، أحد الزرباوات الهاربين . فعفى عنه لأجل ذلك .

وفى تاسع وعشرين محرم جاء كَتَّاب الحج ، وذكر أن هذه السنة هى أربح وأجود السنين فى أيام الحاج أسعد باشا والى الشام حفظه الله . غير أنهم جاءهم سيل عظيم فى عسفان أوقفهم أياما ، ثم أمر الباشا بأن يجدوا فى المسير حتى ترك من العشرة اثنين ، هكذا ذكر لى بعض الحجاج . ودخل الحاج يوم الأربعاء ثانى صفر . وثانى يوم الخميس دخل المحمل الشريف ،وأسعد باشا [١٣٦] وأخوه سعد الدين باشا سردار الجردة بالموكب العظيم . وثامن (صفر) دخل قاضى الشام عبد الله أفندى سعيد زاده ليلاً وعليه جلالة وهيبة ولم يتكلم بقال وقيل . وبلغنا أن عثمان باشا المحصل حاكم جدة مات ودفن بها .

وفى تلك الأيام من هذه السنة جاء منصب حلب إلى سعد الدين

باشا أخو أسعد باشا ، فتحوّل من طرابلس بعياله وذهب من دمشق إلى حلب ، وقد أشاعوا أن سلفه حاكم حلب[١] كان ظالما غاشما ، وقد خرب قرايا كثيرة ، وعمر عمائر كثيرة، أخذ غالب مصارفها من أهل حلب ، وبنى بها جامعاً يدهش الأبصار .

وبعد مجىء الحاج أسعد باشا من الحج الشريف وجدنا داره قد تمّت عمارتها ، فلما دخلها زاد فرحا وابتهاجا وسروراً ، فذبح الذبائح وأعطى المنائح ، وأقام بها بلذة عيش ، وبلغه مجىء تقريره فى الشام ، فازداد شكرا لمولى الأنام . غير أن أهل الشام فى أكدار من غلاء الأسعار ، وبخل التجار وانفساد الاحرار وضعف الصغار، وعدم رحمة الكبار ، والحكم لله الواحد القهار . فلقد صار رطل اللحم الشامى بقرش، ورطل السمن بقرش ونصف، (ورطل لحم الجاموس بأربعة وعشرين مصرية، والسمك مثل ذلك[٢])، ورطل لحم الجمل بثمانية عشر (مصرية)[٣] ، وأوقية الرز بمصرية ، وأوقية الدبس بمصرية ،والبيضة بمصرية،والعسل الأوقية بشاهية. ورطل الخبز بستة مصارى، والناس فى أسوأ الأحوال .

وفى تلك الأيام وقع بيت بباب السريجة على امرأة وصبى صغير

(١) هو إسماعيل باشا عثمان باشا زاده. وقد نقل إلى طرابلس مكان سعدالدين باشا العظم [الغزى نهر الذهب فى تاريخ حلب ج ٣ ص ٢٩٩] .

(٢) العبارات بين القوسين ساقطة من النسخة الظاهرية .

(٣) هذه الكلمة ساقطة من النسخة الظاهرية .

وفى تلك الأيام أيضـا قتل كردى زوجته فى محلة سوق ساروجا . وسبب ذلك أنه كان حاجاً ، ولما جا وجدها متغيرة فى أحوالها ، ثم تبين أنها عابت فى غيبته ، وكانت ذو[كذا] حسن وجمال فذبحها ولم يبال بأحد . وفى تلك الأيام أيضا قتل رجل ابنته فى محلة سوق ساروجا ، وهى ابنة أربع سنين ، فبلغ حضرة أسعد باشا أمرها وأن تلك البنت أمها مطلقة وخالتها[1] امرأة أبيها غير محبة لها ، فدست لأبيها عليها بعض كلام ، وكان أبوها من الحمق والجنون على جانب عظيم ، فضربها بالعصا ضرباً مؤلماً ، ثم [٣٦ ب] ربطها بشجرة بداره وبقيت طول الليل مربوطة إلى الصباح ، فجاء ليحلّها فوجدها قد ماتت ، وكانت ليلة ذات برد شديد ، فأحضره أسعد باشا وأمر أن يضرب ضرباً شديداً ، فضرب ثم وضع بالحديد بعد ما أخذ منه أموالا كثيرة . وفى يوم الأربعاء ثامن صفر الخير من هذه السنة تُوفى الشيخ محمد أبو قميص الكردى شيخ مدرسة المرادية . وسمى بأبى قميص لكونه إذا لبس قميصا لا ينزعه حتى يتقطع ، وهذا غاية فى الزهد ، وقد كان صائماً متهجداً ، خرجت فى جنازته الأكابر والأعيان لاعتقادهم فى صلاحه . ودفن فى تربة مرج الدحداح ، ولما فُتحت حجرته وجدوا عنده عشرين ثوبا من الكتان جدداً وخمسة عشر نصف مقطع وسبعة قناطير حطب وعشرة أرطال أرز وقدرة

(١) فى النسخة الظاهرية : وأمها . والمعنى لا يستقيم .

سمن وقدرة عسل ، وغير ذلك من المؤن . ووجدوا قدرة [بها] أرباع ريال ومثلها مصارى ، وفيها ذهب وأمتعة وحوائج وبدراويتين ملآنتين قمصان ، ووجدوا مقدار مائة كتاب قدّروهم بثمن عظيم . فانظر إلى (زهد)[١] مثل هذا ، فقد ذهب الصالح بالطالح .

وفى يوم الجمعة عاشر صفر توفى الشيخ إبرهيم إمام القشماسية[٢] ، وكان فقيها صالحاً ، ودفن بتربة باب الصغير رحمه الله . وفى يوم الجمعة اثنين وعشرين من ربيع الأول توفى العالم النحرير الشيخ أحمد الحرستى أمين الفتوى فى بيت العمادى رحمه الله .

وفى تلك الأيام باع رجل جرّة زيت إلى رجل آخر ، فقبض ثمنها بعد ما وزنها ، ثم حملها إلى دار الرجل ، وقال : أبق عندك هذه الجرّة ، فبعد ساعة آتيك وأفرغها لك ، قال : لا بأس بل أنا أفرغها ، وأى وقت جئت تجد الجرة ، ثم ذهب صاحب الزيت ، وبعد ساعة فرغها المشترى ، فوجد بها أربع أواقٍ من الزيت والباقى ماء صافياً ، فطلب الرجل فلم يجده .

---

(١) هذه الكلمة ساقطة من النسخة الظاهرية .

(٢) ذكرها المرحوم الأستاذ كرد على فى مدارس دمشق وكتبها [القجماسية] . كانت تقع داخل باب النصر ودار السعادة أنشأها نائب الشام قجماس الإسحاقى الجركسى المتوفى سنة ٨٩٢ ، وقال إنها « اليوم » عامرة فى الجملة [خطط الشام ج ٦ ص ٩٥] إلا أن الأستاذ أبو الفرج العش محافظ المتحف الوطنى بدمشق كتب إلىّ أنها زالت تماما منذ نحو ١٥ سنة .

وفى يوم السبت سلخ ربيع الأول قتل قبقولى رجــــلا من الأشراف فى مأذنة الشحم[1] ، ضربه بخنجر فى صدره أخرجه من ظهره ،وترك الخنجر مغروزا فيه ،حتى أخرجه قاضى كشف [عليه] ، ثم ألقوا القبض على القاتل ، وقامت الأشراف ، وثبت عليه القتل فحبسوه فى القلعة ، وفى تلك الليلة خنقوه .

وفى يوم الأربعاء غرة جمادى الأولى توفى الشيخ محمد بن الشيخ شعيب [١٣٧] الشهير بالشيخ جينه القاطن بحارة باب السريجة . كان رحمه الله ضحوك السن لطيفاً على غاية من الصلاح ، ودفن بباب الصغير رحمه الله تعالى . وفى ثامن جمادى الأولى اغتيل رجل شقى من الصالحية يعرف بالفستق ، كان كما قيـــــل داهية دهماء ومصيبة عظماء ، شجاع يرد مائة شجاع بعصا ، سارق ما سمع بمثله بين اللصوص المشهورين بالحيل ، فمن حيله وشطارته التى ما سمع بنظيرها أنه متى وضع يده على أعلى حائط فمتى علق ظفره به صار بأعلاه ، والمدهش أن يكون ظهره للحائط ، وإذا وضع فى أى مكان وغلق عليه الباب وقفل ، خرج منه مهما كان ، وهذا كله ولم يجاوز العشرين سنة من عمره ، ثم إنه بغى على أهل الصالحية خصوصا وعلى غيرهم فأعياهم أمره ، فجعلوا لشخص جعلا على قتله ، فاغتاله بعد ما عمل معه صحبة ، وقتله وراح وكأنه ما كان .

---

(١) أحد مساجد دمشق المشهورة .

وفى يوم الثلاثاء جاء خبرٌ إلى دمشق بأن ليلة الاثنين قُتل حاكم بعلبك الأمير حسين ، وقد كان خارجا من الجامع ، فاغتاله ثلاثة أشخاص ، ورموه بثلاث بنادق وفروا هاربين وحمل إلى داره . وفى اليوم الثانى توفى ، وقد قيل بأن القاتلين له إخوته ، حيث أن له من الإخوة سبعة ، والله أعلم .

وفى تلك الأيام فرض والى الشـــام أسعد باشا على الزعماء والأكابر والتجار بأن يأتوا له من مدينة حماة بقمح ، ويكون أجرته منهم ، فذهب بعضهم وأتى بقمح كثير ، فبيعت الغرارة بإحدى وثلاثين غرشا ، ولم نستفد غير وجوده ، وأما الغـــلاء فإنه باق بجميع الأصناف كما قدّمنا تسعيره .

وفى ليلة السبت توفى موسى كيخية أسعد باشا والى الشام (١) ودفن بباب الصغير قريباً من قلعة الشاغور ، وصار له مشهد عظيم .

---

(١) نشك فى وفاة موسى كيخية [أو كتخدا أى نائب] أسعد باشا العظم فى تلك السنة [١١٦٤ = ١٧٥١] فقد استمر فى منصب الكتخدائية بدمشق حتى بعد نقل أسعد باشا من دمشق ، وسيعود البديرى نفسه الى التحدث عنه فى حوادث السنوات التالية . وذكر القارى [وزراء دمشق ص ٧٩ — ٨٠] أن موسى باشا كيخية أسعد باشا تولى فى سنة ١١٧١ (١٧٥٨) قيادة الجردة ، فخرجت عليه جموع العرب فى أرض معان وقاتلوه قتالا شديدا ، وأصيب بجرح قاتل فحمل الى دمشق ودفن بها ، وكذلك نهب العرب قافلة الحج وكان يقودها والى الشام حسين باشا مكى . وتتفق رواية ميخائيل بريك الدمشقى مع هذه الرواية .

كان رحمه الله هضيم النفس ، طالب علما فى أول أمره . عنده شفقة ورأفة ويحب المسالمة ومصالحة الخصوم ، حتى صارت الشام وما حولها حتى من العربان طوع يده ، وخلف ثلاثة من الولد أحدهم صار حاكم القدس ،والثانى حاكم غزة ،والثالث صغير من امرأته الشامية ، واستقام فى الكخوتية(١) من حكم سليمان باشا إلى سابع سنة من حكم ابن أخيه أسعد باشا .

وفى يوم الاثنين ثانى وعشرين من [٣٧ ب] جمادى الثانية قُتل اثنان من رعيان التركمان فى أرض الغوطة فى المحفرة ، أحدهما عاش ، فسئل عمن فعل بهما ذلك ، فأخبر أن بعض المغاربة ظن أن معهما مال ، فبعدما أوقعوا بهما ذلك الحال ، وجدوا مع أحدهما ربع ريال ، والثانى قليلا من الفلوس ، فرجعوا خاسرين الدنيا والآخرة .

وفى تلك الأيام كبَّر أسعد باشا داره الجديدة الذى ما صار نظيرها ولا عمل مثلها ولا وجد فى الكون لها مثيل . وبينما النجارين [كذا] يرفعون السقائل لأجل رفع الطوان(٢) وقع ثمانية أنفار من النجارين فتهشموا ،ولم يقتل ولله الحمد منهم أحد. فأمر حضرة الباشا بأن يرسلوا إلى بيوتهم ، وأعطى كل واحد منهم نصف ذهب . وفى ذلك العام

(١) الكخوية : فى النسخة التيمورية .

(٢) الطوان هو السقف المزخرف من الخشب أو القماش السميك ليغطى أعمدة السقف أو المناظر غير المستحبة منه .

اشترى أسعد باشا والى الشام من الصالحية ومن أرض العناية ومن غيرها أراضى وبساتين ، واشترى كذلك سوق الدق[١] وما حوله من الدكاكين ، ومراده أن يعملهم قيسارية ليس لها نظير فى قيسارية الشام .

وفى يوم الجمعة توفى بقية السلف الصالح معتقد أهل الشام على الإطلاق الشيخ عبد اللطيف بن عبد الهادى ، وقرىء نسبه عند إقامة الصلاة عليه فى مقصورة الجامع الأموى ، فوجد بينه وبين سيدنا عمر بن الخطاب ثلاثون جداً . وصار له مشهد عظيم ودفن بمقبرة مرج الدحداح ، رحمه الله تعالى .

وفى يوم الاثنين سلخ جمادى الثانية دخلت أرطة القبقول يتمش إيكى[٢] ، فخرجت لملتقاها كل من لف برمه مع مائتين تفكجى وجماعة من الدالاتية ، كل ذلك بأمر الباشا ، ودخلت بعراضة أى موكب ولا موكب الحج الشريف ، وخرجت الناس للفرجة رجالا ونساء كبارا وصغارا ، وزينوا لهم حارة العمارة بالقناديل والمشاعل ، ودخلوا بكبر وجبر وعتو ، نسأله تعالى العافية .

وفى تلك الأيام أرسلت الدولة العلية تطلب من حضرة أسعد باشا منافح النوق وشرش جنزبيل . فحالا حضرة الباشا استجلب من عرب

---

(١) أحد أسواق دمشق . والدق هو البقايا المتفحمة من بزور الزيتون والمشمش المحروقة فى الأفران .

(٢) أى الأورطة الثانية والسبعون .

الجبلة[١] ثلاثة نوق لم يأكلوا إلا حليب أمهم ، فذبحوا [كذا] واستخرجت منافخهم ، وأرسلهم حضرة أسعدباشا مع شمرش الجنزبيل مع ثلاث نياق حبالى حاملات يصحبهم ثلاثة طواشية .

وفى تلك الأيام وصل خبر إلى [٣٨ ا] دمشق الشام بأن سعد الدين باشا الذى هو أخو أسعد باشا جارَ على أهل حلب ، فغلّى الأسعار[٢] ، وطلب منهم مائتى كيس غرش ، لكونه توجهت عليه سردارية جردة الحاج ، فأبوا أن يعطوه ، ووقع جدال عظيم ، وبطلت صلاة الجمعة وقتل منهم جماعة . وثانى يوم كان رطل الخبز بعشرة مصارى ، فنادى عليه بأربع مصارى ، واللحم كان بثلاثين الرطل ، نادى عليه باثنى عشر مصرية ، فأرسلت أعيان حلب عرض إلى الدولة العلية بما جرى . ولم ندر ماذا يكون بعده .

وفى أوائل شعبان من هذه السنة وصل خبر إلى دمشق بأن ابن الحرفوش حاكم بعلبك المتوالى الرافضى المشهور قبض على المفتى وعلى أخيه وأحرقهم بالنار ، وهدم دارهم وقطع كرومهم . وقد كانت هذه العائلة الخبيثة الحرفشية لعنها الله قبل أعوام قتلت أيضاً الشيخ يحيى مفتى بعلبك المشهور بالعلم والكرم .

(١) انظر فيما سبق ص ٣٣ .

(٢) أشار الغزّى [نهر الذهب فى تاريخ حلب ج٣ ص ٢٩٩ — ٣٠٠] إلى اشتداد الغلاء فى حلب فى تلك السنة « حتى ثار الناس فى يوم الجمعة وتعطلت الصلاة والآذان وطلعت النسوة إلى المآذن » .

وفى تلك الأيام شنق رجل نفسه فى جامع يلبغا بشجرة فيه ليلا ، فأصبح الناس فوجدوه مشنوقا ، ولم يعلم السبب . وفى تلك الأيام وقع باب بستان على رجل فى الصالحية يقال له السيد إبراهيم الحلوانى من حارة السويقة ، فحملوه إلى داره ، ومات فى اليوم الثانى .

وكان أول رمضان هذه السنة نهار السبت ، أثبت فى الساعة السادسة ليلا . ونهار الاثنين ثالث رمضان قُتل آغة القبقول فى القلعة بعد العصر ، والذى قتله أحد جماعته بتدبير من أحد الآغتين المعزولين ، لأن بدمشق ثلاثة أغاوات للقبقول ، أحدهما [كذا] الموظف المقتول والاثنان المعزولين تبرحا عليه حسدا ، فاغتالاه وذهب دمه هدرا . وقتل أيضاً محمد بشه بن شمس فى وادى القرن ولم يعلم قاتله . وسادس رمضان دخل الصرة أمينى إلى الشام . وكان العيد الاثنين والصوم تماما .

وفى هذه السنة جاءت حجاج كثيرون من العجم . رهم على ما نقلوا ألف وستمائة عجمى ، ما عدا البغادة والعرب ، وصار جبر خاطر لعموم الناس فى البيع والشراء . وجاء مع العجم ربيّات ذهب كل واحدة بثلاثه عشر غرشا ولؤلؤ كبير وصغير وأحجار ومعادن وشال وغير ذلك . وخرج المحمل يوم الخميس ثامن عشر شوال ، وخرج الحاج يوم الجمعة بعد المناداة مرارا بأن لا يبات أحد من

الحجاج إلا خارج باب الله[١] . [٣٨ ب] وخرج المتسلم والبلطجية بعد العصر وأناس بالليل والباقى ضحوة السبت . وهذا شىء ما سبق على ما نعلم .

وفى شوال بهذه الأيام صار حرٌّ شديد لا يطاق ، حتى نشفت الأعين والآبار ، فقد غارت قناة بيت راس التى هى قريبة من بيلة فى طريق قبر الست ونشفت واندرست ، حتى كأنها لم تكن . وعلى أثر جفاف الأعين وقلة المياه جاء زيادة ماء ، حتى صارت الماء مثل الطحينة . ونهار الأربعاء ثامن ذى القعدة جرس رجل ، قيل إنه يدق الزغل من المعاملة[٢] . وركب حمارا بالمقلوب وسخم وجهه بالسواد ، وآلة العمل على صدره ، وداروا به البلد كلها . ومع هذا فالغلاء واصل لحدّه : فرطل اللحم بستة وعشرين مصرية ، والأرز بعشرة مصارى ، والخبز بخمسة مصارى ، إلى آخر ما قدمنا .

وفى منتصف ذى القعدة وَرَدَ حاكم حاب سعد الدين باشا أخو أسعد باشا ابن العظم إلى دمشق ، سردارا إلى جردة الحاج ، ورحل بها نهار الخميس غرة ذو الحجة .

---

(١) أحد أبواب دمشق الذى يخرج منه الحاج وهو فى الجنوب الأقصى من الميدان . وفى النسخة التيمورية : خارج البلد .

(٢) أى يزيف العملة .

سنة ١١٦٥

ثم دخلت سنة خمس وستين ومائة وألف نهار السبت[١] ، فاستبشرت الناس بقدومها ، حيث ليلة الهلّة هطل مطر غزير وفرحوا وزرعوا وفلحوا ، وبدت ترخص الأسعار ، غير أنه مافيه من يفتش على الخلق بالرحمة والرأفة من الحكام والوجوه ، والخزّانة كثيرون والأكابر ساكتون والحكام يأكلون ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، وانظر غلاء الأسعار : فقد أقبلت هذه السنة بخيراتها وبركاتها ، ورطل الخبز بأربع مصارى ، والدبس أربع أرطال إلا ثلث بقرش ، ورطل السمن بقرش ونصف ، ورطل البصل بأربع مصارى ، ورطل الثوم بسبعة مصارى ، ورطل الفحم بأربع مصارى ، وعلى هذا فقس . فالأغنياء منعّمون والفقراء صابرون .

قال المؤرخ عفى الله عنه : وفى يوم الاثنين عاشر المحرم من هذه السنة ورد فرمان من الدولة العلية بأن حضرة خليل أفندى البكرى[٢] صار قاضياً فى دمشق الشام ، وسجلوا الفرمان ، وجلس مكانه ولده أسعد أفندى البكرى إلى مجيء أبيه كما يأتى .

---

(١) أولها ٢٠ نوفمبر [تشرين ثان] ١٧٥١ .

(٢) من أسرة البكرى الصديقى الشهيرة بمصر والشام ، وقد أنجبت عددا كبيرا من العلماء ممن تصدروا للتدريس أو الإفتاء أو القضاء ، وترجم لطائفة منهم المحبى فى « خلاصة الأثر » والمرادى فى « سلك الدرر » . انظر ترجمة خليل أفندى قاضى الشام (بين سنتى ١٠٩٨ ، ١١٧٣) فى سلك الدرر ج ٢ ص ٨٣ — ٩٧ .

ونهار الأحد ثانى وعشرين محرم ورد جوقدار الحج الشريف يبشر عن الحجاج بكل خير ، وأن الحاج وقف بعرفات يوم الجمعة . وهذه السنة التاسعة من حجج حضرة أسعد باشا المتواليات . وهذا ما سبق لغيره ، والحمد لله الذى أعطاه [١٣٩ ا] . وفى ثانى يوم دخلت خزنة مصر إلى دمشق . قال المؤرخ : ومعها نسيبنا شيخ السعدية[١] فى الديار المصرية الشيخ يحيى أفندى الجباوى ، أخو الشيخ إبراهيم الجباوى الشاغورى من أبيه . وفى يوم الثلاثاء غرة صفر الخير كان دخول ركب الحاج الشامى إلى دمشق ، ولم يروا أدنى مكدر كما أخبروا ، غير أنهم جاءهم فى هدية برد كبير كل بردة وزنها ستون درهما ، ولم يحصل منه أذية .

وفى تلك الأيام بلغنا أن أهل مصر طردوا كل غريب ، والذى يجدونه بعد نهبوا ما له وعذبوه أشد التعذيب[٢] . وفى أوائل ربيع الأول دخل خليل أفندى البكرى قاضياً لدمشق الشام ، ففرحت ناس وغمت ناس ، وظنوا أن معه أمور من تغيير وتبديل وتفتيش ، فلم يقع شىء من ذلك . وفى ليلة الأربعاء سادس عشر ربيع الأول

---

(١) انظر فيما سبق ص ٩١

(٢) رجعنا إلى تاريخ الجبرتى فى حوادث تلك السنة أو ما حولها فلم نجد إشارة إلى طرد المصريين (الغرباء) من بلادهم . وربما عنى البديرى ما بلغه من عزم الأقباط على الخروج إلى بيت المقدس للحج فى موكب (على مثال قافلة الحج) وغضب العامة فى القاهرة وقيامهم على النصارى وإيذائهم [الجبرتى ج ١ ص ١٩٥] .

توفى العالم الجليل شيخ الشافعية فى دمشق الشام ، بل شيخ شيوخ الفضلاء من علمائها الأعلام ، شيخنا وأستاذنا الشيخ على كزبر ، وصلّينا عليه صلاة الظهر فى جامع الأموى ، ودفن بتربة باب الصغير من قبلى أوس[١] بن أوس الثقفى . وقبـــل وفاته عمل وصية ، ومن جملة ما أوصى بخمسين قرشاً لتعمير القبور الذى حول قبره ، فكانت منه كرامة ، لأن ساعة دفنه تهدمت قبور كثيرة من تزاحم الخلق المحتاطين بجنازته . رحمه الله تعالى ، وأعاد علينا من بركاته . وفى ليلة الثلاثاء سلخ ربيع الأول وجد السيد محمد بن السيد أحمد خادم سيدى أبى الدرداء مذبوحا بداره التى داخل القلعة ، وكان له عبد ومملوك فلم ير لهما أثر ، قيل قتلاه ، والله أعلم ، وذهب كأنه ما كان .

وفى تلك الأيام توفى حسن أفندى بن حمزة نقيب الأشراف سابقاً ، وحضر الصلاة عليه حضرة والينا حاكم الشام أسعد باشا العظم وقاضيها خليل أفندى البكرى الصديقى ومفتيها حامد أفندى العمادى ونقيبها الحالى (محمد) [٢] أفندى العجلانى وعلى أفندى المرادى وأكابر الشام وخلق كثير ، ودفن بمقبرة مرج الدحداح ، رحمه الله تعالى .

وفى اليوم الثانى توفى العالم الجليل إمام المحرابين اللذين للشافعية

---

(١) أويس فى النسخة الظاهرية .

(٢) الاسم ساقط من النسخة الظاهرية .

الشيخ على المصرى[1] وهو الذى جاب ماء السمرمر ، وكان يحب قضاء الحوائج لعباد الله ، ودفن بمقبرة مرج الدحداح ، رحمه الله تعالى .

وفى غرة جمادى الثانى توفى حسن جلبى بن السفرجلانى ، وكان من الصدور فى الشام . وبهذا النهار مات ثلاث مشايخ حرف فى الشام : الشيخ عبد القادر شيخ الحلوانية ، وشيخ الحلاقين الأسطة محمد البوشى ، وشيخ القواقجية الأسطة محمد . وفى يوم الخميس ثالث جمادى الثانية نزل برد بدمشق ، وزنت واحدة فجاءت سبعون درهما .

وهذه السنة كثيرة الأمطار والخيرات والبركات ، وقد نبتت حبة الحنطة اثنين وعشرين قصلة سنبلة ، حتى نقل لى بعضهم أن حبة قمح نبتت فوق سطح بيته ، فوجدها بعد شتلها اثنين وعشرين قصلة أى سنبلة ، ومع ذلك فكل شىء غالى : فرطل السمن بأيام كثرته عشرة أواق بقرش ، والدبس ثلاث أرطال بقرش ، والبصل خمسة أرطال بقرش . وكل شىء على أسعار ما قدمناه ، والحكم لله .

---

(١) ترجم له المرادى فى سلك الدرر [ج ٣ ص ٢١٣ — ٢١٥] . ولكنه ذكر تاريخ وفاته سنة ١١٦٣ لا ١١٦٥ التى ذكرها البديرى هنا . وقد اشتغل بالتدريس وعرف بالصلاح والتقوى حتى أن أهل الشام اختاروه هو وزميل له يدعى الشيخ عبد الرحمن الكفرسوسى ليحملا إليهم ماء السمرمر ليقاوموا بطيره الجراد ، إذ كانوا يعتقدون من شرطه أن يكون حامله من أهل الصلاح . [انظر فيما سبق ص ٧٣ ، ٨٩ ، ٩٠] .

وفى هذه المدة عمّر حضرة الحاج أسعد باشا بن العظم والى الشام طريق الميدان من باب المصلى إلى باب الله ، ولم يظلم أحدا بذلك ولا أخذ من أحد شيئاً .

وفى أوائل شهر رجب قدم الأمير ابن الظاهر عمر حاكم طبريا وعكا ، فتلقّاه حضرة أسعد باشا بواسطة موسى كيخية[١] وخلع عليه وأكرمه وطيّب خاطره من جهة أبيه ، لأنه كان بينه وبين أبيه الظاهر عمر أمور ، فأصلح الباشا بينهما[٢] .

وفى تلك الأيام عمّر خليل أفندى البكرى القاضى المتقدم ذكره المأذنة التى فوق المارستان . وبهذه الأيام جاء قبجى[٣] من الدولة العلية بطلب السيد محمد أفندى المرادى[٤] ليتمثل بين يدى حضرة السلطان الأعظم ، وأن يُجلب مكرما ، وأن يعطيه أربعين كيسا . فأعطى المبلغ المذكور وحمل بتخت روام[٥] ، وقدمت له أعيان الشام

(١) هذا مما يثبت خطأ ما ذكره البديرى عن وفاة موسى كيخية فى حوادث السنة السابقة .

(٢) تحدث صاحب سيرة ظاهر العمر عن النزاع بين ظاهر من ناحية وأخيه سعد وأكبر أبنائه عثمان من ناحية أخرى ، ولكنه لم يشر إلى وساطة أسعد باشا العظم [الصباغ ص ٦٧ وما بعدها] .

(٣) قبوجى : فى النسخة التيمورية .

(٤) هو جدّ المؤرخ المعروف محمد خليل المرادى صاحب «سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر» . كان من كبار العلماء والمتصوفة ، وقد بلغ من زهده أنه نزل عن =

(٥) تختروان .

وأكابرها الهدايا العظام من الدواب والأموال والملابس الفاخرة ، وخرجت إلى وداعه الأعيان مع حضرة والى الشام الحاج أسعد باشا العظم ، وكان خروجه من دمشق نهار الاثنين تاسع رجب الفرد من هذه السنة .

وبهذه الأيام توفى أحمد أفندى ديوان أفندى[1] الباشا ، وهو الذى عمّر القصر فى حائط الأحمدية فى سوق الأروام ، فمات عن غير ولد ولا وارث. قيل بلغت تركته سبعمائة كيس أكثرها من النقود الذهب، فأخذهم حضرة الباشا ، والله يفعل ما يشاء . وفى تلك الأيام تعطلت مياه حارة الشاغور ، ففرض على أصحابها أموال كثيرة ، فاشتكوا لحضرة أسعد باشا والى الشام حفظه الله ، فأمر أن لا يأخذوا من أحد [١٤٠] شيئا ، بل أمر أن يدفع من خزنته خمسة عشر مائة غرش لعمل الماء وإجراء السَّيل .

قال المؤرخ البديرى عفى الله تعالى عنه : خرجت لزيارة السيدة زينب ومعى ولدى مصطفى ، نتلو كلام الله فى طريقنا ، إلى أن وصلنا إلى الست ودخلنا مزارها ، وتفرجنا على العمارة التى عَمَّرها الحاج أسعد باشا العظم

= الثروة التى ورثها عن أبيه وتفرغ للعبادة ولبس الخشن من الثياب ، وذاعت شهرته حتى أرسل السلطان محمود فى طلبه وبالغ فى إكرامه ، حتى عهد إليه بأن يحج نيابة عنه . وقد توفى بدمشق فى ١١٦٩ (١٧٥٥ — ٥٦) [سلك الدرر ج ٤ ص ١١٤ — ١١٦] .

(١) ديوان أفندى اى أفندى الديوان ، وهو كبير أفنديته أى كتابه .

بها فى هذه السنة ، فعمل بها داخل الحريم قصرين وإيوان ومشارق ومنافع ، وغير ذلك مما خلد له الذكر بها ، ووجدنا حضرة ابن عم الباشا مصطفى بيك حفظه الله قد زخرف حيطانها وسقوفها وحسّن بنيانها ، وشرع فى عمارة الحمام فى هذا العام ونحن هناك . فجزاهما الله تعالى على هذا العمل الخيرى أحسن الجزاء ، آمين .

وفى أول ليلة شهر شعبان سافر حضرة الحاج أسعد باشا إلى الدورة . وثانى ليلة من سفره قُتلت امرأة فى أول الليل بين حارة السويقة وحارة قبر عاتكة ولم يتحقق قاتلها . وقد ثبت رمضان الخميس ، ونائب السياسة[1] موسى كيخية ، وقاضى البلد خليل أفندى البكرى ، وأسعار الخبز وغيره كما ترى : فرطل الخبز بثلاث مصارى وبأربعة وبخمسة ، وغرارة القمح باثنى عشر قرش ، ورطل اللحم بعشرين مصرية ، ورطل الرزّ بعشرة مصارى ، والسمن الأوقية بأربع مصارى ونصف فى أيام موسمه . والدبس ثلاث أرطال وثلث بقرش ، والوقية بمصرية وقطعة ، ورطل البصل بثمانية مصارى ، والثوم بستة مصارى ، والحطب الرطل بمصرية ، والسنديان قنطاره بمائة مصرية وعشرة مصارى . ولا أحد يسأل ولا كبير يتكلم ، والفساد كثير والمولى خبير .

---

(١) يقصد نائب الباشا أو وكيله . وقد سبق للبديرى أن ذكر خطأ — وفاة موسى كيخية .

وبهذا الشهر فى جامع الأموى جلس رجل يعدّ ذهبا معه ، فجاء رجل وخطفهم أمام مئات[١] من الناس ، وأسرع فى الجرى ، فصاح صاحبهم ، فأدركه بعض أعوان السياسة ، فأعطاه شيئا من الذهب فتركه . وبهذا الشهر أيضاً رجل حمل ولده وعلى رأسه شيء من الدنانير ، فتبعه لص حتى دخل حامل الولد زقاقا ، فخطف الدنانير والطاقية وذهب . وفى ليلة السبت عاشر رمضان بعد ما سكّر بواب حرم الأموى الأبواب نام ، فجاء المؤذنون وطرقوا باب الجامع ، فقام ليفتح لهم فوجد ثيابه مفقودة ، فأعلمهم بذلك ، فدخلوا وسكروا وفتشوا الحرم جميعه ، فلم يجدوا أحدا ، والأغرب أن جميع الأبواب مسكّرة . ثم ذهبوا لجهة الضريح ، فوجدوا ثمانية قناديل من فضة مفقودة وقنديل واحد من ذهب ، ولم يعلم لهم غريم .

وفى سابع [٤٠ ب] رمضان المبارك جاء ركب الصرة أمينى من إصطنبول . وفى يوم الخميس فى نصف رمضان دخل حضرة الوزير أسعد باشا إلى الشام حين كان غائباً فى الدورة ، وهو والحمد لله فى غاية الصحة والسلامة . وفى يوم السبت سابع عشر رمضان جاءت الباطجية[٢] من إسلامبول ومعها اثنان وعشرون تخت أروام[٣]

---

(١) مائة : فى النسخة الظاهرية .

(٢) أى الرسل .

(٣) فى النسخة التيمورية : تخت روام وهى التى يطلق عليها تختروان .

ومعها أيضاً ابن الوزير الأعظم المنفصل عن الوزارة فى هذه السنة ومعه الملـكة وطواشى كبير ، وأخبروا أن الدولة العلية متضعضعة .

وفى يوم الجمعة كان عيد الفطر ، وصار فى ذلك اليوم هزّة عظيمة ، وهى فتنة صارت بين المغاربة وأولاد الشاغور ، وسكنت ولله الحمد من غير قتل أحد . ونهار الاثنين رابع عيد الفطر غرق شاب فى نقب الربوة وما ظهر له أثر . وفى ليلة الخميس خامس[1] شوال قُتل إبراهيم آغا (بن قوسر)[2] ، قُوس فى داره التى فى قبر عاتـكة ، ولم يُعلم قاتله .

ونهار الأحد سابع عشر شوال رحل أسعد باشا العظم حفظه الله بموكب المحمل الشريف . وكانت السنة العاشرة من حجاته المتواليات بالركب الشامى أميرا ولدمشق الشام وزيراً . وبذلك اليوم [جاء] الركب الحلبى ، وقبله بيومين جاءت قافلة العجم ، وهى قليلة بالنسبه للعام الذى قبله ، وقد نزلوا فى الخراب والسويقة . وفى تاسع عشر شوال سار ركب الحج الشامى من دمشق بالسلامة قاصداً بيت الله الحرام . وبعد أيام نادى حضرة محمد آغا المتسلم على اللحم الرطل بثمانية عشر مصرية ، وسمر[3] جماعة من اللحّامة ، ولم يقبل رشوة

---

(١) فى النسخة التيمورية : سابع .

(٢) ما بين القوسين ساقط من النسخة الظاهرية .

(٣) المقصود بالتسمير دق بعض أعضاء المذنب فى لوح من خشب بواسطة مسامير غلاظ ؛ وقد يطاف به على هذه الصورة ليشهّر به فى المدينة .

ولا برطيلا ،وعدل فى حكمه وفقه الله تعالى ، حتى صارت الفقراء تدعو له جهارا . وبعد مدة سعّر جميع البضائع وشدّد ، وصار يأخذ بيد كل من يشتكى له ، جزاه الله خيرا . وفى ذلك العام خزن الفحم ، ففتش المنسلم وسمر ، فلم يفد ذلك شيئاً ، ولم يصل أحد للفحم إلا من كان قوياً مثل القبقولى والدالاتى ، ولم يجد المتسلم له بهذا الخصوص مساعد [كذا] .

سنة ١١٦٦

ثم دخلت سنة ستة وستين ومائة وألف[١] بنهار الثلاثاء أو الأربعاء جعلها الله سنة خير وبركة ورحمة علينا وعلى خلق الله أجمعين .

وفى غرتها أى غرة محرم دخل قاضيا للشام من أبناء الترك واسمه [صالح ملا][٢] فنزل فى دار على آغا ابن الترجمان قريبا من باب القاعة وبطل الحكم من المحكمة القديمة المسماة بالكبرى .

وفى تلك الأيام وقع برج باب القلعة وأخذ البدن كله من بابها ، وهكذا[١٤١] إلى آخر البرج من جهة القبلة ، ولم يُقتل سوى رجل من القلعة . وفى تلك الأيام نزلت مطر كأفواه القرب ثلاثة أيام

(١) يوافق أولها ٨ نوفمبر (تشرين ثان) ١٧٥٢ .

(٢) الاسم ساقط من نسختى الظاهرية والتيمورية . وهو صالح ملا وسيذكره البديرى فى مستهل السنة التالية عند عزله .

متوالية ،أذهبت غالب مساطيح الزبيب وأتلفت البيادر . وبهذه الأيام فى العشر الأول من المحرم شنق متسلم الشام ثلاثة أشـــخاص من اللصوص فى شجرة الدلية[1] التى فى المرجة أمام باب التكية .

فى منتصف محرم جاءت بشارة لدمشق : وهى مقرر لحضرة الحاج أسعد باشا والى الشام . وفى ليلة الاثنين ليلة عشرين من المحرم شنق المتسلم لصا فى السويقة وقطع يد رجل نشال . وفى سلخ محرم جاء كتّاب الجوخدار ،وأخبر أن الحج فى هذه السنة ذهب وآب من طريق الفرعى ، وخرجت عليهم عرب وقضوا مشقة عظيمة ،وصارت مقتلة جسيمة ، ووقع نقص بالحاج وبالعسكر خصوصاً فى المغاربة .

ومات تلك السنة قبوجى لر أغاصى وشيخ الزبدانى ، وشنق الباشا السيد حسن شيخ شباب باب المصلى ، وقتل أيضاً جماعة من الأشقياء ، ودخل الحاج الشريف يوم الثلاثاء خامس صفر . ودخل أمير الحاج أسعد باشا بموكب المحمل يوم الأربعاء ، وفى منتصف ربيع الأول نبّه الحاكم على أن لا يروج الفلوس المكسور منهم والرصاص . وثانى يوم نادى المنادى على الفلوس الصحيحة كل اثنى عشر بمصرية بعدما كانت كل أربعة وعشرين بمصرية ، (وأن لا يروّج منها إلا القسطنطينى، فحصل للناس ضيق عظيم ، وسكّرت غالب البلد ، ثم نادى منادى

(١) الدالية كرمة العنب .

الحاكم كل أربعة وعشرين بمصرية)[1] وأرجعهم على حالتهم الأولى. ولكن لله الحمد والمنة، الناس فى أمن وأمان ورخص ورخاء فى جميع البضائع ماعدا اللحم، فإن رطله بثمانية وعشرين مصرية، وأما غيره فرطل الخبز بثلاثة مصارى وبمصريتين ونصف، وغرارة القمح بخمسة عشر قرشا أو أقلّ. وعلى هذا فالحمد لله فليقس.

وفى ثالث ربيع الثانى توفى العبد الصالح الشيخ مصطفى الكردى من أبناء الترك والأغوان[2]، فيتكلم بالتركى والكردى والأغوانى، وكان على صلاح عجيب، وكان دائما متسلحاً بالسلاح الكامل متقلداً به ليلا ونهارا، ولا ينام إلا متقلداً به، وإذا دخل الحمام دخل بالعدّة الكاملة، وكان قليل الكلام لا يتكلم مع أحد، وفى بعض الأوقات يتكلم ويسبُّ بالتركى، ويوم وفاته صار له مشهد عظيم، ودفن ببرج الدحداح، رحمه الله تعالى.

وفى تلك الأيام من هذه السنة [٤١ ب] شرع حضرة أسعد باشا فى عمارة القيسارية التى فى البزورية التى عزّ نظيرها فى الدنيا، وذلك بعدما هدم قيساريتين ودور ودكاكين وجعلها قيسارية واحدة بهذه الصفة التى لا نظير لها، وفى يوم الأربعاء تاسع ربيع الثانى وقع

---

(١) العبارات بين القوسين ساقطة من النسخة التيمورية. انظر فيما سبق ص ١٤٩.

(٢) كلمة عامية يقصد بها الأفغان.

حائط جامع الشيخ عارودك غربى الصالحية على إمام الجامع المذكور وعلى ثلاثة أشخاص معه ، فماتوا جميعا عفى الله عنهم . والعجب أن هؤلاء الأربعة كل واحد منهم اسمه محمد ، وهو اتفاق عجيب ، ودفنوا بيوم واحد ، وفى سلخ ربيع الثانى ربط غلام مراهق رسن فرس فى زناره ، وجلس يتوضأ على نهر قرية القدم عند قبة العسالى ، فجفلت الفرس وصارت تعدو والغلام مربوط برسنها ، وتكرّ وترفس الصبى حتى وصلت إلى باب الله ، فمسكوا الفرس فوجدوا الغلام قد تهشم وتقطع ومات ، والغلام ابن أحمد[1] بشه السحار القبيباتى ، والفرس لأبيه . فأعلموا حضرة أسعد باشا حفظه الله فأمر بدفنه ، ولم يلحق بأحد ضررا .

وفى تلك الأيام جاءت خزنة مصر وبقيت أياما ثم سافرت ، وفى تلك الأيام نهبت اللصوص ضرايح الصحابة والأولياء ، ففى غرة رجب قلعوا شباك سيدى بلال الحبشى ، وأخذوا حديده وثوباً مقصباً كان على تابوته وشدقتين من حرير وسجادتين وغير ذلك . وأخذوا شباك الشيخ عبد الجبار بن سيدى عبد القادر الجيلانى ، مزاره غربى باب الصغير ، وأخذ ثوب تابوت سيدى أبى بقبلى مقبرة الشيخ رسلان .

---

(١) محمد : فى النسخة التيمورية .

وثانى رجب من هذه السنة توجهّ حضرة الوزير الحاج أسعد باشا والى الشام يريد الغزو على عرب البلقا ، فأخذ معه من رجال القرى وهم الفلاحون ألف ومائة فلاح ، واستجلب عساكر من حمص وحماة والمعرة وجبل الدروز والمتاولة ومن نابلس والقدس وصفد ماعدا عرب السردية وغيرها . وخرج بمال عظيم ، وسكّرت تلك الأيام الأسواق ومنعت النساء من الخروج وعظمت الأمور . ثم فى أثناء هذا الشهر وردت الأخبار بأن حضرة الباشا سار بالعسكر إلى فوق البلقاء ، ودخل بمكان يقال له الوكر ، وهزم ابن عدوان هو وهربه ونهبوهم [كذا] العسكر عن بكرة أبيهم . وذهب الباشا إلى الدورة من هناك . وبهذه السنة ثبت رمضان بالرؤيا ، فصُمنا الاثنين . وفى ليلة العاشر من رمضان جاء الباشا من [١٤٢] الدورة ، وجاء العسكر مع الكيخية بعد يومين . وفى هذا الشهر فُقد حاجى غريب فى خان الحرمين بباب البريد ، فاتهموا به رجل من أبناء الترك غلينجى ، فقبضوه وعذّبوه وأخذوا ماله وأطلقوه ، وبهذا الشهر ظهر قتلى كثيرة من رجال ونساء ولم يسئل عنهم . وكل شىء موجود والغلاء يلعب فى جميع البضائع ، وقد شحنت الشام من سائر أصناف الخلق ، وامتلأت غالب المواضع ، وكان عيد الفطر يوم الأربعاء .

وفى يوم الثلاثاء رابع عشر شوال خرج المحمل الشريف بالموكب المنيف وبالأمير الخطير الحاج أسعد باشا . وكانت الحجة الحادية عشر

من حِجّاته المتواليات . وفى تلك الأيام جاء طوخان إلى مصطفى بيك ابن إسماعيل باشا العظم أخى أسعد باشا ، وأن يكون محافظاً للجردة مع أخيـــه سعد الدين باشا أميرين[١] فى سفر الجردة . وقبل خروجهم بيوم قامت قبقول دمشق قاطبةً بالأسلحة ، وعملوا جهوراً ، وقامت اليمق على الأرطلية[٢] . وهذه الفتنة بسبب رجل صار قبقولى فما قبلوه ولا ارتضوه ، وسكّرت الأسواق واشتغل ضرب الرصاص وجرحوا بعضهم بعضا ، وما صلح الأمر إلا بتبطيل الرجل من الوجاق ، وتَنزل الأضباشى (والأصطا . وكان عيد الأضحى هذه السنة يوم الأحد . وطلعت أخبار فى تلك الأيام)[٣] بتغيير السلطان ومجىء أحمد باشا بن القلطقجى[٤] ، فارتبكت وانخبطت القبقول ، ثم بان بأن الأمر كذب لا أصل له ، وحرقوا الخشبة وداروا فى الأسواق [كذا] . وفى يوم الجمعة والناس فى صلاتها سلخ ذى الحجة كسفت الشمس .

وفى تلك الأيام جاء خبر بأن محمد باشا حاكم صيدا

---

(١) هذه الكلمة ساقطة من النسخة التيمورية .

(٢) فرقتان من الجند المرتزقة . وقد شرح جِبْ وبَوِنْ vol. I. part I. p.192 أن اليمق Yamak هم أصحاب الحرف الذين يلتحقون بالعسكرية ويساعدون الجند الانكشارية فى حراسة الحدود .

(٣) ما بين القوسين ساقط من النسخة الظاهرية .

(٤) سبق ذكر الفتنة التى قام بها أحمد بشه القلطقجى وخروجه من الشام . انظر فيما سبق ص ٦٧ ، ٨٠ ، ٦٩ ، ١١٦ .

مات ، وكان على ما نقلوا أنه ظالم غاشم مصادر الناس بأموالها ، حتى هرب أهل صيدا إلى جميع البلاد .

سنة ١١٦٧

ثم دخلت سنة سبع وستين ومائة وألف يوم السبت[١] وبهذا اليوم سافر قاضى الشام صالح منلا[٢] طالباً إسلامبول . وفى سابع المحرم قدم القاضى الجديد ، ونزل فى محكمة النورية المسماة بمحكمة الباب[٣] . وفى ثامن عشر قتل أحمد آغا بن سنان فى باب المصلا ، وهو من قرية قريبة من قطنا .

وفى ليلة الجمعة عشرين من المحرم توفى بقية العلماء الأعلام مفتى السادة الشافعية وأفصح من نطق بالعربية الشيخ محمد أفندى الغزّى[٤] ، ودفن ببرج الدحداح ، رحمة الله عليه [٤٢ ب] وعلى أموات المسلمين .

---

(١) أولها يوافق ٢٩ اكتوبر (تشرين أول) ١٧٥٣ .

(٢) ملا : فى النسخة الظاهرية .

(٣) سميت محكمة الباب لأنها كانت قريبة من باب القلعة ، وبنزول القاضى بها فى العام الماضى بطل الحكم فى المحكمة القديمة المسماة بالكبرى [انظر فيما سبق ص ١٧٢] .

(٤) ترجم له المرادى (ج ٤ ص ٥٣ — ٥٨) وأشاد بمكانته فى التاريخ والأدب ، وذكر أنه اشتغل بالتدريس والإفتاء على مذهب الشافعى ، وألف تاريخاً سماه (ديوان الإسلام) وله شعر عذب .

ونهار الثلاثاء رابع وعشرين المحرم قدم جوقدار الحج الشريف مبشّراً بكل خير عميم . وفى أثناء هذه الأيام جاء مقرّر الشام لحضرة الحاج أسعد باشا والى الشام .

وفى يوم الجمعة خامس صفر الخير دخل ركب الحاج الشامى بالصحة والسلامة أحسن من كل عام ، وأخبرت الحجاج أنهم لم يحجّوا نظيرها من الرخاء الكثير والماء الغزير والأمن والأمان ، ولم ينقص من الحجاج إلا الأفراد النادرة ، وأن أمير الحاج خوزق أربع لصوص من أولاد الشام ، وتوفى معهم تُرْبَدَار(١) ، ومتولى [جامع] السلطان إبراهيم بن أدهم . وثانى يوم السبت دخل المحمل الشريف والموكب المنيف بالكواخى والبشاوات ، فكان أوّلهم مصطفى باشا ابن إسماعيل باشا العظم أخو الحاج أسعد باشا ، وبعده أخوه سعد الدين باشا العظم ، وبعده أخوهما الوزير الكبير الحاج أسعد باشا فى ألاى حافل وعسكر [و] جحافل . وثالث يوم دخلت خزنة مصر ، وكانت بثمانية أحمال ، فتفرّجت الناس ثلاث فرج بثلاثة أيام متتابعات : يوم دخول الحج ويوم دخول المحمل ويوم دخول خزنة مصر .

وفى ذلك العام من شهر محرم الحرام تمت قيسارية أسعد باشا

(١) هو المشرف على (التربة) أو الضريح .

والى الشام الذى لم يعمل مثلها فى سائر بلاد الإسلام ، وقد تم بناؤها بعد سنة وشهرين . قال المؤرخ : وقد بلغنى أنه صرف عليها فى كل يوم من الآلات والأجر ألف ومائة غرش ، ولكن كما قال القائل : جزى الله الوسعة كل خير .

وفى ليلة الخميس تاسع عشر صفر الخير لثلاث أيام مضت من كانون الأول [1] ثالث ساعة من الليل صارت زلزلة خفيفة فى دمشق وقع بسببها بعض أماكن فى سراية الحكم على جماعة ، فقتل رجل مسلم ورجل نصرانى . وكان ذلك الشهر مطره غزير جداً يعقبه إن شاء الله تعالى خير كثير . وتوفى بهذا الشهر الشيخ محمد بن أحمد ابن سوار شيخ المحيا [2] والشيخ خليل بن البكرى [فى ؟] داره بباب توما وأعملوا له فى الأموى . وفى ثامن عشر شهر صفر يوم الجمعة بعد العصر توفى لرحمة الله تعالى الشيخ أحمد الجلبى إمام جامع السنانية للسادة الشافعية . قال المؤرخ : كان هذا الإمام إماما فى كل فن ، صحوك السن فاضلا مباركاً قاطناً فى جامع العداس عند الملاّ إلياس [3] قُدس سره ، [١٤٣] لا يفارق الملاّ لا ليلا ولا نهارا ، ودفن بباب الصغير قريبا من الملا إلياس ، رحمهما الله تعالى .

(١) شهر ديسمبر .

(٢) (المحيا) ذكر خاص يقام فى مشهد الحسين بالمسجد الأموى بدمشق فى شهر رمضان من كل عام ، وله وقف خاص تتوارثه أسرة معينة .

(٣) انظر فيما سبق ص ١٣٥ .

وفى تلك الأيام أيضا توفى الشيخ يحيى بن محاسن رحمه الله . وفى نهار الاثنين الثانى والعشرين من شهر صفر تشاجر سعد الدين المغربى خدام فى بيت الخانم بنت سليمان باشا مع رجل من نفر الأرطة ، فضرب الأرطلى فقتله ، وجرح طواشى الخانم بعدما جرحه المغربى جرحين . فحين بلغ حضرة الوزير أسعد باشا أمر بقتله حالا ، فخنقوه فى تلك الأيام من غير إثبات ولا دعوى .

وفى منتصف مربعانية الشتاء[1] وقعت صخرة بنهر القنوات، ووقوعها كان تجاه وادى كيوان ، سدّت النهر وانقطع ثلاثة أيام بلياليها ، فأخرجوا الصخرة قطعاً قطعاً ، فوجدوها قبرا قديماً من قبور الحكماء .

وفى شهر ربيع [كذا] أعاد الباشا السردرة[2] على البلاد ، فصاروا يمسكون من عرب الجبل ويقتلون ويأتون برؤسهم إلى الشام . وفى شهر جمادى [كذا] جدَّد حضرة أسعد باشا الجامع الذى هو قدام قهوة الخريزاتية وحسّنه هيئة وفرشاً وعمّـــر بعض دكاكينه قنايا ماء قريبا من بيت السفرجلانى .

وفى أواخر رجب جاء مقرّر لسنة ثمانية وستين ، وهو عن ثلاثة

(١) تعبير يطلقه السوريون على الأربعين يوماً الأولى من فصل الشتاء وفيها يشتد البرد .

(٢) السردرة من سردار ، وهو قائد الجند

عشر سنة من حكمه ، حفظه الله أمير الشام وأمير حاج الإسلام ، وقد عدل فى الخاص والعام ، وأحسن للعلماء والفقراء والأيتام بلا ظلم ولا عدوان ، وعمّر أماكن كثيرة داخل المدينة وخارجها مدارس وجوامع وغير ذلك من وجوه الخير والصدقات ، جزاه الله خيرا ٠

وفى يوم الاثنين خامس رجب خرج حضرة أسعد باشا إلى الدورة ، وترك موسى كيخيه متسلما بها . وكان نصف شعبان المبارك يوم الخميس ، وثبت أول رمضان نهار السبت ٠ والأسعار ناهضة جدا : فرطل اللحم بأربعة وعشرين مصرية ، ورطل الخبز بأربعة وبخمسة مصارى ، ورطل الأرز بعشرة مصارى ، ورطل الكعك باثنى عشر مصرية ، ورطل الدبس بخمسة عشر مصرية ، وأوقية السمن بستة مصارى فى أيام الموسم . وأوقية الزيت بثلاث مصارى ونصف ، وكذلك الصابون ، وأوقية الجبن الأخضر بمصريتين ، وأوقية القريشة[1] بثلاثة مصارى ، ورطل المشمش [٤٣ ب] الحموى بستة مصارى مع أنه مقبل كثير ، والمشمش البلدى رطله بثلاثة مصارى ونصف مع إقباله ٠ وحاصله كل شىء غالى حتى العلق التى تستعمله الناس لإخراج الدم[2] ، والقصرمل الذى يخرج من وقيد الحمام ، والأمر لله .

---

(١) نوع من الجبن يصنعه أهل دمشق .

(٢) كان البديرى — وهو حلاق — يهمه سعر العلق .

وفى ثانى عشر شوال سار حضرة الوزير الحاج أسعد باشا مع المحمل فى الموكب العظيم للحج الشريف . وكانت هذه السنة هى الثالثة عشر من حججه المتواليات وإمارته التى لم تسبق لغيره . وبهذه السنة مرّوا على وادى الليمون فى الطلعة ، وكانت وقفتهم الجمعة ، ورجعوا من الطريق السلطانى . وفى خامس وعشرين من المحرم دخل جوقدار الحج وبشّر بالخير . وفى خامس صفر دخل الحج الشريف وهو على أحسن حال .

وفى هذه الأيام توفى رجل من البله المجاذيب ، وكان بطالا من الأبطال تعتقده أهل الشام ويكاشف بكلامه ، ويقع كما يقول واسمه الشيخ خليل البياض[١] . وخرج بجنازته أكابر الشام حتى حاكمها المتسلم موسى كيخية ومشى وراءها ، رحمه الله .

سنة ١١٦٨

ثم دخلت سنة ثمانية وستين ومائة وألف . وكان غرة محرمها[٢] نهار الاثنين المبارك ، جعلها الله سنة خير وبركة علينا وعلى سائر المسلمين .

ونهار الجمعة ، سلخ صفر قدم قبجى من إسلامبول ، وأخبر

(١) راجع ترجمته فى سلك الدرر للمرادى ج ٢ ص ٧٢ .
(٢) يوافق ١٨ أكتوبر (تشرين أول) ١٧٥٤

بوفاة حضرة السلطان محمود خان[1] بيوم الجمعة ، والناس فى الصلاة وجلس أخوه مكانه ، وهو السلطان عثمان خان[2] ، والخطبة باسمه . فانهزت الشام البلدة من هذا الخبر ، وبقيت النـاس مترددة فى الاستقرار ، إلى أن كان نهار الخميس عاشر ربيع الثانى جاء قبجى كبير من دار السلطنة ومعه منشور عظيم بأن صاحب الخطبة فى سائر بلاد الإسلام السلطان عثمان خان ، وأمر أن تزين دمشق ثلاثة أيام . فزينت زينة ما سمع بمثلها ، أبقى الله تعالى هذه الدولة العثمانية إلى آخر الدوران . آمين .

وبهذه السنة انتشر مرض الجدرى فى عموم الناس ، حتى فى الشيوخ والعجائز ، ومات فيه كثير من الأولاد . وفى أوائل جمادى الأولى ذبح بيرقدار التفكجية فى الخان الصغير الذى هو قبالة حمام الملكة ، ولم يعلم ذابحه ، ولم يؤخذ من ماله شىء . ووجد بهذه الأيام قتيل فى النهر ، وقتيل فى التربة وفى غير [١٤٤] ذلك أيضاً . نسأله تعالى حسن العاقبة .

وفى منتصف جمادى الأولى جاء تقرير إلى مصطفى باشا أخى سعد الدين باشا بن العظم إلى صيدا ، ولم يأت إلى أخيه أسعد باشا

(١) هو السلطان محمود الأول ، حكم من سنة ١٧٣٠ إلى ١٧٥٤ .
(٢) هو السلطان عثمان الثالث ، حكم من سنة ١٧٥٤ إلى ١٧٥٧ .

خبر شافى من جهة حكم الشام ، وقد طال عليه المطال[١] . والغلاء فى كل شيء حتى فى التراب والقصرمل والأحجار والحديد والخشب ، وغير ذلك من أدوات العمارة ، وبالجهد الكلى حتى يحصل الإنسان على معلم أو نجار ، وأجر الواحد بدينار ولا يوجد ، والكلس واللبن لا يوجدان وهلم جرا . لقد ضاقت الأنفاس والأشياء زادت عن حد القياس ، والباشا ومن حوله يجمعون المال فى الأكياس ، فنادى على اللحم فلم يوجد ونادى على الصابون فتبدد ، ونادى على الزيت ، وكان له أغراض وأمور وأحكام تفتت الكبد ، والمستعان بالله الفرد الصمد[٢] .

وفى تاسع عشر جمادى الأولى ظهر خبر بأن أمرأة قتلت زوجها مع جماعة من الأشقياء ، بدعوى أنه ينام مع مملوكه ولا ينام معها ، وبعد قتله دفنوه فى دهليز البيت ، والقتيل ينتسب إلى الأكراد ، وله قهوة بسوق الخيل ، واسمه درويش آغا ، فقامت الأكراد على ساقها فى سوق الخيل ، فجاء ولد صغير كان حاضراً ومطلعاً على قتله ودفنه ، فدلهم على مقتله وداره ، فذهبوا وألقوا القبض على الجميع ، فوجدوا

(١) يلاحظ أن المؤلف ذكر فى حوادث السنة السابقة أنه فى شهر رجب جاء أسعد باشا التقرير بولاية الشام لعام ١١٦٨ .

(٢) لاحظ أن البديرى فى العام السابق قد أشاد بعدل أسعد باشا وإحسانه للفقراء والعلماء « بلا ظلم ولا عدوان » ودعا له بطول البقاء ! فهل كان لتأخر وصول فرمان التقرير بالولاية أثر فى تحول البديرى ؟

طبجى الباشا خليل آغا وأخو الزوجة ورجل آخر ، فجاؤا إلى الطبجى وقطعوه قطعاً ، وقتلوا الرجل وأخا الزوجة ، أما المرأة فإنهم أخذوها وغرقوها فى مغرق البحصا فى نهر بردى ، ولم يسألوا عن الحاكم ، والحاكم لم يتعرض لهم فنسأله تعالى الفرج القريب .

وفى تلك الأيام شرع حضرة أسعد باشا والى الشام بترميم الجامع الأموى ، حتى بلغنى أنه أشترى طنافساً أى فرشاً بأربعة أكياس . جزاه الله خيرا .

وفى تاسع جمادى الأولى من نهار الثلاثاء نزل مطر عظيم وثلج جسيم ، فزادت المياه حتى طاف نهر بردى ، ووصلت الزيادة إلى تحت القلعة ، ومشت إلى حارة العمارة ، لكن ولله الحمد لم تضر بأحد ولا بالبنيان .

وبتلك الأيام صارت فتن بين عرب الشام وعرب عنزة ، وهزمت عرب الشام وعرب عنزة [كذا] . وفى شهر رجب أرسل أسعد باشا والى الشام عسكرا لعرب الفضل ، فنهبوا مالهم [٤٤ ب] وطرشهم وبعض عيالهم . وفى تلك الأيام شنق الباشا رجلا جمّالاً من حارة البحصة ، قيل أنه خنق رجلا من جيرانه .

وفى منتصف شهر رجب جاء مقرّر حضرة أسعد باشا والى

الشام ، وكانت السنة الثالثة عشرة من حكمه وإمارته للحج[1] .
وبهذا الشهر خرج حضرة والى الشام المذكور إلى الدورة ، وجعل مكانه متسلماً موسى كيخية لدمشق الشام . وثبت هلال رمضان هذه السنة ليلة الثلاثاء ، وشعلت القناديل فى المآذن ، وصلوا التراويح قبل أن يضربوا المدافع ، وما ضربت إلا بعد ساعتين .

وفى هذه الأيام عزلت الحكومة الأمير حيدر بن حرفوش عن بلد بعلبك ، فأبى الخروج منها وأمر جميع من فيها بالرحيل وكل من أقام بعد ثلاثة أيام ينهب ماله وعياله . فرحلوا بعد ما حرق بيوتهم وكرومهم وطفشوا إلى البلاد والقرايا ، وأقام بها هو عاصياً ، ثم ضمن الأمير حسين بن حرفوش بعلبك ، ورجعت غالب أهل بعلبك بلا أدنى حادث[2] .

سنة ١١٦٩

ثم دخلت سنة تسع وستين ومائة وألف[3] نهار الأحد

---

(١) سبق للبديرى أن ذكر ذلك فى حوادث رجب من السنة السابقة .

(٢) أشار إلى ذلك الأمير حيدر الشهابى مؤرخ الشهابيين (ج ١ ص ٣٨ — ٣٩) ، قال إن الأمير حيدر الحرفوش كان صنيعة لأسعد باشا العظم فقاتله خصمه الأمير ملحم الشهابى وأزاحه عن بعلبك ونصب عليها أخاه الأمير حسين ، ويلاحظ أن تاريخ الأمير حيدر الشهابى مضطرب بين الباشوات من آل العظم اضطراباً كبيراً .

(٣) يوافق أولها ٧ أكتوبر (تشرين أول) ١٧٥٥ .

والغلاء قائم فى الشام كما قدمنا . وجاء الجوقدار سابع وعشرين من المحرم ، والكتّاب جاء ثانى يوم من صفر ، وسادس يوم منه دخل الحج الشريف . وأخبرت الحجاج أن هذه السنة كانت مخصبة ودار بهم أمير الحج من غـــير الطريق السلطانى ، فحصل على الحج عطش شديد ،حتى هلك فى يوم واحد ألف وخمسمائة إنسان .

وفى سلخ ربيع الثانى جاء مقرَّر إلى الحاج أسعد باشا فى الشام وهى السنة الرابعة عشر من حكمه الشام وإمارة الحج الشريف المتوالية التى لم تسبق لغيره . وتلك الليلة نزل ثلج عظيم فى الشام ما رؤى مثله من سنين .

وبتلك الأيام جاء قبجى إلى حسين بيك بن مكى حاكم غزة ومعه فرمان بأن يكون باشا بالقدس[1] . ويعمّر ماء القدس ، وأن يلمّ مال الدورة بأمر الدولة .

---

(١) كان جدُّه أحد تجار غزة الأثرياء ، واتصل والده بخدمة وزراء الشام وأخذ غزة من الدولة إقطاعا له (بطريق المالكانه) ، ثم جعله أسعد باشا كتخدا له بدمشق وجعل إبنه حسين حاكما لغزة والرملة ، ثم أقامه أسعد باشا حاكما من قبله على القدس ، إذ كانت تابعة لولاية دمشق . حتى كانت سنة ١١٦٩ (١٧٥٥ — ٥٦) فعينته الدولة من قبلها حاكما على القدس مستقلا عن باشا الشام ، برتبة باشا بطوخين أى أمير أمراء أو بكاربكى . ولكن بعد قليل أعادت الدولة القدس إلى أسعد باشا . ثم رقى حسين باشا مكى إلى رتبة الوزارة (أى باشا بثلاثة أطواخ) وولته الدولة على صيدا ثم على دمشق خلفا لأسعد باشا العظم .

وكان صوم رمضان هذه السنة نهار الاحد . وفى جمادى الأولى نزل ثلج عظيم بدمشق وأقام أياما وهدم أماكن كثيرة . وفى تلك الأيام جاء قبجى برجوع القدس إلى أسعد باشا والى الشام. وفى ذلك الشهر جاء خبر بأن عرب الحجاز محاصرين مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولها نحو شهرين[1] فى المحاصرة ، حتى هدموا ما حولها [١٤٥] وقطعوا نخلها وضيّقوا على أهلها ، وهم الآن فى كرب وضيق ما سبق ولا سمع من عهد الجاهلية . فبلغ هذا الحال الدولة العلية أيدها الله تعالى ، فأرسلت إلى حاكم الشام أسعد باشا العظم بأن يتأهب لقتالهم بالرجال والعسكر الجرّار ، وإلى أخيه مصطفى باشا كذلك ، وإلى أخيه سعد الدين باشا كذلك ، وأن يكون حاكماً بجدة ، وأن يأخذ معه عساكر وأن يساعد أخويه .

وفى تلك السنة أمر حضرة الحاج أسعد باشا العظم بترميم وإصلاح جامع يلبغا ، فعمل له وقفاً وجرايات بعد ما جدّد فيه أخلية وغير ذلك ، وأمر أيضا بإصلاح جامع الياغوشية الذى تحت القلعة . وكان قد وقع منه جدار على امرأة ورجال ، وألزم بعض أخصائه بتعميره من ماله لأنه ذو مال . وفى أول رجب تمت عمارة قهوة

= المرادى : ج ٢ ص ٦٠ — ٦٢ وميخائيل بريك الدمشقى : حوادث الشام ولبنان ص ٣٦ ، والبديرى فى حوادث السنة التالية .

(١) شهر : فى النسخة التيمورية .

الشاغور التى هى مقابلة للشيخ السروجى رضى الله عنه . وبتلك الأيام عُمّــرت أيضاً قهوتين [كذا] بباب السريجة وقهوة أمام باب المصلى .

وفى نهار الجمعة من شعبان توفى مصطفى بيك بن مردم[١] بيك ، وهو من أعيان الشام وذوى البيوت التى شهدت أهل الشام بصلاحه ، لأنه كان يحب الخــير ويعمله ، ولا يقارب الحكام وليس له أذية لأحد ، ودفن بمدفنهم عند جدّه لالا مصطفى باشا ، فى أسفل سوق السّنانية .

ثم جاء رمضان المبارك وأثبتوه الأحد وصمناه تماما . وسار الحج قاصدا الحجاز ثامن عشر من شهر شــوال . وفى ذلك اليوم توفى عبد الله أفنـدى زاده قاضى الشام ، ودُفن بجوار سيدى بلال الحبشى رضى الله عنـه . وبهذا النهار وجدوا صبياً مخنوقـاً فى نهر بردى ، وبعده ظهر أبوه أنه خواجا فى سوق السلاح . وفى يوم الأحد ثالث الحجة دخل سعد الدين باشا والى طرابلس إلى سردارية الجردة بعد ورود عزله من طرابلس . ونهار السبت كان نهار وقفة عيد الأضحى بالشام . وفى سلخ ذى الحجة نهار الجمعة تُوفى خطيب الأموى محمد سعيد أفندى بن محاسن ودفن بباب الصغير .

---

(١) مردن : فى النسخة الظاهرية .

سنة ١١٧٠

ثم دخلت سنة سبعين ومائة وألف نهار السبت[1] فى طالع يمن وفرح وسرور إن شاء الله . ولكن الغلاء واقع فى البضائع وغيرها كما أسلفنا ، فلا عود ولا إعادة .

وبهذه الأيام انفصل مصطفى باشا أخو أسعد باشا العظم من صيدا ، ووُجهت [٤٥ ب] عليه ولاية أدنة . وبتلك الأيام صار انقطاع نهر القنوات بعد عيد الزبيب[2] . وبنصف محرّم جاء من إسلامبول قاضى الشام محمد أفندى . وبهذه الأيام سمّروا خبازاً بباب الجابية .

وفى سابع وعشرين محرّم دخل جوقدار الحج الدالى على باش ومعه جماعة ، وبشّر بالخير وأن حضرة الباشا والحجاج سالمين . وفى يوم الثلاثاء جاء كتّاب حماة وحلب ، ويوم الاربعاء جاء نصرانى فى بعض مكاتيب ، وأخبر أن كتّاب الشام جرحوه العرب . وبتلك الأيام أتت السماء بمطر كأفواه القرب ، حتى ظنت الناس أن الحج قد غرق ، وكان بمنزلة الصنمين[3] . وقد تأخر دخول الحج عن ميعاده

---

(١) يوافق أولها ٢٦ سبتمبر (أيلول) ١٧٥٦ .

(٢) هو عيد الصليب عند المسيحيين ويقع فى أوائل الخريف (٢٧ أيلول أو سبتمبر) .

(٣) محلة فى طريق الحج .

نحو جمعة . ونهار الثلاثاء ثانى عشر صفر دخل الحج الشريف، وثانى يوم دخل أمير الحاج وحاكم الشام الحاج أسعد باشا العظم فى موكب الحج والمحمل الشريف . وهذه السنة الرابعة عشر كما قدمنا من سنين حججه المتواليات التى ما عُهدت لغيره . أدام الله أيام وجوده آمين .

وبهذه السنة أصلح حضرة أسعد باشا بين أهل المدينة الشريفة وبين العرب الذين حاصروها ، وذلك بعد ما أعطاهم نحو مائة كيس من المال ، فشكرته جميع الحجاج على هذا الصنيع ، جزاه الله تعالى كل خير آمين . وبهذه السنة صار أيضاً نقص فى الجمال والناس . فقد نقلوا أنه مات فى محطة آبار الغنم أكثر من ألف وسبعمائة نفس فى يوم واحـــد من اشتداد الشوب وهو الحر الشديد . وفى قناق[١] آخر سبعمائة نفس ، ماعدا الذين ماتوا شيئاً فشيئاً . وبهذه الأيام حصلت حميرة[٢] فى الأولاد فى دمشق الشام ، فمات منهم كثير .

وفى يوم الاثنين ثالث عشر ربيع الأول أهدى حضرة السلطان إلى حضرة الأمير الحاج أسعد باشا مع قبجى باشى قفطان وسيف عظيم مع فرمان عظيم فيه تفخيم كثير لحضرة الوزير المشار إليه .

وفى ليلة الجمعة توفى شيخنا الشيخ إبراهيم الجباوى السّعدى الشاغورى شيخ سجادة الطريقة السعدية ومتولى جامع الأمرى[٣]

---

(١) القناق كلمة تركية تعنى المرحلة وسير اليوم ، وهى هنا بمعنى المنزل ينزله المسافر.

(٢) مرض كالحصبة .

(٣) متولى الجامع ناظر أوقافه . وقد سبق ذكر الشيخ الجباوى والطريقة السعدية . انظر ص ٩١ وغيرها .

وقد سار للإسلامبول ، واجتمع بثلاثة سلاطين : السلطان أحمد والسلطان محمود والسلطان عثمان . وصار له خيرٌ وإنعام ، بعد ما ظهر له سرٌّ وبرهان ، وخاف كثيراً من الخلفاء فى الروم ومصر وحلب والشام ، وبلغ جاهاً عظيماً مع تواضع كلّى بحيث يجلس بالقهاوى [١٤٦] ويسلّم على الكبير والصغير ، وكان يوم موته يوماً مشهوداً ، ودُفن عند جده الشيخ حسن الجباوى رحمه الله .

وفى سلخ ربيع الأول من هذه السنة وهى سنة سبعين ومائة وألف مات قاضى الشام ودفن بباب الصغير ، وصار له مشهدٌ عظيم .

وفى سابع يوم مضى من تشرين الثانى[١] هطلت أمطار كثيرة وأعقبها برد شديد وهواء يابس ، حتى يبست المياه فى البرك والبحرات[٢] ويبست الشجر وتشقق الصخر ، واستمرت نحو بضع وعشرين يوما ، (ويبس الليمون والكباد والنارنج وغيرهم من الأشجار واستمرّت بضعا وعشرين يوما)[٣] ، حتى نجدها فى الطرقات كالصخور ، ومات كثير من الوحوش والكلاب والطيور . وبلغنى أن شخصاً كان له دجاج ، فبيوم واحد مات له اثنين وعشرين دجاجة

(١) وهو شهر نوفمبر .
(٢) جمع بحرة وتطلق فى الشام على ما نسميه (فسقية) أو نافورة .
(٣) ما بين القوسين ساقط من النسخة التيمورية .

مع المحافظة عليهم . وأما فى البرارى فلا تسل عما صنع الجليد والبرد فيهم ، فقد مات كثير من الطرش والغنم . ومات من أولاد العرب ونسائهم خلق كثير . وبلغنى أن نواعير حماة وقفت والطواحين أيضا والأسواق سكّرت . فالحاصل سقعة مهولة وزمهرية مزعجة وجليد مهول ، ما سُمع ربما من مدة سنين .

قال المؤرخ البديرى عفا الله عنه : وفى يوم الخميس منتصف ربيع الثانى من هذه السنة وجهت دمشق الشام على راغب باشا المنفصل عن مدينة حلب . وفى ليلة الأربعاء سلخ ربيع الثانى جاء خبر مع نجّاب إلى حضرة الحاج أسعد باشا والى الشام بأنه عُزل وولى حلب(١) . وثانى يوم من عزله أرسل خلف متسلمه موسى آغا وألبسه فروةً ثمينة وأقامه متسلم دمشق الشام ، وأظهر له أنه جاء الخبر من الدولة أن يكون كيخية راغب باشا ، ليتعاطى أمور الحاج والدورة ، وبأنه جاءه بشارة أنه بعد فراغ السنة من الحاج أنه والى جدة وباشا بطوخين . فتسلم حكم الشام موسى كيخية. وأخرج حضرة أسعد باشا جميع مَن فى الحبوس ، وكان فى الحبوس شىء كثير من أربع سنين وخمس سنين وعشر سنين . وأقام أسعد باشا فى دمشق يتردّد على

---

(١) وهكذا لم يمض أكثر من شهر على ورود هدايا السلطان وفرمان (التفخيم) لأسعد باشا العظم حتى عزلته الدولة ونقلته إلى حلب تمهيداً لقتله ومصادرة أمواله .

سراية الحكم إلى يوم الجمعة خامس عشر جمادى الأولى ، جاءه قبجى بفرمان الحكم فى مدينة حلب وبشارة بطوخين إلى موسى كيخية ، وأن راغب باشا المنفصل عن حلب قد نال الوزارة العظمى ،وقد توجه للإسلامبول ، وأن دمشق والشام توجهت على حسين باشا بن مكى القاطن فى مدينة غزة[١] .

وأقام الحاج أسعد [٤٦ ب] باشا إلى نهار الاثنين ، ورحل بالسلامة متوجها إلى مدينة حلب ، بعد ما أمر بإصلاح الوجاقين[٢] وأن يجعلوا فى كل مصلبة[٣] جماعة من الأنكشارية وجماعة من القبقول ، وأن يجعلوا عليهم فى كل قلق[٤] واحداً أزباشى[٥] .

وقد شاع الخبر بأن الوالى المقبل على الشام سيء الخلق ظالم غاشم . وقد خافت القبقول من الأنكشارية وجميع حواشى أسعد باشا ، وصاروا يأخذون فى القيل والقال ، وقامت بعض السفهاء من أهل الحقلة والميدان[٦] فردهم أكابرهم ، وصار فى البلد خوف

---

(١) انظر فيما سبق ص ١٨٨ .

(٢) يقصد الصلح بين القبقول والأنكشارية أى بين جند الدولة والجند المحلية .

(٣) لعلها (مصطبة) .

(٤) القلق تحريف عربى للكلمة التركية (قوللق) وهو مركز العسكر أو ما نسميه الآن نقطة البوليس .

(٥) أنباشى جاءت فى النسخة الظاهرية (ياباشى) ولعلها تحريف للكلمة التركية (ياياباشى) ومعناها رئيس الجند المشاة .

(٦) كلاهما حى فى جنوبى دمشق .

عظيم وأراجيف ، حتى عزلت القبقول .وتها ، وعزلت أصحاب الدكاكين دكاكينهم من سائر الأسواق .

وكان أول حكم موسى كيخية المتسلم[1] أن أمر جميع المنازيل التى فى الحارات من عشرين ثلاثين سنة تعمرها أهل محاتها ، فانخبطت البلد خبطة مزعجة . وفى ذلك اليوم شنق [الباشا] شابا من أولاد السويقة يقال له ابن سمرتين ، فقلت الرواجف وأمنت الناس .

وفى يوم الثلاثاء وليلة الأربعاء بعد المغرب شاع خبر حتى وصل إلى السرايا بأن أحمد القلطقجى الذى كان من رأس الزرباوات الذى هرب وعصى فى جبل الدروز كما أسلفنا ذكره[2] هاجم ليلة الأربعاء على الشام . فما أشأمها من ليلة على أهل الشام من كثرة ما دهمهم من الخوف والرعب والسهر وإخلاء البيوت والدكاكين وقد صفت المتاريس فى جميع البوابات . وكانت ليلة من هولها كليلة القيامة ، لم تذق أهل الشام بها نوماً قط ، وهم ينتظرون طلوع الفجر ، فلما لاح لهم لم يجدوا شيئا مما توهموه ، وكان الخبر كاذبا .

وفى يوم الخميس خامس جمادى الثانية مع أذان الظهر كان دخول حسين باشا ابن مكى إلى دمشق الشام ، والمنفصل عن مدينة

---

(١) هذا يؤيد عدم صحة ما ذكره البديرى فى حوادث سنة ١١٦٤ (١٧٥١) عن وفاة موسى كيخية .

(٢) انظر فيما سبق ص ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ١١٦ ، ١٧٧ .

غزة التي هي وطنه[١] . ودخل بموكب عظيم حافل بالأفندية وأعيان الشام وبالانكشارية كلها خيالة ، والقبقول كلها مشاة في العدد الكاملة والأسلحة المزخرفة والزينة الشاملة ، ووقف العامة والخلق تدعو له ، وتصيح وتستغيث من جور أعيان الشام[٢] والغلاء . وثاني يوم جاءت الأفندية والأعيان للسرايا لأجـــل السلام على الباشا ، فوقفت الناس والعامة في طريقهم ، فلما مروا عليهم ليدخلوا السرايا قامت العامة بالصراخ والضجيج ، وصاحوا [١٤٧] عليهم وقالوا : ارجعوا لا بارك الله فيكم ، أنتم منافقون وتعينوا الحكام على ظلم الفقراء والمساكين ، وأكثروا من سبهم وشتمهم ، ورجموهم بالأحجار وصارت حالة مزعجة . ففتح الباشا باب العدل والتفتيش على الرعية ، حتى صار رطل الخبز بثلاث مصاري . ثم اشتغل بالظلم كأسلافه ، فرجعت الأسعار إلى حالها الأول : كرطل الخبز بخمسة وبستة مصاري ، حتى جاءت سقعة وهي شدة برد مؤلمة ، فلم تبق ثمرة في شهر آذار[٣] إلا أحرقتها . وفي عاشر رجب حصلت سقعة ماسمع

---

(١) انظر فيما سبق ص ١٨٨ — ١٩٥ ، وقد كناه الأستاذ محمد كرد علي بالفخر الغزي ، وقال إنه لم يكن شرهاً في جمع المال ويميل إلى العدل وحسن الرياسة ، غير أنه كما قال المرادي : كان بطيء الحركة عن شهامة الوزراء ، فبسبب ذلك حصل من اليرلية (الجند الوطني) والقبوقول (الحرس) وغيرهما من طوائف الأكراد والعسكر فتن وحروب ، وحصل للأعيان والرؤساء الضيق العظيم وقامت عليهم الناس (خطط الشام ج ٢ ص ٢٦٩)

(٢) يقصد بأعيان الشام رؤساء الجند الأنكشارية بها .

(٣) شهر آذار هو مارس .

بنظيرها ، فأتلفت ما بقى إن كان بقى شىء من الثمار .

وفى سابع عشر رجب نهار الأربعاء توفى الشيخ الجليل العالم الفرضى الشيخ عبد الله البصروى الشافعى [1] ، علامة زمانه فى كل فن خصوصا فى علم الفرايض ، ودفن بتربة الشيخ أرسلان رحمه الله. وبهذا الشهر الشريف أيضا قتل رجل فى الميدان ،ووجدوا ثلاثة أشخاص مذبوحين فى تربة البرامكة . وبعشرين من رجب هاجمت المغاربة على الباشا ،ثم قوّسوا على الدوام ، فقتلوا مقدار عشرة رجال وحــــرقوا أيضا محلات . وبهذه الأيام وجدوا امرأتان مذبوحتان [كذا] فى تلة باب الصغير . وبهذا الشهر أيضا وقعت فتنة بين المغاربة اللوائد الأكراد ، وقتل من الفريقين مقدار خمسة عشر رجلا وسكرت الشام ، ثم انقضت على الصلح . وفى السابع والعشرين من رجب شنق حسين باشا والى الشام رجلا من الميدان اتهم بالحرام، وكان سابقاً قد قتل أمه ذبحا .

قال المؤرخ البديرى رحمه الله تعالى : وبهذه الأيام جاء خبر بأن الحاج أسعد باشا بن العظم والى حلب قد جاءه فرمان بأن يسير

---

(١) وصفه المرادى (ج ٣ ص ٨٦ — ٨٧) بأنه كان مؤرخاً وله باع فى كل علم وخاصة الفرائض حتى سمى بالفرضى ، وقال إنه كانت له مكتبة حافلة ، وألف تاريخاً لأبناء عصره أخفاه ورثته بعد وفاته .

إلى مصر واليا ، فعصت به أهل حلب ، وقالوا لا نريد غيره ،وكاتبوا الدولة العلية بذلك . ثم بعد أيام جاء مقرَّر حلب لأسعد باشا بن العظم ، ولأخيه سعد الدين باشا منصب مرعش ، ولأخيه مصطفى باشا منصب الموصل ، فذهب كل واحد لمنصبه ، وأرسل مصطفى باشا حريمه وأولاده إلى الشام .

وفى أول شعبان خرج حضرة حسين باشا والى الشام إلى الدورة، وأقام متسلما مكانه حسين آغا ألاى بيك السباهية ، فعدل ولم يظلم ولم يتعدَّ على أحد . وقبل خروج [٤٧ ب] الباشا أمر الوجاقين بالصلح وترك الفساد والعناد ، وسلّمهم البلاد والعباد ، وأوقف مصطفى آغا الزعفرنجى اختيار وكبير القبقول تفكجى باشى بباب السرايا ، بعد ما ضمن على نفسه إصلاح البلد .

وقد دخل رمضان نهار الخميس ، ودخل معه الغلاء الأكبر فى الشام فى جميع الأصناف ، فوصلت غرارة القمح إلى الخمسين غرش ، ورطل الخبز من سبع مصارى إلى اثنى عشر مصرية ، بعدما كان بثلاثة مصارى رطل أعلا خبز ، ورطل الأرز بأربعة عشر مصرية ، والدبس كذلك والبصل أيضا ، ومد العدس وكذلك الحمص والماش [كذا] واللوبيا والبرغل بثلاثين مصرية ، ومد الشعير باثنى عشر مصرية ، وأوقية الثوم بمصريتين . والحاصل كل شىء غالى مع قلة الأسباب وقلة الحركة .

وفى ليلة الاثنين ثانى عشر رمضان صارت فتنة عظيمة بين أوجاق الانكشارية ووجاق القبقول ، لم تعهد منذ زمان ، وساعدت القبقول الدالاتية والأكراد والمواصلة[1] . وحاصرت كل حارة جماعة ، وكانت النصرة الأنكشارية[2] ، بعد ما ضربوا عليهم المدافع من القلعة يومين وليلة ، وقتل جماعة من العامة وقليل من الأنكشارية . لكن قتل من القبقول وأتباعهم خلق كثير ، بعد ما حاصروا حارة باب السريجة ، وملكوها وخرّبوا بها بعض بيوت ودكاكين ، وحاصروا أيضا حارة الشاغور ، حتى إنهم أشرفوا على أخذها ، جاء النقيب حمزة أفندى وبعض مشايخ أصلحوا بينهم . ثم بعد اليوم الثالث اختلفوا . وفى عشرين من رمضان جاء حسين باشا والى الشام من الدورة فلم يحرك ساكنا . وكان عيد الفطر نهار الأربعاء . وفى العشر الأول من شوال قدم مصطفى آغا بن على أفندى الدفترى من إسلامبول برتبة أغا

---

(١) جند من الموصل .

(٢) قال المرادى فى ترجمته لحسين باشا مكى (سلك الدرر ج ٢ ص ٦٠ – ٦٢) إنه بدخول هذا الوزير حصل للجند البرلية أى الأنكشارية المحلية « بقدومه كمال الحظ الوفير والانبساط ، وظهر ابتداء شوكتهم من ذلك العهد وقوى ، وكان ابتداء ظهورهم ثانياً وتطاولهم » .

وقد أرجع المرادى ذلك إلى أن هذا الوزير « كان بطىء الحركة عن شهامة الوزارة » . على أنا نلاحظ أن الأنكشارية كان قد قوى أمرهم فى عهد أسعد باشا العظم حين رأى حسن بلائهم فى قتال الدروز فقرّبهم وأحسن إلى رؤسائهم .

على الانكشارية ، ودخل فى عراضة - أى مركب - لم تُعهد فى الدولة الشامية .

وفى تاسع عشر شهر شوال توجه حسين باشا بن مكى والى الشام أميراً على الحاج الشريف ، وذلك بعد ما مشت معه جميع الانكشارية والقبقول . وكان قبل خروجه للحج جمع أغوات الفريقين ، وأصلح بينهما ، وكتب حجّة عليهم بحضور القاضى والمفتى وأعيان البلدة ، مضمونها أن كل من تعدَّى يكون عنده مائة كيس (١٤٨) لمطبخ السلطان ودمه مهدور . فسكنت البلدة وصارت كقدح اللبن ، ولم يحصل أدنى مكدر . وبقيت الراحة إلى يوم الأحد ثالث عشر ذى الحجة ، جاء كردى اسمه ولى ، وكان من جماعة أسعد باشا بن المظم والى مدينة حلب حالا . وكان هذا الرجل الكردى له فى الشام أسبقية ظلم وعدوان على أهل الشام ، فقامت عليه الانكشارية والعوامّ وقالوا اقتلوه ، فهرب إلى القلعة واحتمى بالقبقول لحموه . وقبل خروج الباشا قامت أهل الشام بصوت واحد إننا لا نريد غريباً فى بلدتنا ، فأخرج لهم الباشا بيردى[1] بذلك بأن لا يبقى فى الشام غريب كيت[2] . فخرج بعد خروج الباشا أناس وبقيت أناس . فلما قدم هذا الرجل تضرّرت منه العامة والأعيان ، وأرسلوا له خبراً أن يرحل

(١) يقصد بيورولدى أى أمر عال .

(٢) وقد تكون هذه الكلمة (كيت) بالتركية ومعناها اذهب أو انصرف .

بنفسه ويحقن دمه . فأبى الخروج من الشام ، وقد طمع بكونه احتمى بالقلعة عند القبقول . فحالاً سكرت البلد وتجمعت أغوات الانكشارية وتبعتهم العامة ، وقاموا على قدم وساق ، فاجتمعت العنتابية[1] والأكراد والدالاتية ، فنهضت القبقول وقام معها أهل العمارة ، وأغاروا على الدرويشية[2] ، وتقاوسوا مع الأنكشارية إلى أن أقبل الليل ، فهجموا على حواصل الأنكشارية الملآنة أخشاب وأحرقوها ، وكانت تساوى عدة أكياس مال ، فقامت الانكشارية على أهل العمارة وشردت أهلها ونساءها وأولادها إلى جامع الأموى ، ثم وضعت بها وبأسواقها[3] النار ، حتى صارت ساحة سماوية . واشتد الأمر على أهل العمارة من ظلم وعدوان الانكشارية ، وقد أعانهم بالحمية الجاهلية أولاد الحقلة من الميدان ومعهم بعض رجال من الدروز ، وفتحوا أبواب المدينة ، ولم يُعهد ذلك قبل الآن ، وحضروا القبقول ورجعوا كارّين على الموصلية والبغادة والدالاتية وحصروهم ، ووقع القتل بين الطائفتين .

وفى ليلة رابع عشر من ذى الحجة خسف القمر خسفا مهولا . وفى اثنين وعشرين من ذى الحجة حصلت زلزلة فى دمشق لم تُعهد

(١) نسبة إلى مدينة عينتاب .

(٢) لاحظ تعصب أحياء المدينة بعضها على بعض واستعانة كل منها بفريق من الأجناد .

(٣) وبأولادها : فى النسخة الظاهرية ، ولا يستقيم المعنى .

من مدة أعوام ، واستمرت عدة أيام بالليل والنهار ، وذلك بعد ما كُسفت الشمس ، حتى رؤيت النجوم نهارا ، ولا كانت هذه الأمة تعتبر اعتبارا .

ودامت هذه الفتنة [٤٨ ب] أياماً بين صلح وقيل وقال ، حتى صار الديوان عند الأغرات وأكابر الشام ، وبُت القرار على إخراج غريب كيت[1] من الشام ، وأن يخرج ولى الذى كان سبب الفتنة . فأخرجوهم [كذا] الأغوات، ومعهم على أفندى المرادى تطيبياً لخاطر أهل البلد ، ولم يزالوا خارجين بهم إلى خارج البلد ، فرجعت الأغوات والأفندى المرادى وبقى الوجل على حاله . ثم صارت أهل كل حارة تسهر كل ليلة . وبقى الأمر على ذلك إلى أن وصل الخبر إلى الشام بأن الذين خرجوا نهبوا القرايا وقتلوا النفوس ، وهتكوا الحريم . فأرسلت الحكومة أوراقاً إلى أهل البرّ والقرايا أن يقتلوهم أو يطردوهم ، فتعصّبوا عليهم وطردوهم ، ولكن بعد ما قتلوا ونهبوا . ثم رأوا القبجى فى طريقهم فشلحوه[2] ، وقتلوا بعض جماعته . وبقيت أهل الشام بين خوف وأهوال ، إلى أن كان يوم الاثنين سابع والعشرين من ذى الحجة وصل خبر إلى الشام بأن موسى باشا

(١) انظر فيما سبق ص ٢٠١ حاشية رقم (٢)

(٢) أى نهبوه .

باشة الجردة[١] لما وصل إلى القطرانة خرجت عليه العرب شلحوه ، ونهبوا الجردة وكل ما فيها ، حتى شلحوه لباسه وخاتمه من أصبعه ، وأنزلوه من تخته ، وركبوا مكانه فى التخت ، وأخذوا طبوله وأطواخه ومدافعه. وكان كبيرهم يقال له قعدان الفايز[٢]. ثم تفرقت الجماعة الذين كانوا فى الجردة ، فرجعت منهم أناس إلى الشام ، ومنهم ناس انقطعوا فى حوران ، ومنهم ناس هربوا إلى غزة ، وناس إلى القدس ، وناس إلى معان مع ابن موسى باشا ، لأنها قريبة من الموضع الذى نهبت فيه الجردة . وأما الباشا فإنه رجع الى قرية داعل وأقام بها مدة أيام . فأرسلوا له تختا ليحملوه به ، فوجدوه قد مات ، فحملوه وجاؤا به إلى الشام . وكان دخوله على البلد فى أول الليل ، وثانى يوم دفنوه فى تربة سيدى خمار رضى الله عنه .

سنة ١١٧١

ثم دخلت سنة إحدى وسبعين ومائة وألف[٣] ، ونحن على هذا

(١) كان قبل ذلك كتخدا لأسعد باشا العظم ومتسلما له فى دمشق ، ثم رقى إلى منصب باشوية صيدا ، واختير هذا العام سرداراً على الجردة. وقال عنه ميخائيل الدمشقى بأنه كان ظالماً ، وأصله من معرة النعمان ولذلك غلب عليه لقب المعراوى .

وقد سبق للبديرى أن ذكر وفاة موسى كيخية فى حوادث سنة ١١٦٤ ثم عاد فذكر المناصب الأخرى التى تولاها حتى وفاته فى سنة ١١٧٠ .

(٢) شيخ عرب صخر (انظر فيما سبق ص ٢٢)

(٣) ويوافق أولها ١٥ سبتمبر (أيلول) ١٧٥٧ .

الحال ، نسأله تعالى أن يحوّل حالنا الى أحسن حال .

وفى هذا الشهر المحرم الحرام توفى العالم العلامة خاتمة المحدثين وبقية السلف الصالحين الشيخ صالح الجنينى[1] المحدث الكبير تحت قبة النسر فى الجامع الأموى ، وصار له مشهد عظيم ، ودفن بباب الصغير ، رحمه الله تعالى .

وفى تلك الأيام خرجت جردة ثانية دون الجردة الأولى . وفى سابع [٤٩ ا] وعشرين محرم دخل جوقدار حسين باشا والى الشام وأمير الحاج ، ومعه ثلاث هجانة مردفين ، ومعهم أخو ابن مظيان شيخ عرب الحجاز[2] ، فتباشرت أهل الشام وزينوا الأسواق بالقناديل . فقامت القبقول وخرجوا وقوّسوا على الرعية ، وصارت هزة قوية ، وبقيت الفتنة فى البلد بين الانكشارية والقبقول والأشراف ، فقتل القبقول من الأشراف نحو ثلاثين رجلا وقوسوا على جامع الأموى ، وقتلوا الشيخ عمر كبب مؤذن الجامع ، وكان نازلاً من أذان الظهر ، وقتل فيه بعض أولاد ، وصار الهرج فى أسواق

---

(١) أشاد المرادى بعلوّ كعبه فى فقه أبى حنيفة حتى « انتهى إليه ور[illegible] فى زمانه » وانتفع به خلق كثير . وذكر المرادى وفاته فى ذى القعدة ١١٧٠ [illegible] البديرى وفاته حتى المحرم من السنة التالية (المرادى ج ٢ ص ٢٠٨ — ٢٠٩) .

(٢) مرّ بنا (ص ٧) مقتل ابن مظيان (ويكتب فى النسخة التيمورية ابن مضيان) « شيخ عرب بين الحرمين » فى القتال الذى وقع بينهم وبين والى الشام فى سنة ١١٥٤ هـ (١٧٤١ — ٤٢) .

المدينة مدة أيام ، ثم دخلت الأغوات والأفندية بينهم بالصلح ، فأبوا ، فقالوا لهم : ارفعوا القتال واصبروا حتى يأتى حسين باشا من الحاج ، ويفصل [فى] هذه الأحكام ، فرفعوا القتال .

وبقيت القبقول فى القلعة لا تحول ولا تزول[1] ، إلى أن كان يوم الاثنين سابع عشر صفر الخير ، والناس مزعوجة من تأخير مجىء الحج ولم تدر ما السبب ، جاء خبر إلى الشام بأن الحج قد شلحه العرب ونهبوه ، والعرب سلبت النساء والرجال أموالهم وحوائجهم. فضجت العالم وتباكت الخلق وأظلمت الشام . وبلغ الناس بأنه جاء إلى المتسلم ست مكاتيب أن يخرج إلى الحاج نجدة فلم يظهرها ، فقامت العامة وهجموا على المتسلم بالسرايا ورجموه بالأحجار ، فاجتمعت الموالى والأغوات ، ونادوا بإخراج دواب من البلد وأن يخرجوا[2] حوائج وثياب مفصلة ومخيطة ونعال وزرابيل[3] ، وأن يخرج رجال لملاقاة الحاج . فخرج خلق كثير ، وكان خروجهم يوم الجمعة فى الحادى والعشرين من صفر الخـــير ، وذلك بعد ما كتبوا عرضاً للدولة يعلموهم بهذا الحال ، وأرسلوا إلى حمص يطلبون حسن باشا بن الكبرلى لأجل أن يحافظ [على] الشام .

---

(١) عبّر عن ذلك القارى (ص ٨١) بقوله « ووجاق القول مقيمون وهم ينتظرون الوزير الذى يأتى حق يخرجوا ويصير لهم الفرج » .

(٢) فى النسخة التيمورية : يجمعوا .

(٣) لعلها : سرابيل .

وفى يوم الخميس خامس وعشرين من صفر الخير أقبلت بعض أنكشارية الشام من جهة الحج ، ومعهم حجاج مركّبين كل اثنين ثلاثة على دابة ، وهم فى آخر درجة العدم ، والمنادى معهم معه راية بيضاء ينادى هذه راية الإنكشارية ، فضجّت الناس بالبكاء والعويل ، وحسبنا الله ونعم الوكيل . وأخبروا أن خلفهم خلق كثير من الحجاج ، ومعهم النساء والبنات مع الملكة[1] حفايا عرايا . وبعد يومين أقبلت شرابجة[2] الانكشارية من المزيريب [٤٩ ب] ومعهم المشطجى[3] والقفطجى[4] الجميع مشلحين . وفى ذلك اليوم رجعت الانكشارية ومن بقى من الملاقية[5] ومعهم الاغوات ومتسلم حسين آغا ألاى بيك ، وأخبروا عن أحوال وأهوال التى حصلت للحجاج من النساء والرجال من شركفار العرب ولا شك ، حيث أن هذه الأفعال التى فعلت فى الحجاج لا يفعلها عباد النيران : لأنهم أخبروا أنهم يشلحوا الرجل ويفتشوا تحت إبطيه ودبره وفمه

(١) كانت أخت السلطان العثمانى ممن حج فى تلك السنة .

(٢) جمع چربچى : أى أعيان الإنكشارية .

(٣) قال Tresse (ص ٧٣) إن الـ Mostaji (مزدچى) هو دليل أمين الصرة (صرة أمينى) وكان يختار من أبناء دمشق ويكون دليلا لأمين الصرة وحجاج الأناضول حتى يصلوا إلى دمشق ، وفى مكان آخر (ص ٢٥٠) ذكر Tresse نقلا عن Corancez أن الموظف الذى كان يحمل أنباء سلامة الحاج إلى السلطان كان يدعى (Le Muzdegy baschi) أو حامل البشرى .

(٤) انظر فيما سبق ص ١٣٧ .

(٥) أى الذين خرجوا لملاقاة الحاج .

وتحت خصيتيه ، وإن وجدوا الرجل كبيراً بطنه أوله قرّ أى قيلة شقوا بطنه وبقروا قرّه أى قيلته ، ويدخلون أيديهم فى دبر الرجال وفى فروج النساء ، وقد كانت المرأة تضع الطين على قبلها ودبرها ستراً لعورتها فيكشفونه . وحاصله صدرت من العرب أمور ماسمعت من قديم الزمان ولا من عبّاد الأوثان والصلبان . ثم ما سلم من التشليح إلا الذين هربوا أمام الحج ، وأن الباشا أمر من حوله بنهب خزنته فنهبوها ، فناس سلموا وناس قتلوا ، ومنهم من تشلح مرارا .

ثم أقام الحجاج أربعة أيام جوعا وعطشا لاماء ولا زاداً ، ومنهم من مات جوعاً وعطشاً وبرداً وحرّا ، وذلك بعد ما شرب بعضهم بول بعض . وماكفى جور العربان ، بل زاد عليهم جور أهل معان ، غضب الله عليهم ولعنهم وأعدّ لهم عذاب النيران .

وفى تاسع ربيع الأول جاء الخبر بأن حسين باشا والى الشام وأمير الحاج هو فى مدينة غزة ، ويريد من الشام بغال وتفجكية ورجالا ، فأبوا أن يرسلوا له شيئا من ذلك ، بل أرسلوا له بأن يأتى إلى منصبه ، لأن قبجى التقرير[1] عندنا ، وافعل ما ترى فيه المصلحة .

---

(١) أى مندوب السلطان الذى يحمل فرمان التقرير بالولاية .

وقبل ذلك بأيام كان قَدِم أحمد بشه بن القلطقجي كبير زرباوات الشام ، وكان هارباً له أربعة عشر داما ، فجاء مرة في غيبة أسعد باشا في الحج وفعل ما فعل كما قدمنا . وجاء مرة ثانية في أوّل حكم حسين باشا المذكور ، فأكرمه وأعطاه ، وخرج معه إلى المزيريب ، ومن هناك غاب ، ورجع هذه المرة الثالثة لما وقعت الفتنة في الشام ، ومن تلك الأعمال نهاهم فلم تفد شيئا كما تقدم .

وفي يوم الجمعة ثالث عشر ربيع الأول وصل خبر إلى دمشق الشام أن عمر المحاميد شيخ حوران(١) وجد المحمـــل والصنجق(٢) عند العرب ، وقد أرضاهم حتى نكّهما منهم ، ووجد [١٥٠] المحملجي وابن القبق دار(٣) ورأيت خمس رجال عليهم المذلة والانكسار .

وفي يوم الثلاثاء سادس [illegible] ربيع الأول وصل المحمل ودخل إلى الشام ، [illegible] محمول [illegible] سروه بثوبه الأخضر

---

(١) هو الشيخ ظاهر العمر

(٢) قال الصباغ (ص ٧٨) إنه « العلم النبوى الذى يقال له العقاب » وكانوا يحفظونه في دمشق ويرفعونه أمام قافلة الحاج الشامى ، أو ينشرونه إذا دعا داعى الجهاد .

(٣) لم نجد تفسيراً لهذه الكلمة إلا أن تكون صحتها (القفادار) وهو موظف كان يرافق قافلة الحج ، وعليه أن يقتفى أثر الحجيج ، وقيل لى إن أسرة شهيرة بدمشق تحمل هذا الاسم محرفا (الأقادار) .

التحتانى ، ومعه محمد بشه السقباوى وبعض فرسان دروز وبعض عربان ، و ذكروا أنهم فكّوه من العرب بمائة وسبعين قرشاً[١] .

وقد جاء فى منتصف ربيع تمّر أخبر بوفاة السلطان عثمان ، ولم يأت بالخطبة لمن هى ، حتى خطبت خطباء الشام بلا اسم سلطان جمعتين ، إلى أن كان يوم الاثنين غرة ربيع الثانى جاء قبجى بخطبة اسم السلطان مصطفى خان[٢] . أيّده الله وأيّد دولة بنى عثمان مدى الدوران .

ثم صارت الحجاج تأتى زمراً زمراً ، ثم جاءت البلطجية ومعهم قاضى المدينة وبعض نساء ، وقد عُدت النساء الذين كانوا [كذا] فى تلك السنة فبلغن خمسمائة امرأة ، ما بان لهم أثر مع المحكمة أخت السلطان[٣] .

وفى خامس ربيع الثانى خرجت القبقول من القلعة وتوّسوا على الإنكشارية ، وحصلت فتنة قوية ، ثم أصلح بينهم القبجى والموالى والأغوات ، وبطل الحرب . وفى خامس والعشرين من ربيع الثانى توفى قاضى المدينة الذى جاء مع الحجاج ، وصارت

---

(١) قال ميخائيل الدمشقى (ص ٤٦) إنهم « استفكوه بسبعمائة ذهب جنزيرلى ، وجابوه مع السنجق محمل إلى المحكمة بدمشق » .

(٢) هو السلطان مصطفى الثالث حكم من سنة ١٧٥٧ إلى سنة ١٧٧٣ .

(٣) ذكر القارى (ص ٨١) أنها « ماتت من العرى » .

تموت الحجاج ناساً بعد ناس ، حتى مات كثير ممن كان مع الجردة ، لأن الذى جرى على الحاج وعلى الجردة فى هذا العام شىء ما سمع ، مما تقشعر منه الأبدان . فإنا لله وإنا إليه راجعون[١] . وبقيت دمشق بلا حاكم إلى آخر ربيع الثانى[٢] إلى أن تحقق الخبر بعد تردد

---

(١) ذكرت عدة روايات عن المسئولية فى حادث نهب الحاج والجردة ، فصاحب سيرة ظاهر العمر (الصباغ ص ٧٨ — ٨٠) ذكر أن الشيخ ظاهر وضع المسئولية على أمير الحاج حسين باشا ، لأنه طمع فى المال المخصص لعوائد العربان ، ولكن الباشا اتهم الشيخ بأنه هو الذى أغرى العربان بما فعلوا وشكاه إلى الدولة ، ولكن التحقيق أثبت كذب الباشا وصدق الشيخ الذى كافأته الدولة بولاية صيدا ، ولكنها فى الوقت نفسه أوعزت سراً إلى والى الشام بأن يسعى للقضاء عليه . أما الخورى قسطنطين الباشا المخلصى فى تعليقاته على الكتاب السابق (الصباغ ص ٧٦) فيذكر أن حسين باشا اتهم أسعد باشا سلفه فى ولاية الشام بإغراء العربان حنقاً منه لنقله من منصبه ، ولما تحققت الدولة — فى رواية الخورى — صدق هذا الاتهام أمرت بقتل أسعد باشا ومصادرة أمواله .

ولكن القارى (صاحب وزراء دمشق . نشرة المنجد ص ٨٠) يقول إن حسين باشا أرسل إلى العرب « بأن يأخذوا من المال قدر ما يريدون ويرحلوا عن الحاج فأبوا ذلك » .

أما الخورى ميخائيل بريك الدمشقى صاحب حوادث الشام ولبنان (ص ٤٦) فيتهم حسين باشا بالجهل وسوء التدبير ، « لأن الحاج لما وصلوا إلى قلعة تبوك ما قدروا يفوتوا ، لأنه بلغهم أن العرب المذكورين رابطين فى الطريق ، فقعدوا فى تبوك اثنين وعشرين يوما ، وما عرف الباشا يرضى خاطر العرب ويفوت ، بل بجهله حمل ومشى ، ولما قرب إلى ذات حج كبسه العرب ، وقتل عالم لا يعدّ من العسكر والحجاج » . وقد وصف المرادى حسين باشا بأنه « كان بطىء الحركة عن شهامة الوزارة » .

(٢) عقب كارثة الحاج نقل حسين باشا مكى والى دمشق إلى إيالة مرعش ، فلم يمكث بها قليلا حتى أعيد إلى غزة ، حيث كان حاكما قبل توليته على دمشق ، ولما =

الناس فى أمر حاكم الشام بتوجيه ولاية الشام لحضرة الوزير الكبير الحاج عبد الله باشا الشتجى[١]. وكان دخوله مدينة دمشق الشام ضحوة نهار الأحد ثامن وعشرين ربيع الثانى . فخرجت لملاقاته وجوه الشام وأعيانها ، ودخل فى موكب لم يعهد لغيره ، ودخل معه عسكر جرّار ، فكان معه أربعين [كذا] بيرقاً من الدالاتية وخمسين بيرقاً من اللاوند وعشرين بيرقاً من الأرنؤط[٢] . ثم إنه ثانى يوم عمل ديواناً

= هاجم عرب بنى صخر غزة خرج لقتالهم ، ولكنه هزم وقُتل سنة ١١٩٧هـ (١٧٨٣م) وصادرت الدولة أمواله (انظر ترجمته فى سلك الدرر للمرادى ج ٢ ص ٦٠ — ٦٢)

(١) ذكره القارى (ص ٨١) باسم عبدى باشا الجيته جى ووصفه بأنه « كان رجلا ذا هيبة ووقار وكان عالما فاضلا أديباً » ، والچيته چى بالتركية تعنى الغازى . وقد ترجم له المرادى (ج ١ ص ٩٨ ، ج ٣ ص ٨١ — ٨٢) وأشار إلى كتاب ألفه باسم « أنهار الجنان فى آى القرآن » . ولما تولى باشوية دمشق كان يكرم الأدباء والشعراء . وقد أطلعت فى المكتبة العامة بفينا على مخطوط (رقم١١٩٦ .Mxt 195) عنوانه « ترويح القلب الشجى فى مآثر عبد الله باشا الچته چى » تأليف رجل كان فى خدمته اسمه عمر بن محمد بن ابراهيم الوكيل . وقد ترجم لعبد الله باشا ودعاه « رب السيف والقلم » ، وذكر أسماء بعض مؤلفاته : أنهار الجنان فى وجدان آيات القرآن » ورسالة فى العروض وأخرى فى المعراج وذكر له شعراً : وأشاد بشجاعته فى قتال نادر شاه وحصار بغداد ، وتتبع مناصب الولايات التى تولاها فى أدرنة ووان وديار بكر وطرابزون وسيواس وطرابلس وحلب ودمشق وقتاله عرب بنى صخر وشيخهم قعدان وبسطه الأمن فى دمشق وعنايته بإصلاح طريق الحج وتأمينه .

وذكر الغزى (نهر الذهب ج ٣ ص ٣٠١) أنه ولى حلب فى المحرم ١١٧٢ ، وكان قبل ذلك قد ولى الصدارة العظمى ، وهو ابن ابراهيم الحسينى الجرمكى نسبة إلى جرمك ، بليدة من أعمال ديار بكر .

(٢) قدّر القارى (ص ٨١) القوة العسكرية التى دخلت دمشق مع الباشا بنحو خمسة آلاف جندى ، أرسلتهم الدولة لما علمت بالفتنة التى وقعت بين الانكشارية والقبقول ، فسلط الباشا جنده على الانكشارية حتى ولوا الأدبار . وأشار المرادى =

ولبّس المفتى والقاضى ونقيب الأشراف والسيد على أفندى المرادى، وأرسل الباشا يطلب جماعة من الإنكشارية فلم يجيبوا ، فأرسل ينادى بأن أهل العرض[1] ترحل من بين الانكشارية ، فلم تر إلا نقل أمتعة وإخلاء دور ودكاكين وأول[2] دخول الباشا إلى الشام [٥٠ ب] اجتمعت الانكشارية فبلغوا نحو عشرين ألفاً وأكثر ، وأظهروا الشجاعة وقلة الخوف منه ، وقالوا : نحن لا نحسب حسابه ، ولو كان عسكره أضعافنا[3] .

= إلى أن عبد الله باشا « جاء بعسكر غزير إلى دمشق مختلف الأجناس » . وقال ميخائيل الدمشقى [ص ٤٩] إنه « كان معه عساكر كثيرة مثل جراد زحاف أشكال وألوان، فخافت دمشق أكثر من الأول، ورمى الله المخافة فى قلوب الانكشارية وجميع البلد » .

(١) جاء ذكر « العرض » فى كتاب البديرى مرتين : الأولى فى حوادث سنة ١١٥٦ كإحدى المظالم التى أبطلها سليمان باشا العظم فى دمشق ، وهى [الشاشية والمشيخة والعرض] وقد وصفها بأنها «أموال تفرض على الحرف والصنائع والحارات فى الشام مرة أو مرتين فى السنة »، والمرة الثانية فى هذا الموضع، حين قال إن عبدالله باشا الشتجى أمر « بأن ينادى بأن أهل العرض ترحل من بين الانكشارية » . وأرجح أن أهل العرض هنا هم أصحاف الحرف ، وقد أمر الباشا بإخراجهم من الانكشارية. يؤيد هذا ما جاء فى فرمان السلطان محمود الثانى بإلغاء فرق الانكشارية سنة ١٨٢١ وترجمه إلى العربية الغزى فى تاريخه لحلب ج ٣ ص ٣٤٩ : « وعلى أهل العرض بعد هذا أن يفتحوا دكاكينهم ويكونوا فى أشغالهم ومكاسبهم » .

(٢) وقبل : فى النسخة التيمورية .

(٣) هذه رواية البديرى ، أما القارى (ص٨١) فيقول إنه لما وصل الوزير بهذه الجموع الضخمة من الجند « وقع الرعب فى قلوب الانكشارية » .

ولما كانت ليلة الأربعاء اجتمعت من الإنكشارية جماعة فى حارة السويقة ، وصاروا يقوّسوا [كذا] ويفزعوا الناس ، إلى أن سكّرت أهل الشام البوابات ، ولما ظهر النهار هجموا إلى باب الجابية وقوّسوا إلى ناحية باب السرايا . فبلغ أمرهم حضرة الباشا والى الشام ، فاغتاظ غيظاً شديدا . وجاءت الموالى وعمل ديوانا . ثم أرسل الباشا يطلب منهم الأشقياء الخارجين عن الطاعة ، وصاحب العرض يبقى بحاله . فتغلظت أكباد الإنكشارية وتقوّوا ، وظنوا أنهم هم المنصورون . ثم صاح الباشا فى جنده وركب فى نفسه ، وطلب جهة الميدان فلم يقف بين يديه أحد ، وهجم هو وعسكره عليهم ، فلم يثبت منهم أحد . فلم يزل يضرب هو وعسكره بالسيف إلى أن وصلوا إلى خارج باب الله ، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، والذى ماأرادوا قتـله أخذوه ووضعوه فى الجنزير[١] . ونهبت العساكر الميدان ، ولم يتركوا كبيرا أو صغيراً إلا قتيلا أو أسيراً . ولم يتركوا بيتاً ولا دكاناً ولا امرأة ولا طفلا الا استعملوا النهب والسبى وهتك الأعراض من سلب النساء الحلىّ

(١) ذكر الأمير حيدر مؤرخ الشهابيين (ج١ص٤٥) القتال بين قوات الباشا والانكشارية ، ولكنه نوّه بانتصار الانكشارية ، وعلل ذلك « بمعونة » الدروز لهم . وهذا غير صحيح ، فهو يتنافى مع ما ذكره الأمير حيدر نفسه فى عبارة تالية عن خروج الانكشارية من الشام ، فضلا عن أن البديرى أصدق رواية ، لأنه شهد حوادث تلك الأيام ودوّنها . وأيدّ القارى (ص ٨١) رواية البديرى عن كسرة الانكشارية ، وزاد على ذلك أن عبد الله باشا [أو عبدى باشا] فتح قلعة الكرك ، وأرسل إليها الإنكشارية حتى يبعدهم عن دمشق .

وسلب البنات الأبكار ، وغير ذلك مما يعمى الأبصار ، وتمنّوا الموت الدرّار ، ولم يروا هذه الفظائع المهولة الكبار . وانتكبت أهل الشام نكبة فى ذلك العام ما عهدت من أيام التيمور ، ولله عاقبة الأمور .

وثانى يوم الخميس قامت جماعة الباشا إلى النهب ، فمنعهم وأمر بجمع المسلوبات من العساكر وغيرهم ، وأن يوضعوا فى بعض الجوامع . وأمر مناديا ينادى كل من له مالٌ منهوب فليأت وليعلمه ويأخذه ، فأخذوا البعض وذهب الأكثر . وأما أتباع الباشا فإنهم صاروا كل من رأوه يقتلوه ويقطعوا رأسه ، ويتركوه فى الأسواق والأزقة والبيوت وقد ضبطوا الدور التى نهبت ، فخرجت نحو أربعة وعشرين ألف دار ، ومن الدكاكين أكثر من هذا المقدار ، وأعظم من ذلك أن زاوية بيت الشيخ سعد الدين الجباوى التى فى الميدان وضعوا بها الأمتعة الثمينة ، ثم تفقدوها بعد ذلك فما وجدوا بها شيئا أبدا ، [١٥١] وصارت العساكر تلحق الانكشارية للقرايا والضيع والبرارى ، فتقتل وتأسر حتى الأولاد والنساء ، وكثر الجور فى البلاد ، وخافت العباد وكثر الفساد ، وجمعوا رؤسا كثيرة من أشراف وعامة ، وأرسلوها إلى الدولة (١) .

---

(١) لا يقل عن ذلك ما وصف به ميخائيل الدمشقى نكبة الشام وأهلها على أيدى جنود الباشا (ص ٥٠ — ٥٣) ، قال إن الوزير نادى بالأمان ثلاثة أيام إلى أن أمن الناس وظهروا « كمن هم خارجين من القبور موتى عراة حفاة وكل شىء يُرثى له ويناح ويُبكى عليه ، وحينئذ ابتدأ أول المخاض للعوان والظلم والمظالم والبلص ، =

وأمر الباشا بإحضار أئمة الحارات ، وأمرهم أن يكتبوا أن جميع الذى نهب وسلب ردّه الباشا فى الحال ، ولم يذهب لأحد عقال ، وختّمهم بهذا العرض على هذا الشرط . وكانت هذه مكيدة منه ، ولم يقدروا أن يخالفوا أمره . وبقيت جماعة الباشا تنهب وتظلم ، وتبغى وتتجبّر ، ولا توقر كبيرا ولا صغيرا ، ويقولون عن أهل الشام كلكم كفار ونصارى وأشرار . وكان لا يطعم جماعته إلا اللحم والأرز والخبز الطيب ، حتى قلّ اللحم ولم يوجد خبزٌ يؤكل ، وعلى كل فرن مئات من الناس الجائعين ، حتى افتقرت غالب أهل البلد ، وصاروا يسألون الناس ، وزاد النكد ونهضت الأسعار نهوض الماكر الجبار : فصار رطل الأرز بأربعة وعشرين مصرية ، والخبز مثله ، والدبس مثل ذلك ، وأوقية السمن بثمانية مصارى ، وأوقية

= ووقع الخوف والرجفة على جميع أهالى البلد ، وتفزّع عن العسكر وتنمروا كالأسود كأنهم فتحوا قلعة بين الأغراض [لعله يقصد بلغراد] وأما الأرزاق التى نهبوها لا تعدّ ولا توصف من حرير وأرزاق وأموال وتشليح النساء شى بخزاين الملوك ، وما أصاب محلة ميدان دمشق الجديدة ليس إلا من غضب الله لسوء أعمالهم ، لكن ياحيف راح الطالح مع الصالح ، كما يقول المثل البلايعم . ولم تزل دمشق كمثل الامرأة الحيرانة وكمثل السكران خائفاً مدة سبعين يوما من حين دخول الوزير للبلد إلى حين خروجه الدروز . . وكل هذا شئ مهول لا يجب له سوى النوح والبكاء لأن هذا غضب الله » . وأضاف ميخائيل الدمشقى إلى ذلك أن الدولة أهدت الوزير قدراً كبيراً من النقود الذهبية تقديراً له « لأنه فتح الشام » ففرّقه على جنده ، ولكن أهل الشام أبوا أن يتعاملوا به لأنه كان « عاطلا » ، حتى إنهم أبوا أن يفتحوا محلاتهم واختفوا فى بيوتهم أسبوعا الى أن خرج الباشا إلى الدورة . وعلّق الدمشقى على هذا كله بقوله : « وهذا الذل كله من سماح الله تعالى » .

الزيت بأربعة مصارى ، وغرارة القمح بثلاثة وسبعين غرشا ، وغرارة الذرة بثمانية وأربعين ، وغرارة الحمص بستين غرشا ، وغرارة العدس بخمسة وثلاثين ، والشعير بخمسين ، وأوقية السماق[1] بأربعة مصارى ، ورطل البصل بأربعة[2] مصارى وعلى هـــذا فقس ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلىّ العظيم .

وبعد مدة أيام قطع الباشا خرج[3] بعض العساكر والبيارق ، فصاروا يغيرون على القـــرايا ، وينهبون الأموال والأعراض والأولاد . ولا تسأل كذلك عن عسكر الباشا ، فإنهم نهبوا البساتين وكسروا الشجر وشلحوا البشر . ومع ذلك فإن الباشا لم يرض بذلك ، وطالما عاملهم بالتأديب والضرب الأليم ، فلم يرجعوا حتى صار يقتل منهم[4] . وأرادت أهل الشام أن تقاتلهم ، لكن لم يجدوا أحداً يأخذ بيدهم ، وأكابر الشام لم تتكلم بخير ، والأمر لله .

---

(١) نوع من التوابل حامض الطعم يستخدمه أهل الشام فى الطعام .

(٢) بعشرة فى النسخة التيمورية .

(٣) مرتب أو علوفة .

(٤) أنصف البديرى هنا عبدالله باشا الجته جى ولكن ميخائيل الدمشقى أشار إلى أن الباشا شارك جنوده فى نهب أهالى دمشق فقال (ص ٥٢) : « وبالغوا بأن دخل على الوزير فى مدة سبعين يوما نحو أربعة آلاف كيس من ظلم أهالى دمشق من الموالى والرعية والحرف ومن النصارى والإفرنج واليهود ومن البستانية ومن أهالى الأراضى ومن أهالى القرايا التى حوالى الشام ، إلى أن فقد الغرش من الشام بالكلية » .وقد بلغ من التخريب الذى حدث بدمشق أنه — فى رواية =

وبهـــذه الأيام نفى الباشا نقيب الأشراف حمزة أفندي إلى القدس . وبعد مدة جاء فرمان مع قبجى بأن عبد الله باشا الشتجى والى الشام له الأمر المفوّض يفعل ما يريد بلا مشاورة . ثم إنه تحرك لسفر الدورة ، فأمر بإخراج المدفعين اللذين في باب القلعة ، وكان لهم سنين وأعواما لم يخرجوا ، فعمل لهم عربات [٥١ ب] ومن الحديد حلقات ، بلغ وزنهم مع الخشب ثلاثة وثلاثين قنطارا ، وخرج بهما طالباً سفر الدورة ، وعمل شواهى مثل المدافع الصغار وركّبها على ظهور الجمال تدور يمينا وشمالا ، ثم أمر العامة أن يجرّوا المدافع الكبار . فقتل منهم رجلان وتحطم منهم جماعة . وقد فرضت جماعته على الحارات والأسواق مال ، فلمّوه باستعجال .

ولما خرج الباشا إلى الدورة شنق متسلمه رجلا . وجاء بعض أعوانه برجل شريف ، وقالوا : هذا قوّس مع الانكشارية ، فحالاً أمر بخنقه ولم يشاور أحدا . وصار الآخر يظلم وهذا يجور ، وزاد البلاء والغلاء ، وجلس على كل حانوت من حوانيت الخبازة واحد من أعوان الحاكم ، وذلك من كثرة ازدحام الخلائق وكثرة النساء والأولاد

= القارى (٨٣) — لما « وصل خبر الشام إلى الدولة العلية بأن الشام انهدمت وما بقى منها شيء إلا عادم النفع جهزوا قبجى باشى ومعمار باشى ومعهم بناؤن لعمارة جامع الأموى وعمارة القلعة » .

فتسمع لهم بكاء ونحيبا يقطع القلوب والأكباد. والأمر لله لأنه مراده.

وفى تلك الأيام جاء الخبر بقتل أسعد باشا بن العظم والى الشام سابقا[١] . وبعد أيام جاء قبجى من جهة الدولة بختم سرايته وضبط ماله وختم بيوت جميع أتباعه وأعوانه وضبط مالهم ورفعهم إلى القلعة ، وازدادت الشدّة ، وصارت أمور وأهوال فى دمشق الشام ما وقعت فى سالف الأ[زما]ن . [ث]م جاءت أتباع ابن العظم أسعد باشا ، ودخل القبجى إلى السرايا ، فأخرج الدفائن العظيمة من سرايته فإذا هى كالكنوز المودوعة فيها ، فأخرجوا من الأرض ومن الحيطان والسقوف والأحواض حتى من الأدبات دراهم ودنانير وأمتعة نفيسة لا تقام بقيمة ، ومجوهرات وغير ذلك مما لا يعلمه الا الله تعالى[٢] والحكم لله العلىّ الكبير .

---

(١) لم يذكر البديرى تعليلا لمصرع أسعد باشا العظم ومصادرة أمواله . وقد ذكر الخورى قسطنطين الخلصى فى بعض تعليقاته على تاريخ الشيخ ظاهر العمر للصباغ (ص ٧٦) أن حسين باشا مكى اتهم سلفه أسعد باشا أنه بسبب نقله عن ولاية دمشق أغرى العربان بنهب الحاج (وقد مرّ بنا هذا الحادث الشنيع)، فلما تحقق للدولة صدق هذا الاتهام صدر الأمر بإعدامه خنقا فى الحمام ، بعد أن كان قد صدر أمر بعدم رفع السلاح عليه ، وقد تابعه فى هذه الرواية ميخائيل الدمشقى (ص ٥٩).

(٢) قدّر ميخائيل الدمشقى (ص ٦٠) أن مقدار ما صودر من متاع الباشا وأمواله ومجوهراته وخيله وعبيده بلغ نحو ١٠٠ ألف كيس ونيف ، وقال إن أسعد باشا العظم قُتل فى صيواز (سيواس).

وفى يوم الخميس رابع رمضان جاء الباشا من الدورة ودخل دمشق . وفى سابع عشر شوال خرج عبدالله باشا الشتجى للحج الشريف بموكب عظيم وعسكر جرّار .

وبتلك السنة تُوفى الشيخ أحمد المنينى[1] الحنفى خطيب الجامع الأموى رحمه الله تعالى . وجاء سيل عظيم فى مربعانية الصيف نزل فى قرية جبة من قرب يبرود ، وكان نزوله فى أول الليل ، فما كان إلا ساعة حتى أخذ قرية جبة عن بكرة أبيها ، ثم مرَّ على يبرود ، فغطى جميع الكروم وهدم وقتل ، ثم وصل إلى قرية النبك يهدر فى جريه مثل الرعد ، فأتلف بها كثيراً . نسأله تعالى اللطف بالمقدور .

سنة ١١٧٢

ثم دخلت سنة اثنين وسبعين ومائة وألف ، وكان أوّل محرمها[2] نهار (١٥٢) الثلاثاء وكان المتسلم فى الشام من قِبَل عبد الله باشا سليمان آغا ، وكان ظالماً غاشماً على ما نقلوا . وكان مجىء جوقدار

(١) نسبة إلى قرية « منين » من قرى دمشق . وصفه المرادى (سلك الدرر ج ١ ص ١٣٤ — ١٤٥) بأنه كان « ألمعياً لغوياً نحوياً أديباً أريباً حاذقاً لطيف الطبع حسن الخلال » ، درّس بالجامع الأموى ومدارس أخرى بدمشق وأخذ عنه كثيرون . وألف كتبا كثيرة أكثرها فى الفقه .

(٢) يوافق ٤ سبتمبر (أيلول) ١٧٥٨ .

الحج سلخ محرّم الحرام . وكان سردار الجردة عبد الرحمن باشا باشة طرابلس[١] . وفى خامس صفر الخير كان دخول الحج الشريف إلى الشام . وكانت سنة راحة لكافة الحجاج ، وذلك بسبب أن الباشا قد قتل من العرب بين الحرمين مالا يُحصى ، حتى قتل شيخ العرب[٢] . وجاء تقرير الشام للباشا قبل وصوله إلى الشام .

وكانت هلّة رمضان ليلة السبت ، وضُربت المدافع فى الثلث الأخير من الليل . والفلوس كل أربعة وعشرين بمصرية[٣] . وثبت عيد الفطر قبل ظهر يوم الأحد ، وصلّوا العيد قبل الظهر ، وفطر الناس بعد أن كانوا صائمين .

وفى سادس عشر شوال توجّه الحاج عبد الله باشا الشتجى أميرا على الحاج ، ورافقه فى الركب [illegible] باشا العظم واليا لجدة ، وأخذوا معهما عساكر كثيرة ، خيفة من العرب من قتل عبدالله باشا لشيخهم وجنوده . وفى سابع والعشرين من محرم قدم جوقدار الحج الشريف وبشّر بكل خير . وعزَل عبد الله باشا الشتجى مساعد شريف

---

(١) ذكره القارى (ص ٨٢) باسم عبد الرحمن باشا بن الكبرلى .

(٢) ذكر المرادى (ج ٣ ص ٨١) فى ترجمته لعبد الله باشا أنه « أذهب الله على يديه مردة طائفة حرب ، وأفرد تلك الواقعة بالتأليف العلامة السيد جعفر البرزنجى وسماه : « النفح الفرجى فى الفتح الجتجى » .

(٣) انظر ما سبق ذكره عن أسعار العملة .

مكة ، وأقام أخاه جعفر مقامه[١] . وكانت وقفة الحاج الجمعة، ونهار السبت سابع صفر دخل الحاج الشريف لدمشق الشام ، وهو بغاية الصحة .

ثم بعد دخول الحج أمر عبد الله باشا منادياً ينادى فى الشام برفع الظلم والعدوان والعدل من الحكام والرعايا ، وصار يتبدل ويختفى ويدور فى شوارع الشام وأزقتها . فحصلت الراحة عموماً بإبطال الشرور وانعدام أهل الفجور . وكان الباشا قد قطع خرج غالب عسكره وأمر برحيلهم من الشام ، وأن لا يبقى بها من لا شغل له ولا صنعة ، فرحل خلق كثير ، وأرسل جميع جماله إلى حماة . وكان ذلك من لطف الله بالشام وأهلها ، والغلاء مطنب كما تقدّم . وكان قاضى الشام رجلاً صالحاً ، فعمل محتسباً وصار يدور بنفسه على السوقة ويعير الموازين والأرطال والأواق ، فالذى يجد أواقه ناقصاً يضربه علاقة على رجليه ، والذى يجد أواقه تامة يعطيه مصرية من فضة .

ودخل ربيع الثانى الموافق تشرين ثانى[٢] ولم ينزل من السماء قطرة ماء . وفى ليلة الثلاثاء ثامن ربيع الثانى من تشرين الثانى من هذه السنة فى الثلث الأخير من الليل والمؤذنون فى المآذن يشتغلون المراسلة [كذا] صارت [٥٢ب] زلزلة خفيفة ، وتبعتها ثانية ثم ثالثة

(١) ذكر المرادى (المصدر السابق) أنه بعد عودة الباشا من الحج عاد الشريف مساعد وأزاح أخاه عن شرافة مكة وولها ، وشكا الباشا إلى الدولة ، فكانت هذه الشكوى «أقوى سبب» لعزله عن ولاية دمشق .

(٢) هو شهر نوفمبر .

زُلزلت منها دمشق زلزالاً شديداً ، حسبت أهل دمشق أن القيامة قد قامت ، فتهدّمت رؤس غالب مآذن الشام ودور كثيرة وجوامع وأماكن لا تحصى ، حتى قبة النصر التى بأعلا جبل قاسيون زلزلتها وأرمت نصفها ، وأما قرى الشام فكان فيها الهدم الكثير ، والقتلى التى وجدت تحت الهدم لا تحصى عددا . وفى الليلة الثانية زُلزلت أيضاً فى الوقت الذى زُلزلت فيه الأولى ، ثم حصلت فى وقت صلاة الصبح وبالنهار أيضاً ، ولا زالت تتكرر مرارا لكنها أخفّ من الأولين . وقد زاد الخوف والبلاء ، وهجرت الناس بيوتهم ، ونامت فى الأزقة والبساتين وفى المقابر والمرجة ، وفى صحن الجامع الأموى . وفى هذه الزلزلة وقع خان القنيطرة على كل من كان فيه ، فلم يسلم من الدواب والناس إلا القليل ، وكذلك خان سعسع[1] . وقد وردت الأخبار إلى دمشق الشام أن بعض البلاد والقرايا انهدمت على أهلها ، فلم يسلم منها ولا من دوابّها أحد[2]

ثم فى ليلة الثلاثاء الساعة العاشرة من الليل خامس ربيع الأول انشقّت السماء وسُمع منها صريخ ودمدمة ودوىّ وهول عظيم ، حتى إن بعض أهل الكشف رأى أن السقوف ارتفعت، وظهرت النجوم

---

(١) القنيطرة وسعسع بلدان صغيران يبعدان عن دمشق بنحو ٦٠ كيلو مترا إلى الجنوب الغربى منها .

(٢) خربت بعلبك وما جاورها من القرى ومات منها خلق كثير : مصادر تاريخية ص ٢٢ .

وعادت السقوف كما كانت . ووردت أخبار أن فى بعض البلاد انطبق جبلان على بعض القرى ، فذهبت القرى ولم يظهر لها أثر . وفى ليلة الجمعة الثامن عشر[١] من ربيع الأول فى محل[٢] أذان العشاء خرّ نجمٌ من السماء من جهة الغرب إلى جهة الشرق ، فأضاءت منه الجبال والدور . ثم سقط فسُمِع له صوتٌ عظيم أعلا من (صوت)[٣] المدافع والصواعق .

وفى الزلزلة الأولى وقعت صخرة عظيمة فى نهر القنوات فسدّت النهر ، وانقطع الماء عن البلد أحد عشر يوما ، وبقيت قُطّاع الأحجار يقطعون فيها أحد عشر يوما ، فصارت الناس فى غمّين: غمّ الزلزلة وغمّ قلة الماء .

وفى ليلة الاثنين سادس ربيع الثانى فى الساعة الخامسة صارت زازلة عظيمة أعظم من الأولى بدرجات . وقد صارت معها رجّة مهولة أسقطت غالب بقية المآذن ، وأرمت قبة الجامع الأموى الكبيرة والرواق الشمالى جميعه مع مدرسة الكلاسة وباب البريد وأبراج القلعة وغالب دور دمشق ، والذى سلم من الوقوع تناثر من بعضه البعض ، وقُتل خلق كثير خصوصا فى القرايا ، ورحلت الخلائق للبساتين

(١) السابع عشر : فى النسخة التيمورية .
(٢) اى وقت .
(٣) هذه الكلمة ساقطة من النسخة الظاهرية .

وللجبال والتُّرَب [٥٣ ب] وإلى المرجة ، ونصبوا بها وبالبرارى الخيـــام وناموا بعيالهم وأولادهم ، ومع ذلك فلم تبطل الزلزلة والرجفان لا ليلا ولا نهارا . ثم أمر عبد الله باشا الشتجى والى الشام وفّقه الله تعالى منادياً ينادى بالناس أن يصوموا ثلاثة أيام وأن يخرجوا فى اليوم الرابع إلى جامع المصلّى،فإنه مشهور بإجابة الدعاء فيه. فخرجت الناس من كل فج عميق إلى المصلّى ، وخرج حضرة الوزير معهم وجميع الأعيان والمفتى والقاضى ، وخرجت العلماء وأهل الطرق والصوفية والنساء والأولاد ، ولازموا الدعاء فى المصلّى ثلاثة أيام بضجيج وبكاء وخشوع كيوم عرفات ، بل كموقف القيامة ، فرحمهم أرحم الراحمين ، وعاملهم باللطف والتخفيف ، فصارت الأرض تختلج اختلاجاً خفيفا ، ولم تزل الناس فى البساتين والبرارى خائفة حتى نزل عليهم الثلج المطر وصار الجليد إلى أن خفّت [الزلزلة] ورجعت الناس خائفين .

وفى أواسط جمادى الأولى قدم القاضى إلى دمشق الشام ، واسمه رضا أفندى ، ولم يحرّك ساكنا .

وفى (ثامن)[1] جمادى الثانى ظهر خبر بدمشق أن عبد الله باشا الشتجى والى الشام معزول. وفى ثالث عشر جمادى الثانية[2]. وفى يوم

(١) هذه الكلمة ساقطة من النسخة الظاهرية .
(٢) بقية العبارة ساقطة من النسخ التى اطلعنا عليها .

الخميس ثاني وعشرين جمادى الثانية رحل الحاج عبد الله باشا الشتجى إلى منصب ديار بكر على ما قيل .

وفى ليلة الاثنين الخامسة والعشرين من جمادى الثانية قُبيل السحر صارت فى الشام أيضاً زلزلة خفيفة أخفّ من الزلازل المتقدمة . ثم شاع الخبر بين الناس أنه سيحدث زلزلة عظيمة ، ففزعت الناس فزعاً شـــديدا ، ورجعوا إلى ما كانوا عليه من الخوف والفزع والخروج للبساتين والمقابر ، نسأله تعالى اللّطف .

وفى نهار الاثنين غرة رجب المبارك من هذه السنة[1] دخل والى الشام محمد باشا الشالك[2] بن بولاد باشا لدمشق بموكب عظيم ضحوة النهار ، وخرجت لملاقاته الأكابر والأعيان والأفندية والأغاوات ، وخرجت الإنكشارية بالخيل والعُدد المطلية والدروع الداوودية ، وخرجت القبقول بالعدد الكاملة .

---

(١) يتفق القارى (ص٨٣) مع البديرى فى الشهر الذى عُزل فيه عبد الله باشا (أو عبدى باشا) من ولاية الشام وهو شهر جمادى الثانية ، كما يتفقان فى الشهر الذى دخل فيه الوالى الجديد وهو شهر رجب . ولكن البديرى يذكر سنة ١١٧٢ بينما يذكر القارى سنة ١١٧٣ . ولكن تاريخ البديرى أضبط ، كما يتضح من تسلسل الحوادث والمقارنة بين الروايتين .

(٢) كتبه القارى (ص ٨٣) «الشاليك [جالق]» وقال إنه «كان حاكماً مهاباً وكان ذا مال عظيم» ، ولكن لما عزل «ما صدقت الناس من شدة فرحهم بعزله لأنهم ظنوا فيه خيرا فخاب ظنهم ، وكان ظالماً بخيلا» .

وفى يوم السبت سابع رجب دخل نعمان باشا حاكم صيدا ، فدخل فى موكب عظيم ، وخرج لملاقاته والى الشام محمد باشا الشالك ومعه الأفندية والأكابر والأغوات ، وأنزله والى الشام عنده ، وأنزل كل آغا من أغواته عند آغا من أغوات الباشا ، ثم أقام فى ضيافة والى الشام محمد باشا ثلاثة أيام وأربعة [٥٣ ب] ليال ، ورحل لمحل وظيفته ومنصبه بصيدا .

وفى نصف شهر رجب جاء ريح عظيم استمرّ أربعة أيام ولياليها ، حتى هدم أماكن كثيرة ، ولم يبق من الأشجار إلا القليل ، وارتجاج من الزلازل لم تبطل لا ليلا ولا نهارا ، مع وقوع الغلاء حتى فى الخضروات ، فرطل الخبز(١) بخمسة مصارى ، ورطل الباذنجان بخمسة وعشرين مصرية ، ورطل البصل بتسعة مصارى ، ورطل اللحم بقرش وربع لم يوجد ، ورطل السمن بقرش ونصف وربع . والبقية على نحو ما قدّمنا .

قال المؤرخ البديرى : والفقير لم يوجَد معه ولامنقير ، والهدم واقع من الزلازل فى كل وقت وحين ، والناس رحلت إلى أرض الفلاحين ، والله تعالى هو المعين .

وفى نهار السبت الثانى والعشرين من رجب جاء قبجى من

(١) الفول : فى النسخة الظاهرية .

طرف الدولة العلية واسمه سباغ زادة لأجل الكشف على الجامع الأموى وعمارة قبّته وجهته الشمالية ومآذنه المهدومة فى الزلازل ، ومعه باش معمارى وفعلة ورجال لأجل مباشرة تعمير الجامع المذكور .

وفى عاشر شعبان سار والى الشام محمد باشا الشالك إلى الدورة وأخذ معه أحمد بشه بن القلطقجى (ومعه محمد أغا بن دالى وابن بكمار الذين كانا هاربين مع ابن القاطقجى)[1] . فلما وصل محمد باشا ومن معه إلى نابلس توفى أحمد بشه ابن القاطقجى ، ودُفن بها ، وكان موته بالطاعون ، لأن مبادى الطاعون وقع خفيفاً من شهر جمادى الثانية ، ولم يزل يكثر فى رجب وشعبان ، كما وجود الغلاء كما يأتى .

ثم دخل شهر رمضان المبارك نهار الخميس ، وصار العيد يوم الجمعة ، فصار عيداً للأموات والأحياء ، لكنه للأموات أكثر . فقبل عيد الفطر بيومين وبعده بيومين يخرج من كل باب من أبواب دمشق ممن مات مطعونا فى كل يوم نحوا من ألف جنازة والعياذ بالله .

وهذا شيء ما سمع من عهد طاعون عمواس[2] ، نسأله تعالى

(١) الكلمات بين القوسين ساقطة من النسخة الظاهرية .

(٢) هو الطاعون الشهير الذى أصاب المسلمين فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب .

اللطف فيما جرت به المقادير . وصار النقص أيضاً فى الماكهة ، حتى صارت أوقية الجانرك[1] بمصريتين ، والمشمش رطله بأربعة وعشرين مصرية ، ورطل التوت بثمانية مصارى ،ورطل التفاح بأربعة وعشرين مصرية ،ورطل الأنجاص[2] بثلاثين مصرية ،ورطل الثوم بثلاثين مصرية ، ورطل البصل بسبعة مصارى ،واللحم والأرز وغيره على نحو ماقدمنا ، وقد طال الأمر وكثر القهر وزال السرور ،وزادت البغضاء والشرور ، ولم يدر الإنسان أين يدور ،من شدة البكاء والنفور ،ولله عاقبة الأمور .

وفى يوم الجمعة [١٥٤] الخامس عشر من شوال سار محمد باشا الشالك بالركب الشامى إلى الحرمين الشريفين . وبعد يومين سار الحاج بمهماته وبعد أيام جاء عثمان باشا[3] والى مدينة طرابلس سردار الجردة، وكان

---

(١) الجانرك كالبرقوق ولكنه أخضر ، ويميل إلى أكله العامة فى الشام وخاصة الصغار .

(٢) الكمثرى .

(٣) كان عثمان باشا من مماليك أسعد باشا العظم وأصله كرجى ،وقد جعله الباشا متسلماً عنه فى حماة ، ثم أصبح وكيلا له ، ولهذا دعى أحيانا بالوكيل . وبعد أن قتل مولاه أخذ عثمان إلى القسطنطينية ليؤدى حسابا عن ثروة سيده ، فأظهر عثمان إخلاصه للدولة ، ودلها على أموال أسعد باشا وذخائره كاملة، فدعى بالصادق وكافأته الدولة بتعيينه وزيراً ذا ثلاثة أطواخ، وجعلته على ولاية طرابلس ثم دمشق بعد عزل محمد باشا الشالك فى نوفمبر سنة ١٧٥٩ فبقى واليا عليها اثنتى عشرة سنة [١١٧٣ — ١١٨٥ = ١٧٥٩ — ١٧٧١] وعهدت اليه الدولة بالقضاء على الشيخ ظاهر العمر وأعانته على ذلك وشجعته بتعيين ولديه محمد باشا على طرابلس ودرويش باشا على صيدا. انظر : القارى ص ٨٣ ، الأمير حيدر الشهابى ج ١ ص ٥٥ ،الصباغ ص ٩٩ ، المرادى ج ٣ ص ١٦١ .

نزوله مدة إقامته فى قرية من القرايا من غير أسف ولا ندم[1] ، وسار مسافراً فى ذى الحجة مع كواخى صيدا ونابلس .

وفى نصف ذى الحجة [توفى] الشيخ أحمد بن سوار[2] شيخ المحْيا، وكان علاّمة زمانه ووقته ، وله شجاعة زائدة وبراعة فى العلوم متزايدة، وصار له مشهد عظيم ، ودُفن فى تربة قبر السيدة عاتكة . وبعده توفى ابن عمه الحسيب النسيب الشيخ سليمان[3] ، وكان يعمل المحيا فى جامع الأموى وفى جامع البزورى الذى فى محلتهم . وبهذا الشهر أيضاً توفى العالم العلامة مفتى السادة المالكية الشيخ يوسف أفندى[4] ، وصار له مشهد عظيم ، ودفن بمرج الدحداح . رحمه الله تعالى .

---

(١) يشير البديرى هنا إلى أن عثمان باشا لم يبد الندم على ما كان منه إزاء سيده أسعد باشا .

(٢) فى النسخة الظاهرية جاء اسمه : الشيخ محمد بن سوار ، والصواب الشيخ « أحمد » على ما جاء فى النسخة التيمورية . يؤيد هذا ما رواه المرادى [ج ١ ص ١١٣] من أنه لما حدثت الزلزلة العظمى بدمشق لجأ الناس إلى الشيخ أحمد ابن سوار شيخ المحيا بدمشق وقدموه للدعاء ، فدعا وابتهل والناس خلفه . وقد جعل المرادى وفاته فى سنة ١١٧٣ بينما ذكرها البديرى فى أواخر سنة ١١٧٢ .
والمحيا ذكر خاص يقام فى الجامع الأموى فى شهر رمضان . انظر ص ١٨٠ .

(٣) ترجم له المرادى فى سلك الدرر ج ٢ ص ١٥٩ — ١٦٠

(٤) تولى إفتاء المالكية بعد أخيه ، وجمع إلى الإفتاء التدريس ببعض مدارس دمشق ، وقد جمع مالا كثيراً أنفقه على من كان حوله من المريدين والمنشدين . وقد توفى فى الطاعون الذى فشا فى دمشق فى تلك الأيام [المرادى : سلك الدرر ج ٤ ص ٢٤٥] .

سنة ١١٧٣

ثم دخلت سنة ثلاث[1] وسبعين ومائة وألف ، وكان غرة محرمها[2] الثلاثاء ، وكان دخولها فى اشتداد الحر . وفى السابع والعشرين من المحرم قدم جوقدار الحج الشريف ، وبعده دخل الكتّاب ، وأخبر أن هذه الحجة بغاية الراحة ، وأن عثمان باشا سردار الجردة صنع من الخيرات فى هديه [أشياء] ما صنعها غيره . وذلك أنهم لما التقوا بالجردة وجدوا عثمان باشا سردار الجردة قد سبقهم ، وفى انتظارهم له إحدى عشر يوما مقيم فى هدية[3] ، وهذا ما سبق لأحد قبله . وقد أغاث الحجاج بالإكرام ، فقد أطعم الجائع وسقى العطشان ، وركّب العيّان وكسا العريان . ثم [لما] وصلت أفعاله الحسنى إلى الدولة العلية صانها المولى من كل بلاء وبلية وجّهوا عليه إمارة الشام ، ووجهوا لولده محمد باشا مدينة طرابلس .

وفى نهار الأربعاء السابع والعشرين من ربيع الأول جاء قبجى بعزل محمد باشا الشالك من الشام وبتوجيهها لعثمان باشا سردار الجردة .

---

(١) جاءت فى النسخة الظاهرية : سنة أربع وسبعين ، وليس بصحيح .

(٢) يوافق ٢٥ أغسطس [آب] ١٧٥٩ .

(٣) هديه (الأولى) بمعنى أضحيته وهدية (الثانية) مكان فى الحجاز فى طريق الحج ، يقع على بعد ثلاثة أيام من المدينة و ٢٢ يوما من دمشق . وقد جرت العادة أن تتجه الجردة من دمشق إلى هدية ، فتقيم بها أياما ريثما توافيها قافلة الحاج ، فيكون الحجاج ضيوفا على الجردة فى هذه الأيام ، ثم تعود القافلتان إلى الشام .

وفى هذه الأيام بوشر بعمارة جامع الأموى ، فدخلته المعمارية والنجارون والدهانون والحجّاره ، وبذلوا الهمة بتعمير القبة والجهة الشرقية وما سقط من المآذن وبتحسين جميعه[1] ، ولا يُفتح إلا فى وقت الصلاة فقط . والعمارة أيضاً مشتغلة فى القلعة وترميمها ، وقد تمت عمارة القلعة فى شهر رجب سنة تاريخه ، وتمّ تعمير الجامع الأموى والجهة الشمالية والقبة وترميم المنائر وتحسينه فى شهر رمضان من [٥٤ ب] هذه السنة .

وقبيل شهر رجب سار عثمان باشا إلى الدورة ، وفتح فيها قلعة طرطورة[2] ، وكانت تلك القلعة فى [يد] الظاهر عمر ، وقتل (كذا) ، ولما رجع عنها عثمان باشا أخـــذها الظاهر عمر بقوة جيشه بلا محاصرة .

وفى هذه السنة المطر غزير والطاعون المفرط والوباء زائد الحدّ والفاكهة قليلة جداً ، والغلاء مطنب كما أسلفنا : فالرمانة الواحدة بثمان

(١) ذكر المرادى فى ترجمته لعثمان باشا (ج ٣ ص ١٦١) أنه فى سنة ١١٨٣ بنى قناة داخل صحن الجامع الشريف الأموى وأجرى لها الماء من نهر القنوات ، وصرف على ذلك أموالا كثيرة ، وصار بها فرج للناس عند انقطاع نهر بانياس .

(٢) كان والى دمشق — كما قلنا قبل ذلك — يخرج (للدورة) فى إقليم نابلس ، وقد ذكرت هذه القلعة باسم الطرطير قرية بجبل نابلس [الأمير حيـــدر الشهابى ج ٣ ص ٨١٧] وذكرها مؤرخ ظاهر العمر باسم الطنطورة ، وقال إنها من جبل نابلس أيضا ، والمعروف أن على بك الكبير الأمير المملوكى كان حليفا للشيخ ظاهر العمر فى حربه ضد عثمان باشا الصادق ، وقد دخل محمد أبو الذهب دمشق ثم ارتد عنها سنة ١١٨٤ (١٧٧٠) .

مصارى وأوقية التفاح بسبع مصارى ، ورطل الفحم بخمسة عشر مصرية ، وأوقيةالسمن بسبع مصارى ، وأوقية الزيت بثلاث مصارى، وبقية المقتاتات على هذا النمط كما أسلفنا ، وأما القيمق [١] فقد صار رطله بريال ، وما بقى للفقراء حال . وفى اثنين وعشرين شعبان من هذه السنة جاء عثمان باشا من الدورة وأحواله مسرورة .ونهار الاثنين ثبت رمضان المبارك ، وثالث ليلة منه والناس فى صلاة التراويح صارت زلزلة مزعجة ، فقطعت الناس صلاة التراويح ، وتهاربت الناس ، وداست بعضها بعضا ، وانذهلت عقولهم وفُقدت نراجيلهم وبعض ثيابهم ، وثانى ليلة حصلت أيضا مع رجّات لا تُدرك .

سنة ١١٧٤

ثم دخلت سنة أربع وسبعين ومائة وألف [٢] . وكان عثمان باشا والى الشام فى الحج أميراً له . ولما جاء الحج أخبر أن هذه الحجة من أبرك الحجج برخاء ورخص وأمان .

وفى تلك السنة جاء قبجى يأمر بالزينة العظمى [٣] ، ونادى عثمان

(١) وهو ماتسميه (القطايف) فى مصر

(٢) يوافق أولها ١٣ أغسطس (آب) سنة ١٧٦٠ .

(٣) ذكر المرادى فى ترجمته لعثمان باشا (ج ٣ ص ١٦١) أن هذه الزينات أقيمت بأمر من الدولة بمناسبة مولد (السلطان) سليم (الثالث) .

باشا أن من عنده لعبة ولو كانت من الطين والخشب او عنده معرفة بأبواب السيما التى تسمى بالملاعيب فله عندى الإكرام الزايد ، فبذل جانباً من المال وأعطى ومنح ، ودارت العرايض [١] بأنواع الملاعب وعملت جميع الصنائع والحرف ، ومشت بمواكب عديدة مدهشة ، منهم بالأسلحة والعدد والدروع الفاخرة ، ومنهم بالثياب (المثمنة)[٢] المنوّعة . والحاصل حصلت زينة ما سمعنا ولا رأينا أنه صار نظيرها [٣] .

وبتلك السنة ركب عثمان باشا والى الشام على قلعة صهيون [٤] وفتحها ، فأمن الخايف وقلت الرواجف . وفى تلك السنة أيضا جاء خبر إلى الشام بقتل عبد الله باشا الشتجى ، وضبطت الدولة ماله ونواله ، وراح كأنه ما كان .

---

(١) جمع عراضة وهى الموكب .

(٢) هذه الكلمة ساقطة من النسخة الظاهرية .

(٣) نوه القارى [وزراء دمشق ص ٨٣] بهده المواكب والزينات كما أشاد بميرات الباشا عثمان كإجرائه الماء فى الجامع الأموى وصنع كسوة جديدة المحمل وتعمير سبع قلاع فى طريق الحاج ، عـــدا « تسع عشرة خيرية مابين عمارة قلاع وتعزيل وقطع صخر » .

(٤) صهيون جبل جنوب القدس . ولعل الصحيح ماذكره مؤرخ الشهابيين فى حوادث سنة ١١٧٨ [ج ١ ص ٦٣] من خروج عثمان باشا إلى « قلعة سانور » بجبل نابلس لقتال صاحبها محمد الجرّار وحصاره القلعة ثم ارتداده عنها .

وقال صاحب خطط الشام [ج ٢ ص ٢٩٩] إن « قلعة صانور من عمل عكا » .

سنة ١١٧٥

ثم دخلت سنة خمس وسبعين ومائة وألف[١] . وكان والى الشام عثمان باشا أميراً بالركب الشامى ، وكانت حجة مريحة لم يحصل أدنى كدر للحجاج . وكانت وقفة عرفات يوم الجمعة . ومن الاتفاق العجيب أن عثمان باشا خرج بالركب يوم الجمعة ، ووقف على عرفات مع الحج يوم [٥٥ ا] الجمعة ، ودخل الشام يوم الجمعة .

وفى مدته لم يحصل فى الشام أدنى مكدر ، فعدل فى الرعية ، وعاشت أهل الشام بمدته عيشة هنية . وكان كيخيته سليمان بك مملوك سليمان باشا بن العظم . وكان فى موت بيت العظم قد قاسى أهوالاً ، فنال بصبره آمالا .

وفى تلك الأيام ورد الخبر إلى دمشق الشام بأن سعد الدين باشا[٢] بن العظم مات فى ديار بكر ، وجاء الأمر بضبط ماله ، فضبطت الدولة على ماله واستولت على نواله ، فقد نقل الثقات أنه خرج عنده مال عظيم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

---

(١) يوافق أولها ٢ أغسطس (آب) سنة ١٧٦١ .

(٢) ذكر فى النسخة الظاهرية باسم أسعد باشا وليس بصحيح .

انتهى ما ذكره البديرى من هذا التاريخ ، واختصر حوادث السنين الأخيرة جداً وزاد سنة سهوا [1] . والصحيح ما نقلناه . فسبحان من ليس بغافل ولا ساه .
انتهى ما حررناه بقلم الفقير محمد سعيد [2] أبى جمال ، أحسن الله له الحال والمآل .
وذلك قبيل ظهر يوم الخميس الرابع والعشرين من رمضان سنة ١٣١٧ [3] .
تمّ الكتاب على يد الفقير خادم العلم الشريف محمد بن المرحوم الشيخ عبد القادر المجذوب فى ميدان الحصا فى رجب الحرام سنة ١٣٢٣ [4] .

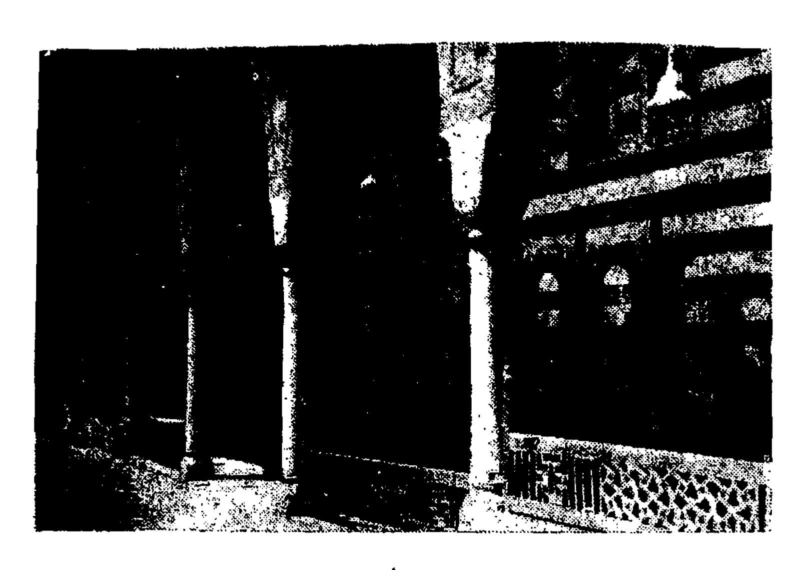
---

(١) ذكر البديرى فى فاتحة كتابه أنه جمع حوادث دمشق من سنة ١١٥٤ إلى سنة ١١٧٦ والصحيح كما فطن له المنقح إلى سنة ١١٧٥ فقط .

(٢) إلى هنا انتهت النسخة التيمورية .

(٣) ١٨٩٩ — ١٩٠٠ م .

(٤) ١٩٠٥ — ١٩٠٦ م .



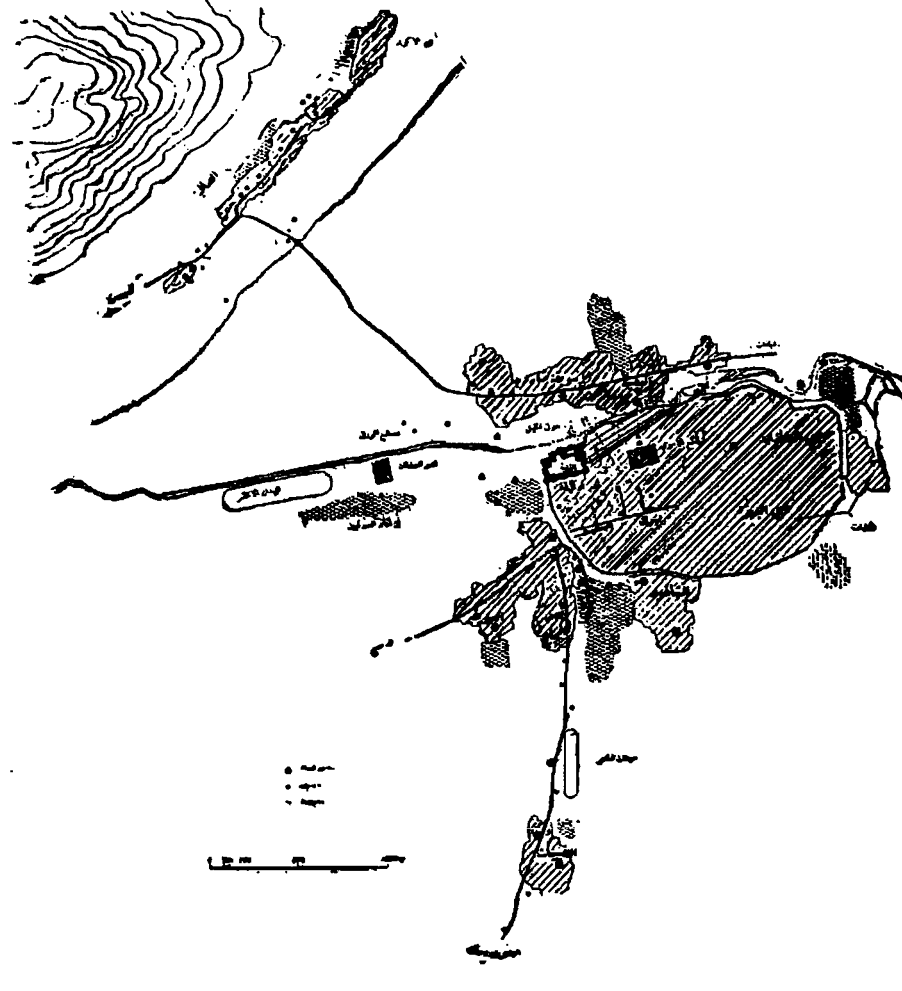
منظر من قصر أسعد باشا العظم

[نقلا عن مجموعة مديرية الآثار بدمشق]



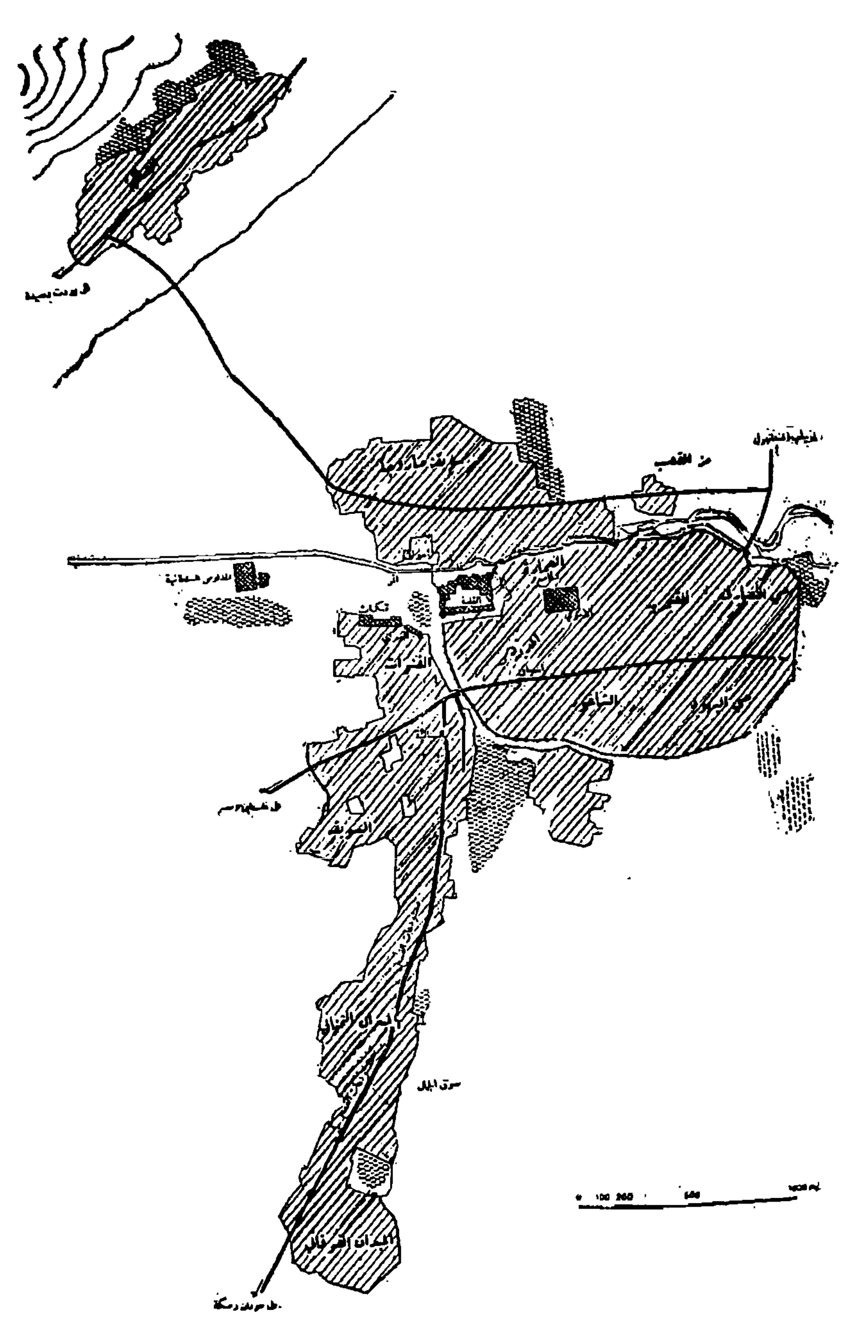
منظر من قصر أسعد باشا العظم

[نقلا عن مجموعة مديرية الآثار بدمشق]



١ — دمشق فى أوائل القرن السادس عشر

[نقلا عن سوفاچيه : دمشق . لمحة تاريخية]



٢ ـــ دمشق فى القرن التاسع عشر

[نقلا عن سوفاجيه : دمشق . لمحة تاريخية]

فهارس الكتاب

أولا – فهرس الأعلام

ثانياً – فهرس الأماكن والبلاد

ثالثاً — فهرس المصطلحات والوظائف

رابعا – فهرس حوادث دمشق اليومية

صفحة

الانتهاء من بناء قصر أسعد باشا العظم . اغتيال حاكم بعلبك . جلب قمح من حماة . وفاة موسى كيخية . توسيع قصر أسعد باشا . البدء في بناء قيسارية كبيرة. دخول أورطة من القبوقول في «جبر وعتو». تعصب أهالي حلب على واليهم سعد الدين باشا العظم . اغتيال آغا القبوقول . تجريس رجل متهم بسك عملة مزيفة .

الأغنياء منعّمون والفقراء صابرون ! . تعيين السيد خليل البكري قاضياً لدمشق . جلوس ابنه مكانه حتى وصوله . كثرة الأمطار والخيرات والبركات . تعمير طريق الميدان . الاحتفاء بابن ظاهر العمر في دمشق وإصلاح الباشا مابينه وبين أبيه. الدعاء لأسعدباشا لإصلاحه مزار السيدة زينب . تسمير جماعة من اللحامة .

وصول قاض جديد للشام من أبناء الترك . إبطال العمل في المحكمة الكبرى . نزول مطر غزير . القبض على لصوص وشنقهم ، قتال بين الحجاج والبدو . تسعير العملة . رخص البضائع ما عدا اللحم . بناء أسعد باشا العظم القيسارية الجديدة . نهب اللصوص بعض أضرحة الصحابة والأولياء . خروج أسعد باشا بجموع غفيرة من مختلف الأجناد لمقاتلة عرب البلقاء .الحجة الحادية عشرة للباشا. ترقية مصطفى بك العظم إلى رتبة باشا بطوخين وتعيينه محافظاً للجردة . فتنة بين طوائف العسكر . وفاة حاكم صيدا وكان ظالماً .

عودة الحجاج سالمين ، احتفالات دمشق بدخول الحج ودخول المحمل ودخول خزنة مصر . إتمام بناءالقيسارية الجديدة. زلزلةخفيفة ومطر غزير . مقاتلة عرب (الجبل) . تقرير إبقاء لأسعد باشا والإشادة بمناقبه . اشتداد الغلاء . الحجة الثالثة عشرة لأسعد باشا .

استدراك

ص ٦٧ حاشية (١) وحاشية (٢) كل منهما مكان الأخرى .

ص ٦٩ سطر ١٥ : (حسنى) صحتها : حسن .

ص ٧٥ حاشية (١) صحتها : انظر فيما سبق ص ٤٧ ، ٥٤ — ٦١ .

ص ٩٦ سطر ١٩ : (أولاهم) صحتها : أولادهم .

ص ١٠٠ حاشية (٢) سطر ٢ (لنظم) صحتها : لنظر .

ص ١٠٦ سطر ١١ : سنه ١٦١١ صحتها : ١١٦١ .

ص ١١٢ سطر ١٤ : (التنكر) صحتها : المنكر .

ص ١٥٧ سطر ١٢ (قلمة) صحتها : تلة .

ص ١٩٨ سطر ١٠ (المغاربة اللواند) صحتها : المغاربة واللواند .

ص ٢٥٧ شيخ التكية تشطب كلمتا (أحد اللصوص) .

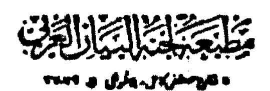
ص ٢٧٢ باب السريحة . تُقرأ : باب السريجة .

ص ٢٦٧ سطر (٥) ـ صحته :

مصطفى بك أخو أسعد باشا العظم .

ص ٢٦٧ سطر (١٦) ـ تُقرأ :

١٠٠ ، ١١٤ ، ١٧٩ ، ١٨٤ ، ١٨٩ ، ١٩١ ، ١٩٩


مطبعة لجنة البيان العربي